

سلسلة

وَلَكِنْ شَيْءٌ وَقَرَّ فِي قَلْبِهِ

8

يُحِبُّهُمْ
وَيُحِبُّونَهُ

المحبة



سلسلة ولكن شيءٌ وَقَرَّ في قلبه

يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ

المحبة

مدارج

المحتويات

ص	العنوان
11	إهداء
12	مقدمة
14	الباب الأول: المحبة التي جاء بها الوحي
15	١ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ
18	٢ محبة العبادة ومحبة الطبيعة
22	٣ الطريق إلى أن يحبك الله
27	٤ محبة تليق بالله
30	٥ محبة يصحبها الخوف والرجاء
33	٦ حين تحب رسول الله ﷺ
39	٧ حلاوة لا تُفتعل
41	٨ أوصاف القوم الذين يحبهم
45	الباب الثاني: تعرف إلى من تحب

46		٩ حين يصبح الاسم معنى تعرفه
52		١٠ رحمة تدعوك إلى الاقتراب
56		١١ من النعمة إلى المنعم
62		١٢ جمال يوقظ التعظيم
66		١٣ الغني الذي نفتقر إليه
70		١٤ نعمة الهداية
74		١٥ الكمال الذي تعرفه من الوحي
79		١٦ قلب يعرف معنى العبادة
83		الباب الثالث: محبة تعرف طريقها
84		١٧ قراءة تسمع فيها الخطاب
88		١٨ اتباع في التفاصيل
91		١٩ الفرض الذي ينتظرك
96		٢٠ عمل قليل تصحبه
101		٢١ إثارة عند غلبة الهوى

104		٢٢ نية صالحة في المباح
107		٢٣ حين تتعدد أبواب الخير
110		٢٤ عبادة لا نخترعها
114		الباب الرابع: حياة القلب مع ربه
115		٢٥ أن تذكره
120		٢٦ حاجة تفتح الدعاء
125		٢٧ خلوة تحفظ الصدق
129		٢٨ حين تفتقر المشاعر
134		٢٩ مناجاة في الليل
140		٣٠ افتقار لا يهين النفس
142		٣١ الصلاة والذكر الذي من أجله تقوم
149		٣٢ أن تسأل الله محبته
152		الباب الخامس: ما تصنعه المحبة بالناس
153		٣٣ أخ تحبه لله

156		٣٤ فحرك بخير أخيك
160		٣٥ أن تنصح من تحب
164		٣٦ بيت يتسع للرفق
168		٣٧ حب لا يلغي العدل
172		٣٨ أن تزور بلا غرض خفي
176		٣٩ إخوة لا تجمعهم المنفعة وحدها
179		٤٠ حين يعجز من تحب عن مكافأتك
182		الباب السادس: حين يثقل الطريق
183		٤١ محبة لا تشتترط اليسر
188		٤٢ ما لا نعرف حكمته
192		٤٣ الفقد والحنين
196		٤٤ الرجوع بعد الزلة
201		٤٥ صبر يأخذ بالأسباب
204		٤٦ شكوى إلى الله

207		٤٧ المحبة حين تتسع الحياة
210		٤٨ حين تستبطئ تغير القلب
212		الباب السابع: ما يزاحم المحبة
213		٤٩ تعلّق يأخذ أكثر من حقه
217		٥٠ رضا الناس إذا غلب
222		٥١ كلام أكبر من العمل
227		٥٢ القسوة باسم الغيرة
232		٥٣ قدوة تحفظ لها منزلتها
235		٥٤ ما يدخل قلبك عبر الشاشة
238		٥٥ خبر توافقه رغبتك
241		٥٦ غلو يفسد المحبة
244		الباب الثامن: صحبة المعنى في الحياة
245		٥٧ اختيار واحد تصدق فيه
249		٥٨ صحبة تعينك على المحبة

253		٥٩ العودة إلى القرآن
257		٦٠ ما نرجوه ولا نزكي به أنفسنا
261		٦١ المال الذي تحب أن تبذله
264		٦٢ علم يغير موضع الجهل
267		٦٣ اختلاف يحفظ المعروف
270		٦٤ أن يكون لك أثر نافع
273		الباب التاسع: أوصاف يحب الله أصحابها
274		٦٥ يحب التوابين
278		٦٦ يحب المتقين
282		٦٧ يحب المحسنين
286		٦٨ يحب المتوكلين
290		٦٩ يحب الصابرين
294		٧٠ يحب المقسطين
298		٧١ يحب المتطهرين

302		٧٢ وأنت مقبل عليه
309		تدريب المحبة: من المعرفة إلى الاختيار
310		التطبيق ١: مصدر تثبت منه
312		التطبيق ٢: موعد يحتاج إلى إعادة ترتيب
314		التطبيق ٣: مساعدة تحفظ حق صاحبها
315		التطبيق ٤: حق يظهر على من تحب
316		التطبيق ٥: مواسة بلا تفسير مصنوع
317		التطبيق ٦: خطوة بعد زلة
318		التطبيق ٧: مجلس يتغير موضوعه
320		التطبيق ٨: تصحيح بلا انتصار للنفس
322		ورقة متابعة موقف واحد
324		التطبيق ٩: خلوة رقمية لها باب
326		التطبيق ١٠: تعلّم الحكم قبل المفاضلة
328		التطبيق ١١: حنين يحفظ حقوق الأحياء

330		التطبيق ١٢: قراءة تتجدد ولا تطلب إشارة
332		التطبيق ١٣: حدود التقييم
334		التطبيق ١٤: هدية بين الأبناء
336		التطبيق ١٥: اختلاف لا يقطع المعروف
338		التطبيق ١٦: محبوب يزاحم الفرض
340		التطبيق ١٧: علامة تطلبها النفس
342		التطبيق ١٨: عبادة في زمن الفتور
344		برنامج متابعة لواحد وعشرين يومًا
345		الأسبوع الأول: المعرفة قبل الحركة
346		الأسبوع الثاني: حق واحد يؤديه الحب
347		الأسبوع الثالث: مداومة وتصحيح
348		تقويم التدريب دون الحكم على القلب
349		أسئلة تحرس التوازن
350		خاتمة التدريب

351		دليل العودة إلى النصوص
352		فهرس القصص والمواقف
354		فهرس الآيات
358		فهرس الأحاديث والأخبار
361		فهرس الآثار وأقوال العلماء
365		فهرس المعاني والموضوعات
370		المصادر والمراجع

إهداء

إلى من عرّفونا بلطفهم أن للمحبة أثرًا يُرى؛ في كلمة تحفظ الكرامة، ويد تعين عند التعب، ووفاء يبقى حين تقل أسباب اللقاء...

إلى من علّمونا أن القرب من الله باب معرفة واتباع؛ أحبوا الخير لنا، وذكّرنا به برفق، ثم تركوا لنا من سيرتهم ما نعود إليه حين تتفرق بنا الأيام...

وإلى قلب يريد أن يحب ربه كما جاء في الوحي؛ يتعلم، ويجاهد ضعفه، ويمضي إلى طاعته، ثم يعود إذا تعثر، راجيًا أن يصلح الله ما خفي من قصده وما ظهر من عمله...

نهدي هذه الصفحات، ونسأل الله أن ينفع بها، وأن يرزقنا محبته ومحبة ما يقربنا إليه، وأن يجعل لنا فيها عونًا على صدق العبادة وحسن الصحبة.

تأليف وتوزيع مدارج

نسأل الله الإخلاص والقبول.

ولا تنسونا ووالدينا ومن أعان على هذا العمل من دعوة صادقة.

مقدمة

قد يظن الإنسان أن الحديث عن محبة الله لا يبدأ إلا حين يجد في قلبه شعورًا كبيرًا حاضراً، وأن فتور يوم واحد يسلبه حق الدخول في هذا الباب. لكن القلب لا يسير على وتيرة واحدة، والمحبة التي يتحدث عنها الوحي أوسع من لحظة تأثر. لها ما تعرفه من الشوق والأنس، ولها أيضاً ما تصدقه من اتباع، وصلاة تؤدي في وقتها، وحق يرد إلى صاحبه، وعودة إلى الله بعد خطأ.

يأتي هذا الكتاب بعد الإخلاص والمراقبة واليقين والتوكل والتفكر والخشوع والورع. ويتصل بها من سؤال يخصه: كيف يتعلق القلب بالله، وكيف يؤثر هذا التعلق في اختياراته وصلاته بالناس؟ فالإخلاص ينظر في جهة العمل، والورع يعين على التوقي مما يريب في موضعه؛ وقد يؤدي المرء عملاً صحيحاً ويحتاج أن يسأل: كيف أحفظ فيه حياة القلب؟ وقد يجد تأثراً قوياً ثم يحتاج أن يسأل: أين يظهر صدقه حين يطلب مني الحق ما لا تهواه نفسي؟

لا يملك أحد أن يخبر قارئاً بعينه أن الله أحبه لمجرد موقف رآه، ولا أن يسلبه الرجاء بسبب فتور عابر. بين الرجاء والدعوى مساحة واسعة يسير فيها المؤمن بالدليل، ويتوب

إذا أخطأ، ويحسن إذا قدر، ويسأل ربه قلبًا أصدق. من هذه المساحة تبدأ الصفحات.

يتدرج الكتاب في تسعة أبواب؛ يبدأ بمعنى المحبة الذي جاء به الوحي، ثم معرفة الله، والاتباع، وحياة القلب في العبادة، وأثر المحبة في الناس، ومواطن المشقة، وما يزاحم المقام، وصحبته في الحياة، والأوصاف التي نص القرآن على أن الله يحب أصحابها. وبعدها تدريب في مواقف متخيلة، وبرنامج متابعة تختار منه ما يناسبك. غاية التدريب تقويم الأعمال الظاهرة وتصحيحها؛ لا قياس ما في القلب ولا الحكم على القبول.

الباب الأول: المحبة التي جاء بها الوحي

١ | يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ

قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي
اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى
الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ
ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ¹.

جاءت آية المائدة في سياق التحذير من الردة وبيان أن الله يأتي بقوم آخرين يحبهم ويحبونه. وتصف هؤلاء القوم بالتواضع للمؤمنين والثبات على الحق، فلا تقف محبتهم عند دعوى منفصلة عن الحياة. ثم تنسب الآية هذا كله إلى فضل الله؛ فالعبد يسعى إلى الصفات التي يحبها ربه ويرجو توفيقه، ولا يجعل الآية شهادة لنفسه بمنزلة مخصوصة.

حين يقول القرآن «يحبهم»، لا يبدأ المرء من فحص نبض مشاعره، بل من معرفة ربه كما عرفه إلى نفسه في الوحي، ثم النظر في الطريق الذي دل عليه. وليس معنى هذا أن العاطفة لا شأن لها؛ القلب يحب ويأنس ويشتاق ويخاف فوات القرب. لكن المشاعر قد تشتد وتخف، أما حق الله فلا يتبدل بتبدل مزاجنا.

1 القرآن الكريم، المائدة: ٥٤؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

يجتمع في أوصافهم لين مع أهل الإيمان وثبات على الحق. وقد يحتاج الإنسان إلى الأمرين معًا: يرفق بمن اختلف معه في البيت، ويحفظ أمانة لا يرضى عنها بعض من حوله. وسنعود إلى هذه الصفات في ختام الباب، لنتبين كيف يجتمع بعضها إلى بعض.

وهناك سؤال أدق: حين نحب الله، هل نحب ما يأمر به إذا لم يره أحد؟ لا تحتاج الإجابة إلى قصة خارقة. قد تكون في صلاة لم تنشرها، أو في تعهد قطعته ثم وفيت به، أو في امتناع عن كلام يجرح غائبًا. هذه أمثلة للتفكر في أثر المحبة، لا شهادات بأن صاحبها بلغ منزلة مخصوصة. الله يعلم السرائر، ونحن نعرف العمل الظاهر ونرجو له القبول.

قال الله تعالى:

رَوَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ
كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعَذَابِ.²

تذم آية البقرة اتخاذ الأنداد، وتبين شدة محبة المؤمنين لله. وهي تعيد ترتيب القلب حين تتزاحم عليه المحبوبات: تبقى

2 القرآن الكريم، البقرة: ١٦٥؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

محبة الأهل وما أباح الله في موضعها، وتختص بالله محبة العبادة والخضوع. وهذا التفريق يحتاج إلى بيان حتى لا يلتبس الحب المباح بالتعلق الذي يفسد على صاحبه عبادته. لهذا لا نسأل في نهاية اليوم: هل بلغت إحساسًا استثنائيًا؟ نسأل سؤالاً يمكن أن يقود إلى عمل: أي اختيار اليوم قربني من طاعة الله، وأي اختيار يحتاج مني إصلاحًا؟ إن وجدت خيرًا حمدت الله ولم تزك نفسك، وإن وجدت نقصًا عرفت باب الرجوع. المحبة التي تدعو إلى الله تفتح الطريق، ولا تغلقه على من تعثر.

٢ | محبة العبادة ومحبة الطبيعة

يميل قلبك إلى ولدك، وتأنس بصديقك، وتحب مكانًا ارتبط
بذكرى جميلة. هذه خبرة بشرية نعرفها قبل أن نتعلم أسماءها.
فإذا سمعت أن المحبة عبادة، احتجت إلى تمييز يضع كل نوع
في موضعه؛ فاللفظ الواحد لا يجعل جميع ما نحبه شيئًا
واحدًا في الحكم والحقيقة.

قال الله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ
كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
إِنَّ يُرَوَّنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعَذَابِ﴾.³

في الآية مقابلة بين محبة المشركين لأندادهم ومحبة
المؤمنين لله. يتعلق الإنكار بجعل ند لله في محبة العبادة
والتعظيم الذي يختص به. أما ميل الإنسان إلى الطعام الطيب
أو شفقتة على ولده، فله حكمه بحسب متعلقاته وآثاره؛ وقد

3 القرآن الكريم، البقرة: ١٦٥؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

بين ابن باز الفرق بين عبادة غير الله وبين معصية تقع بسبب الميل إلى قريب.⁴

محبة العبادة محبة تقوم على تعظيم المعبود والخضوع له والافتقار إليه، وهي لله وحده. فالمحبة والخضوع داخلان في حقيقة العبادة؛ لا تكفي محبة مجردة من التعبد، ولا يكون مجرد الخضوع لإنسان مع بغضه عبادة له. ولهذا لا يصير حب الوالد لولده عبادة له لمجرد قوة محبته. قال ابن تيمية عن العبادة المأمور بها: «تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له».⁵ إليه تتوجه بعبادتك، ومنه تطلب ما لا يقدر عليه إلا هو. وتحب رسوله ﷺ إيماناً برسالاته واتباعاً له، وتحب المؤمنين لما فيهم من الإيمان والخير. هذه المحاب تابعة لمحبة الله، ولا تصير محبة الرسول أو الصالحين إنزناً بصرف عبادة لهم.

وقد تجتمع في علاقة واحدة أسباب متنوعة. تحب أخاك لقرباته، وتزيد محبتك لما ترى من صلاته وصدقه وإحسانه. تبقى القرابة، ويصبح الخير الذي جمعكما سبباً للنصيحة عند

4 عبد العزيز بن عبد الله بن باز، جواب «ما حقيقة محبة الله تعالى والمحبة لغير الله؟»، التفريغ المنشور في موقعه الرسمي، موضع التفريق بين عبادة غير الله والمعصية بسبب محبة القريب.

5 ابن تيمية، العبودية، تحقيق محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة السابعة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، فصل معنى العبادة، موضع اجتماع المحبة والخضوع والتميز من محبة الولد والصديق.

الخطأ. أما تسمية كل إعجاب بشخص محبةً في الله فقد تحجب عنك باعثًا آخر تحتاج إلى معرفته.

ومن الضبط أن تميز بين أصل الميل وما تختاره لأجله. ربما تألمت لأن ولدك خسر منافسة، ثم طلبت له إنصافًا بحق. وربما أوقعك الميل نفسه في شهادة كاذبة لصالحه. صورة المحبة متقاربة، لكن اختيارك مختلف. يعرف المسلم حرمة الكذب، ويستطيع أن يحفظ لولده محبته ويمنعه من أن يستفيد من ظلم. لا يتهم نفسه لمجرد الألم، ولا يبرر الفعل بأصل المحبة.

وهنا يلزم الحذر من التسرع في الأسماء الكبيرة. وقوع إنسان في معصية بسبب شخص يحبه لا يجعلنا نحكم على عينه بالشرك الأكبر. يفرق أهل العلم بين أنواع المحبة وصور المخالفة، وللحكم على الأعيان شروطه وموانعه. وظيفة هذا البيان أن تتعلم ما يصلح قلبك وعملك، وأن تعرف متى تحتاج إلى سؤال؛ فلا تحول معلومة عامة إلى محاكمة للناس. وإذا أرهقك تعلق بشخص، فصف أثره في عملك: واجب تؤخره لأجله، أو نفقة تتجاوز قدرتك طلبًا لرضاه، أو حق تعرفه وتخشى قوله. إصلاح هذه الأفعال يعيد العلاقة إلى قدرها المشروع، ولا يلزم منه أن تزول محبتك للشخص. وسيأتي تفصيل ذلك في باب ما يزاحم المحبة.

للمحبة الطبيعية مجالها الواسع، وللعبادة جهتها التي تصونها. فإذا وضعت المحبوب في منزلته، أمكنك أن تحبه بصدق من غير أن تطلب منه ما لا يملكه، وأن تتوجه إلى الله بقلب يعرف أن مرجعه الأخير إلى ربه.

٣ | الطريق إلى أن يحبك الله

قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾⁶

تبين الآية طريق المحبة: اتباع الرسول ﷺ. فمن ادعى محبة الله ثم جعل هواه حاكمًا على ما جاء به رسوله احتاج إلى تصحيح دعواه وعمله. وفي الآية نفسها وعد بالمغفرة؛ فالطريق مفتوح للتوبة، ولا يتوقف السير فيه على ادعاء العصمة من الخطأ.

قد تبدو كلمة «اتباع» واسعة حتى يصعب حملها إلى يوم عادي. تبدأ من أمر تعرفه وتؤجله: صلاة، أو أمانة، أو واجب في البيت، أو لسان يحتاج إلى صدق. ثم تزيد من الخير ما تستطيع، وتعود إذا قصرت. هذا المسار أقل ضجيجًا من وصف المشاعر، لكنه أوثق صلة بما أرشدت إليه الآية.

6 القرآن الكريم، آل عمران: ٣١؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية، النص الرقمي في المصحف الإلكتروني بجامعة الملك سعود.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحَبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»⁷.

يقدم الحديث الفرائض في التقرب، ثم يفتح باب الزيادة بالنوافل. يبدأ المؤمن بما افترض الله عليه، ويزيد من الخير ما يطيق، راجياً محبته وتوفيقه. وما جاء في السمع والبصر واليد والرجل بيّنه أهل العلم بتسديد الله لعبده وتوفيقه في استعمال جوارحه؛ فلا يحمل على حلول الخالق في المخلوق. وما ورد في آخر الحديث من التردد نثبتته على الوجه اللائق بالله، من غير تشبيه بتردد المخلوقين ولا خوض في الكيفية⁸.

7 حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، حديث ٦٥٠٢، عن أبي هريرة.

8 عبد العزيز بن عبد الله بن باز، شرح رياض الصالحين، باب المجاهدة، شرح حديث «من عادى لي ولياً»، ومجموع فتاوى ومقالات متنوعة، ٩/٤١٧، جواب «ما معنى: وما ترددت في شيء أنا فاعله؟».

إذا ضاق اليوم بالعمل والبيت، كان أول النظر في الفرائض والحقوق التي تعينت فيه. وبعد أدائها يختار العبد من النوافل ما يطيق. بهذا الترتيب يجد كل عمل موضعه، ويأتي تفصيله في فصلي «الفرض الذي ينتظرك» و«عمل قليل تصحبه».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ إِنِّي أُحِبُّ فَلَانًا فَأَحِبَّهُ - قَالَ - فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَحِبُّوهُ. فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ - قَالَ - ثُمَّ يُوَضِّعُ لَهُ الْقَبُولَ فِي الْأَرْضِ. وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ إِنِّي أَبْغِضُ فَلَانًا فَأَبْغِضُوهُ - قَالَ - فَيَبْغِضُوهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فَلَانًا فَأَبْغِضُوهُ - قَالَ - فَيَبْغِضُونَهُ ثُمَّ تُوَضِّعُ لَهُ الْبُغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ»⁹.

هذا خبر من عالم الغيب نؤمن به كما ورد. لا نستخرج منه حكمًا على شخص من عدد محبيه أو متابعيه، ولا نفسر كل عزلة بأنها علامة حرمان؛ فالقبول المذكور أوسع من شهرة تقاس بأرقام يراها الناس.

9 حديث صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدًا حبه إلى عباده، حديث ٢٦٣٧، عن أبي هريرة.

يستطيع الإنسان أن يراجع اتباعه، ويحرس فرائضه، ويصلح خطأه، ويكثر الدعاء. هذه أعمال بين يديه؛ أما منزلة مخصوصة عند الله فيرجوها ولا يشهد بها لنفسه. هكذا يبقى الرجاء دافعاً إلى السير في الطريق الذي دل عليه الوحي.

وللمحبة قدر واجب لا يستغني عنه مؤمن، وكمال يزداد به السابقون. يقرر ابن تيمية أن «محبة الله ورسوله على درجتين: واجبة» ثم يذكر الدرجة المستحبة.¹⁰ تتعلق الأولى بتقديم أمر الله ورسوله، ومحبة ما أوجبه الله، وكراهة ما حرّمه؛ ويظهر نقصها حين يختار العبد المعصية مع معرفته بها. وتتسع الثانية بمحبة النوافل والفضائل والمبادرة إليها. لا يعني ذلك أن كل زلة تمحو أصل المحبة، ولا أن كل من قل تطوعه قد ضيع فرضه؛ فبين أصل المقام وكماله تفصيل يحفظ الرجاء والمسؤولية معاً.

حين ينقص تطوعك لانشغال بحق واجب، تختلف المسألة عن ترك الواجب ليتفرغ لما يهواه. وحين يغلبك ضعف فتقع في ذنب، يعينك هذا البيان على توبة محددة بدل الحكم على حياتك كلها بكلمة واحدة. تقول: قصّرت في حق أعلمه،

10 ابن تيمية، قاعدة في المحبة، تحقيق محمد رشاد سالم، فصل محبة الله ورسوله على درجتين، ص ٩١-٩٢ بحسب علامات النسخة الرقمية؛ وانظر حديث الولاية المتقدم، صحيح البخاري، حديث ٦٥٠٢.

وأحتاج إلى الرجوع وإصلاح السبب. ثم تتقرب بالنوافل التي تقدر عليها؛ فالكمال باب زيادة، والتوبة تعالج ما نقص، وليس المقصود أن تمنح نفسك رتبة أو تمنح الناس شهادات. وإذا ثقلت الطاعة أو قل أثرها الشعوري، فابدأ بما تعرفه: أدِّ الفرض، وافهم ما تقول فيه، واسأل الله حياة القلب. ستأتي معالجة الفتور في موضعها؛ والمقصود هنا أن يظل الاتباع طريقك في النشاط والضعف.

٤ | محبة تليق بالله

قال الله تعالى:

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّوكُمْ فِيهِ لَبَاسٌ كَمَثَلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.¹¹

يجمع النص نفي المماثلة وإثبات السمع والبصر. ومن هذا الأصل نفهم ما أخبر الله به عن صفاته، فنثبت محبته على وجه يليق به، وندع قياس الخالق على المخلوق والخوض في الكيفية. ومحبة الله لعباده صفة حقيقية تليق بجلاله؛ فلا نشبهها بمحبة المخلوق، ولا نلغي معناها بجعلها مجرد اسم للثواب أو الإنعام. إنعامه على من يحب من آثار محبته، وليس الأثر هو الصفة نفسها. وبين ابن تيمية أن طريقة السلف «إقرار المحبة على ما هي عليه»، في سياق رده اختزالها في الإحسان أو إرادته.¹²

محبة الإنسان قد يخالطها احتياج إلى من يحبه، أو خوف من فقده، أو انتظار لما يعود منه. لا ننقل هذه اللوازم البشرية إلى

11 القرآن الكريم، الشورى: ١١؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

12 ابن تيمية، قاعدة في المحبة، تحقيق محمد رشاد سالم، مكتبة التراث الإسلامي، فصل تأويل طوائف للمحبة، عقب حديث الولاية؛ ص ٥١ بحسب علامات صفحات النسخة الرقمية المسترجعة.

محبة الله. الله غني عن عباده، وعبادته نفع للعبد، وتقربه إليه فضل عليه. وحين يذكر القرآن أن الله يأتي بقوم يحبهم ويحبونه، يختم الوصف بأن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء؛ فلا يتوهم أحد أن الله محتاج إلى طاعته.¹³

هذا الفهم يحرر الدعاء من لغة المعاوضة. لا يقول العبد في نفسه: فعلت كذا، فلا بد أن تعطيني الآن ما عينته. يرجو ثواب الطاعة، ويسأل حاجته، ويحسن الظن بربه، لكنه لا يجعل اختياره الخاص شرطًا لاستمرار عبوديته. قد يدعو بأمر مباح يحبه، ثم لا يقع كما أراد؛ يبقى الله مستحقًا للعبادة، ويبقى على العبد أن يسأل ويتعلم ويأخذ بالأسباب التي يقدر عليها.

ونعرف من الوحي أعمالاً يحبها الله، أما تقلب الرزق والعافية في حياة شخص فلا يكفي وحده للحكم على منزلته عند ربه. لذلك يظل سؤال المبتلى: ما الذي يلزمني الآن من صبر أو إصلاح أو أخذ بسبب نافع؟ ويأتي تفصيل هذه المسألة في باب «حين يثقل الطريق».

نحب الله ونسأله محبته، ولا نرسم لهذه الصفة صورة من خبراتنا المحدودة. ومن أدب القلب أن يعرف موضع علمه: له

13 القرآن الكريم، المائدة: ٥٤؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

أن يتدبر النص وأن يفرح بالوعد وأن يجتهد في الطاعة؛
وليس له أن يحول رجاءه إلى إحاطة بالغيب. بهذه المعرفة
يتسع باب العبادة، ويقل انشغال الإنسان بإصدار الأحكام على
نفسه وعلى الناس.

٥ | محبة يصحبها الخوف والرجاء

ربما أحب الإنسان كلمة الرحمة، ثم ظن أن حضور الخوف يفسد علاقته بالله. وربما استقر عند آخر أن العبادة لا تصدق إلا حين يضيق صدره بالعقوبة. بين هاتين الصورتين نتلقى من القرآن عبودية يجتمع فيها الدعاء والخوف والرجاء؛ ويعرف القلب محبوبه بما أخبر به عن نفسه، لا بما اختار أن يسمعه وحده.

قال تعالى:

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا
وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾¹⁴

تصف الآية إقبالاً إلى الله في وقت الراحة، ودعاءً يجمع الخوف والطمع، وإنفاقاً مما رزق. لا يعطل الخوف الدعاء، ولا يزيل الرجاء المسؤولية. وفي هذا الجمع مجال للمحبة: تحب ربك، وترجو رحمته، وتخاف مخالفته، وتستجيب لما عرفت من أمره. تلك معانٍ تتعاون على توجيه الحياة، وإن غلب واحد منها في حال دون حال.

14 القرآن الكريم، السجدة: ١٦؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

للخوف أثر حين يدعوك إلى الكف عن ذنب تستطيع تركه، وللرجاء أثر حين يفتح لك باب العودة بعده. فإذا صار الخوف حجة لليأس، انقطع عن ثمرة نافعة. وإذا صار الرجاء عذراً للإصرار، غاب عنه معنى الاستجابة. لا تحتاج إلى تعيين مقدار شعوري ثابت لكل معنى؛ تحتاج إلى أن تسأل عما يدعوك إليه الآن، وأن تزن هذا الاتجاه بالنصوص.

بعد خطأ معلوم قد تقول لنفسك: لا وجه للرجوع بعد ما فعلت. هنا تتعلم من سعة المغفرة ما يعين على التوبة. وقبل معصية قد تقول: سأفعل ثم أتوب، وكأنك تملك ما يأتي بعد ساعة. هنا تحتاج إلى معرفة حرمة العمل وعاقبته، وإلى كف حاضر. اختلاف العلاج يتبع اختلاف موضع الخل، ولا يجعل الشريعة مرة باب تخويف محض ومرة وعداً بلا تكليف.

وفي التعلم اقرأ آيات الرحمة مع ما يبين التقوى، وأخبار النعيم مع ما يبين مسؤولية العمل. قد يختار المقطع القصير معنى واحداً لشدة أثره، أما المعرفة المستقرة فتحتاج إلى جمع النصوص وفهم سياقها. انتفع بما يوقظ قلبك، ثم ارجع إلى البيان الذي يحفظ للمعنى حدوده.

وقد يشتد خوف متكرر من غير ذنب معين، حتى يعيد صاحبه السؤال كل يوم ويتعطل عن العمل. يحتاج حينئذ إلى بيان يفهمه وخطوة معلومة، وقد تنفعه مساندة مختصة إذا

استمر التعطيل. تكثير التهديد العام لا يعالج هذا الخوف، كما أن وصفه لا يبيح الحكم على دين صاحبه أو تشخيص حالته. وفي البيت والتعليم يترك هذا الجمع أثرًا في اللغة. نعلم الصغير محبة الله وشكره، ونعرفه بالواجب والمحرم، ونفتح له باب الاعتذار والتصحيح. فلا نقدم له كل خطأ بوصفه نهاية العلاقة بربه، ولا نجعل لطف التعليم سكوًا عن الفعل المؤذي. يعرف أن لأفعاله وزنًا، وأن لرجوعه طريقًا، وأنه يسأل ربه العون في الحاليين.

حين يجتمع في قلبك الرجاء والخوف، تستطيع أن تمضي بطمأنينة مسؤولية. لك أن تفرح بما تعلمت من الرحمة، وأن تحذر ما علمت من المعصية، وأن تحب الله وأنت تسأله الثبات. إنما يصدق سيرك بما تعرفه وتختاره، لا بقدرتك على وصف انفعال واحد لا يتغير.

٦ | حين تحب رسول الله ﷺ

عن عبد الله بن هشام رضي الله عنه قال:

«كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ لَهُ
عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ
نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ
أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ الْآنَ يَا عُمَرُ».¹⁵

في الخبر إقرار بالمحبة، وتصحيح نبوي لمرتبته، واستجابة
من عمر. يردنا ذلك إلى ترتيب ما نحب حين تتعارض رغبة
عارضة مع هدي الرسول ﷺ.

ليس كل تعارض حدثًا كبيرًا. قد يحب الإنسان أن يرد بكلمة
تؤذي من آذاه، ثم يذكر هدي النبي ﷺ فيزن قوله. وقد
يشتهي أن ينتصر لرأي اعتاده، ثم يتبين له أن الدليل على
خلافه. المحبة هنا تحتاج إلى علم؛ إذ لا يتبع المرء ما لم
يعرفه. ومن أول ما يحسن به أن يتعلم من سيرته وسنته ما
يصلح عبادته ومعاملته، وأن يميز الثابت مما راج على
الألسنة.

15 حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت
يمين النبي ﷺ، حديث ٦٦٣٢، عن عبد الله بن هشام.

وقد يكرر المرء قصة مؤثرة عن النبي ﷺ لأنها تلائم الصورة التي يحبها، ثم يعلم أنها لم تثبت. محبته له تدعوه إلى التوقف عن نسبتها إليه. يستطيع أن يذكر من رحمته وصدقه وصبره ما صح، وفي الصحيح غنى واسع. ليست حرارة التأثير عوضاً عن أمانة النقل، ولا كثرة التداول سنداً للرواية.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.¹⁶

والاتباع باب يتعلمه الإنسان على قدر حاجته، ويعرض ما أشكل عليه على أهل العلم. قد يسمع حكيمين مختلفين في مسألة فيظن أن محبته تقتضي القطع فيها بنفسه. الذي يلزمه حين لا يعلم أن يسأل، وأن يصدق في طلب الحق، وألا يجعل هواه وسيلة لاختيار ما يريحه كل مرة.

ومن محبته ﷺ أن تبقى سنته حاضرة في معاملتك لمن يعيش معك. لا يصح أن يكون نصيب الغرباء حسن الحديث عنه، ثم يجد أهل البيت منك غلظة لا تجاهد نفسك عليها. قد

16 القرآن الكريم، آل عمران: ٣١؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية، النص الرقمي في المصحف الإلكتروني بجامعة الملك سعود.

تخطئ، لكن الخطأ لا يصبح هدياً لمجرد أنك اعتدته. تعترف به، وتعتذر لصاحب الحق، وتتعلم وجه الإصلاح.

ولمحبتة ﷺ بشرى تحمل إلى القلب معنى الصحبة بعد انقضاء الدنيا. جاء رجل يسأل عن الساعة، فجاءه جواب يفتح له طريق الاستعداد لها. عن أنس رضي الله عنه:

«أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: وَمَاذَا أَعَدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: لَا شَيْءَ إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ. فَقَالَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحَبَبْتَ. قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرَحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحَبَبْتَ. قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ»¹⁷.

سأل الرجل عن وقت الساعة، فسأله النبي ﷺ عما أعد لها. نقل الجواب اهتمامه إلى ما ينفعه أن يعمل له؛ ثم جاءت البشارة حين ذكر محبته لله ورسوله. والمحبة هنا شيء يحمله القلب ويتقرب به إلى الله، ولها في رجائه شأن عظيم. لم يمر أنس بهذا الخبر مرور من حفظ معلومة؛ حكى فرحهم به، ثم ذكر المحبوبين الذين يرجو أن يكون معهم.

17 حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي رضي الله عنه، حديث 3688، عن أنس بن مالك. النص بلفظ هذه الرواية، وكلام أنس في آخره موقوف عليه.

وكلام أنس في آخر الرواية من كلام الصحابي، وليس جزءاً من قول النبي ﷺ. وفيه بيان لما فتحت له البشارة: يحب الرسول وأبا بكر وعمر، ويعرف أن أعماله لا تبلغ مثل أعمالهم، ومع ذلك يرجو صحبتهم. فالاعتراف بتفاوت العمل لم يطفئ المحبة، والمحبة لم تحمله على ادعاء أنه صار مساوياً لهم. يستطيع القلب أن يعظم فضل السابقين، وأن يفرح بالوعد الذي يرجو أن يلحقه بخيرهم.

وقد يقلق القارئ من قوله: «لا شيء»، فيظن أن الرواية تجعل المحبة بديلاً عن الإيمان والعمل الواجب. يبين لفظ آخر للقصة أن الرجل لم يذكر عملاً كثيراً يحمد عليه نفسه؛ ففي صحيح مسلم قال: «مَا أَعَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرٍ أَحْمَدُ عَلَيْهِ نَفْسِي».¹⁸ نقرأ ألقاظ الخبر مجتمعة، ونحفظ معه ما تقدم من آية الاتباع. البشارة تفتح الرجاء لمن أحب، ولا تنشئ إعفاءً من الفرائض التي أمر الله بها.

ثم إن المعية الموعودة لا تعني التسوية في المنزلة والثواب من كل وجه. نبه ابن حجر، في شرح حديث «المرء مع من أحب»، إلى أن المحبة من أعمال القلوب التي يثيب الله عليها،

18 حديث صحيح: مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، حديث ٢٦٣٩، طريق معمر عن الزهري عن أنس؛ اللفظ: «ما أعددت لها من كثير أحمد عليه نفسي».

وإلى أن حصول المعية لا يستلزم استواء الدرجات.¹⁹ يبقى لكل إنسان عمله، ويبقى فضل الله أوسع من حسابه لنفسه. ومن فرح بهذه البشرية لم يحتج أن يلغي الفروق التي أثبتتها الوحي بين الناس.

قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾.²⁰

وصلت الآية هذه الرفقة بطاعة الله ورسوله. وبين السعدي أن الطاعة تكون بحسب حال العبد وما وجب عليه، وأن من نعيم هذه المعية الاجتماع بال صالحين والأنس بصحبته في الجنة. وفي ذلك ما يجعل عمل اليوم متصلاً برجاء أبعد: لا تنتهي محبتك عند خبر تقرأه عنهم، بل ترجو أن تكون معهم، وتسلك الطريق الذي تعلم أنه يقربك من مرضاة الله.

19 ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله، شرح حديث «المرء مع من أحب»؛ موضع تقرير أن المحبة من أعمال القلوب وأن المعية لا تستلزم استواء الدرجات. وقبل النص الرقمي المنشور في مكتبة إسلام ويب.

20 القرآن الكريم، النساء: 69؛ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير الآية.

وتختلف صحبة هذه المعاني عن الانبهار بصورة بعيدة لا تتعلم منها شيئاً. إذا قرأت عن صدق النبي ﷺ، أو رحمته، أو صبره، تعرفت إلى من تحب وزاد شوقك إلى صحبته. وقد يفتح الخبر في نفسك سؤالاً لم يكن حاضراً: أي خلق منه كنت أجهله؟ وأي هدي منه أريد تعلمه؟ بذلك تبقى السيرة باب معرفة ومودة واقتداء، ويكون لطلب العلم باعث يحرك القلب، إلى جانب الحاجة إلى معرفة الحكم.

وقد يشعر قارئ متأخر في التعلم أن المسافة بينه وبين الصالحين واسعة، فيتجنب قراءة أخبارهم لأن المقارنة تؤلمه. في رجاء أنس معنى يعينه: تعرف فضل من سبقك، وتحبه لأجل الخير الذي فيه، وتأخذ من علمه وهديه ما تستطيع. لا يتطلب صدق الاقتداء أن تبدأ من النهاية التي بلغها غيرك. إنما تتعلم وتعمل وترجو، وتسال الله أن يجمعك بأهل طاعته. وحين تسمع البشارة تذكر فرح أنس بها؛ فللمحبة رجاء يسر القلب ويعين على الاتباع. احمل معك من الخبر صدق السؤال: ماذا أعددت؟ وسعة البشارة: أنت مع من أحببت. تعرف من تحب، وتقتدي به، وتدعو الله أن يرزقك صحبته؛ ثم تمضي إلى عملك وأنت ترجو فضل ربك.

٧ | حلاوة لا تُفتعل

عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ
إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ
فِي النَّارِ».²¹

جمع الحديث تعلق القلب بربه، وصلته بإنسان آخر، وثباته
على الإيمان. فحلاوة الإيمان متصلة بوجهة الحياة وما يقدمه
الإنسان في محبته واختياره.

حلاوة الإيمان نعمة يجدها القلب، والحديث يدل على أسبابها.
أما صورتها في الدمع أو شدة التأثير فليست مقياسًا واحدًا
للناس. قد تبكي حين تسمع آية ثم تؤدي الحق الذي ذكرتك
به، وقد تفهم وتستجيب من غير بكاء. نتعهد صدق العمل،
ونترك الحكم على السرائر لله.

وتأمل محبة المرء لله في الحديث: تحب فيه إيمانه وخيره،
ولو لم يكن قادرًا على رفع شأنك أو قضاء حاجتك. وهذا
الخير نفسه يدعوك إلى إعانتته ونصحه عند الخطأ. سيأتي

21 حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، حديث
١٦، عن أنس بن مالك.

تفصيل حقوق هذه المحبة في الباب الخامس؛ وأصلها هنا أن تخرج العلاقة من الاختصار على المنفعة التي تعود إليك.

وفي تقديم محبة الله ورسوله ترتيب يتجاوز الكلام. قد يكون أمامك نفع عاجل لا تصل إليه إلا بمعصية تعلمها. هنا يظهر أثر ما قدمته في قلبك حين تترك ذلك الطريق. وليس كل ترك سهلاً؛ قد تجد ألم الفوات، ومع ذلك تختار الطاعة. لا يلزم من الألم أن تكون محبتك كذباً، ولا ينبغي أن تطلب اختفاء كل رغبة حتى تبدأ بالاستجابة.

ومن أخطاء السائر أن يفتش عن حلاوة الإيمان بطريقة تعطل سببها: ينتقل بين المجالس بحثاً عن تأثير جديد، ويؤجل واجباً ثابتاً، أو يقارن نفسه بمن يحسن وصف أحواله. الأجدى أن يأخذ نصيبه من العلم والعمل، وأن يختار من النوافل ما يطيق، وأن يترك للخير أثره دون استعجال شهادة لنفسه. هذه تطبيقات تربوية لمعنى الحديث، وليست وصفة تضمن حالاً شعورياً في موعد محدد.

اسأل الله قلباً يحبه، ثم اجتهد في خصلة تعرفها من هذه الخصال. قد تبدأ بإصلاح صلة أفسدها تنافس، أو بمراجعة اختيار قدمت فيه رضا الناس على أمر واضح. لا تتكلف إعلان ما وجدت في قلبك، ولا تيأس لأنك لا تحسن وصفه. في صدق السير متسع لمن عرف حاجته إلى ربه.

٨ | أوصاف القوم الذين يحبهم

نعود إلى آية العنوان لنقرأ صفات القوم الذين يحبهم الله ويحبونه. بعد بيان أصل المحبة في مطلع الكتاب، نتأمل هنا اجتماع الرحمة والشجاعة والثبات في أهلها.²²

أول ما يلفت النظر أن الآية لا تكتفي بقولهم إنهم يحبون. تصف صلتهم بالمؤمنين، وموقفهم من الكافرين، وبذلهم في سبيل الله، وثباتهم أمام اللوم. هذه أوصاف تخرج بالمقام من الغموض إلى حياة لها ولاء ووجهة وأعمال. وتنتهي الآية بنسبة الفضل إلى الله، فيبقى الساعي مفتقرًا إلى توفيقه مهما حسن منه العمل.

الذلة للمؤمنين لين ورحمة وتواضع، لا إذن بالإهانة ولا سقوط لحقوق المظلوم. تستطيع أن تسمع لأخيك، وأن تبذل له عونًا، وأن تقبل منه نصيحة، مع حفظ العدل إذا أخطأ. من أشق ما على بعض النفوس أن تتواضع لمن لا يزيد لها مكانة. هنا يصل وصف الآية إلى المجلس العادي: أيجد الضعيف منك ما يجده صاحب الجاه من حسن اللقاء؟

22 القرآن الكريم، المائدة: ٥٤؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

والعزة أمام الكفر ثبات على الدين واعتزاز بالإيمان، وليست ترخيصًا بالظلم أو نقض العهد. يظل للعدل مرجعه، وللمعاملات أحكامها، وللدعوة أدبها. قد يعيش المسلم مع من يخالفه في الدين فيحسن معاملته ويصدق معه، ويحفظ في الوقت نفسه ما يؤمن به ولا يساوم عليه. وضوح الاعتقاد وحسن المعاملة يجتمعان في شريعة واحدة.

أما الجهاد في سبيل الله، فباب له أحكامه ومراتبه وشروطه وسلطاته المعتبرة. لا يتلقى القارئ من هذه الآية إذنًا بفعل عنيف يختاره منفردًا، ولا يجعل غضبه الشخصي تعريفًا لما هو في سبيل الله. يتعلم من أهل العلم ما يخصه من الحكم، ويؤدي ما يستطيع من واجباته الشرعية. وتعظيم لفظ شرعي يقتضي صيانة معناه من استعمال يخرج عنه حدوده.

ويزيد القرآن هذا الوصف بيانًا في قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرُوصٌ﴾.²³

هذا من الأوصاف الصريحة لمن يحبهم الله، ومحله القتال المشروع في سبيله. يجمع النص جهة العمل وهي سبيل الله،

23 القرآن الكريم، الصف: ٤؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية. وقد جاء الوصف مقيّدًا بالقتال في سبيل الله، فلا ينقل حكمه الخاص إلى كل تعاون بشري.

واجتماع أهله في صف، وثباتهم وتماسكهم كالبنيان المحكم. ويبين ابن كثير أن الآية خبر عن محبة الله للمؤمنين حين يصطفون في القتال لتكون كلمته هي العليا. فقول الآية «في سبيله» جزء من الوصف؛ لا يكفي تشابه الصورة إذا فسد القصد أو خولف الشرع.

وفي صورة البنيان معنى اتصال الأجزاء وثباتها، فينتقل النظر من شجاعة الفرد وحده إلى وفائه بموقعه بين إخوانه. تظهر المحبة في إخلاصه وبذله وفي حفظ العمل الذي يشاركه فيه غيره. وكلما استحضر الغاية الصحيحة، كان أقدر على احتمال ما يحتاجه الاجتماع من تعاون وانضباط، وأبعد عن تقديم حظ نفسه على الواجب الذي اجتمعوا عليه.

ويستأنس بهذا المعنى في فهم قيمة التعاون على الخير، مع إبقاء فضل الآية الخاص في محله. فتعاون الناس في التعليم والرعاية والإصلاح له أصل عام في الأمر بالتعاون على البر والتقوى.²⁴ ومن ثمراته أن يفرح المرء بنفع جاء على يد غيره، وأن يؤدي ما يحسنه، ويعين من يكمل نقصه. وقد يحب إنسان أن يرتبط كل خير باسمه؛ فيكون إصلاحه أن يقدم وصول النفع المشروع على حظه من الذكر والثناء.

24 القرآن الكريم، المائدة: ٢. التطبيقات الاجتماعية المذكورة بعد بيان تفسير الصف: ٤ تقريب تربوي للمؤلف، وليست نصاً منقولاً عن المفسرين.

ولا يقتضي الاجتماع إخفاء الخطأ أو إهدار حق المتضرر؛ فالبر لا يستقيم بما نهى الله عنه. يسمع الإنسان النصيحة، ويقبل التصحيح، ويحب لمن يشاركه من الخير ما يحب لنفسه. تلك تطبيقات تربوية لمعنى التساند في الطاعة، وليست نقلاً لحكم القتال أو فضله الخاص إلى كل نشاط جماعي.

وفي عدم الخوف من لومة لائم معنى الثبات عند ضغط الناس. قد ترفض مشاركة تعلم حرمتها فيسخر منك صاحبها، أو تحفظ صلاة في موعدها فيستغرب من حولك، أو تذكر حقيقة لا ترضي قريباً. لا تحتاج إلى تحد متكلف أو إساءة لتثبت استقلالك. بين سببك بقدر الحاجة، وافعل ما تعرفه، واحفظ حق المخالف في العدل والأدب.

وتبقى بين الثبات والعناد مسافة تحتاج إلى علم. إذا قال لك شخص إنك أخطأت في فهم دليل، فاسمع برهانه. ليس كل اعتراض لوماً ينبغي تجاهله، وليس كل مخالفة للناس علامة صواب. ما يثبته النص هو الثبات على الحق؛ ومعرفة الحق تسبق الثبات عليه. ربما كان الرجوع عن قولك صورة من هذا الثبات، حين بان أن القول لم يكن صحيحاً.

الباب الثاني: تعرف إلى من تحب

٩ | حين يصبح الاسم معنى تعرفه

تقرأ الفاتحة في صلاتك، ويمر على لسانك اسم «الرحمن» ثم اسم «الرحيم». قد تقرأهما في يوم هادئ، وقد تقرأهما وأنت تحمل همًّا لا يعرفه من يقف إلى جوارك. الكلمات نفسها، لكن عنايتك بمعناها تفتح لك بابًا إلى معرفة ربك، بدل أن يبقى الاسم صوتًا ألفه اللسان حتى أسرع عنه.

نحن بحاجة إلى هذه المعرفة في محبة الله. فمن أين يتعلم القلب عن يحب، إذا كانت معلوماته متفرقة، يأخذها مرة من عبارة سمعها، ومرة من انطباع قديم لم يراجعه؟ يخبرنا الله عن نفسه في كتابه؛ فنأتي إلى الخبر لتعلم، ونصح به ما حملناه من تصورات. وهذا عمل قد يبدأ بآية قصيرة، ثم يصحب الإنسان زمناً طويلاً.

قال الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ
فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾²⁵

يبين السعدي في تفسير الآية أن أسماء الله تدل على صفات الكمال؛ فالعليم يدل على علمه، والرحيم على رحمته، والقدير

25 القرآن الكريم، الأعراف: ١٨٠؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

على قدرته. ويدخل في الدعاء بها سؤال الله بما يناسب الحاجة. فحين تقول: يا غفور، اغفر لي، فأنت تسأل ربك العفو، عالمًا أنه يغفر الذنوب.

ومن أثر معرفة أن الله سميع أن تدعوه بصدق ووضوح. تستطيع أن تقول: اللهم أعني على هذا الأمر، واهدني للصواب فيه؛ وهو دعاء تنشئه لحاجتك، لا لفظ تنسبه إلى النبي ﷺ. تفهم ما تسأل وتقبل بقلبك على ربك، من غير تكلف عبارة غريبة أو حزن لا تجده.

وقد يعرف الإنسان أن الله عليم، ومع ذلك يحمل همًّا آخر فوق همه: لن يفهم أحد ما جرى لي. في الحياة حاجة إلى من يسمعنا، ويعيننا، ويدفع عنا ظلمًا إن قدر. لكن قصور كلامنا عن وصف التجربة لا يجعلها خافية على الله. ما عجزت عن ترتيبه في حديث طويل ليس مجهولًا عند ربك. يمكنك أن تدعوه قبل أن تحسن شرح كل شيء لنفسك.

بهذا تصبح معرفة الاسم متصلة بحياتك، مع بقائها معرفة تتلقاها من الوحي. لا نصنع اسمًا لله لأننا أحببنا وقعه، ولا نعطي الاسم معنى اخترعناه ليوافق رغبتنا؛ فالآية نفسها تحذر من الإلحاد في أسمائه. إن التبس المعنى رجعنا إلى بيان أهل العلم. وفي هذا الرجوع أمان للقلب: يحب ربه كما عرفه

إلى نفسه، ولا يبني تعلقه بصورة رسمها خياله ثم ينتظر من الحياة أن تؤكدها.

ولنتخيل امرأة تعتني بأم مسنة: تهئ طعامها ودواءها، وتصغي إلى حديث تعيده الأم. قد تتعب وتحتاج إلى مشاركة أهلها. تذكّرها علم الله يطمئنها إلى أن عملها لا يخفى عليه، ويعينها على طلب الأجر والقوة؛ وتستطيع في الوقت نفسه أن تطلب من إخوتها نصيبهم من المسؤولية.

ويوقظك علم الله إلى الصدق حين تحاول إخفاء خطأ برواية غير صحيحة. قد يصدق الناس ما تقول، لكن تصديقهم لا يغير حقيقة ما فعلت. المعرفة التي آنتك حين خفي إحسانك تدعوك أيضًا إلى إصلاح تقصيرك.

قد تقف مع اسم ورد في آية تقرأها، وتراجع معناه في تفسير موثوق، ثم تدعو الله به. وربما صحك معناه وأنت تدخل موقفًا كنت تستوحشه؛ فالمعرفة تنمو بالعودة والعمل بما تعلمت.

ومن أسمائه سبحانه «الودود»، وهو اسم يصل هذا الباب بعنوان الكتاب اتصالاً ظاهراً. قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾.²⁶

يفسر السعدي هذا الاسم بمعنيين متلازمين: أن الله يحب أحبابه، وأنهم يحبونه. ويقول في بيان الود: «والمودة هي المحبة الصافية». يعرفك الاسم بربك، ثم يردك إلى تعلق قلبك به؛ فتسأله محبته وأنت تعلم أن هذا الباب ثابت في خبره عن نفسه. ليست المحبة معنى أدبياً نضيفه إلى معرفتنا بالله؛ لها أصل نتلقاه من الوحي، ونثبته على الوجه اللائق به.

وتأمل اقتران «الودود» بـ«الغفور». قد يتصور من أذنب أنه إن غفر الله له بقيت بينه وبين القرب مسافة لا تزول، كأنه يستطيع أن يرجو سقوط العقوبة ولا يستطيع أن يرجو المحبة. ينبه السعدي عند هذه الآية إلى أن التائب إذا رجع إلى الله لم يُحرم ودّه بسبب ذنب تاب منه. يجتمع له رجاء المغفرة والمحبة، فيستقبل عبادته بقلب راغب، ويعرف أن ماضيه ليس حجة ليغلق على نفسه باب الرجوع.

26 القرآن الكريم، البروج: ١٤؛ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير الآية؛ بيان معنى الودود، واقتترانه بالغفور، ورجوع المحبة للتائب.

وفي دعوة شعيب عليه السلام لقومه جاء الاسم مقترناً بالرحمة:

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.²⁷

سبق الاستغفار والتوبة خبر الرحمة والود في هذه الآية. فمعرفة الاسم تدعو إلى رجوع حقيقي: تترك المخالفة، وتقبل على الله بالطاعة، وترجو أن يرحمك ويقبل توبتك ويحبك. وهذا ما يبينه السعدي في تفسيرها. هكذا تختلف معرفة «الودود» عن ترديد الاسم مع البقاء على تصور قديم أنك لا تستطيع الاقتراب إلا إذا لم يكن في ماضيك خطأ.

ولكل من الاقترانين أثر في فهمك: مع المغفرة تتذكر سعة الرجوع بعد الذنب، ومع الرحمة تتلقى دعوة نبي إلى الاستغفار والتوبة. تجمع الموضوعين، فتغتنى معرفتك بالسياق الذي ورد فيه الاسم. وهذا مثال عملي للتعلم بالأسماء: لا تعزل الاسم في قائمة ثم تكتفي بحفظه، بل اقرأ أين ورد، وإلى أي إيمان وعمل وجهك سياقه. تنمو المحبة بما تتعلمه، وتجد للدعاء معنى كنت تمر به سريعاً.

27 القرآن الكريم، هود: ٩٠؛ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير الآية؛ معنى الودود وصلته بالاستغفار والتوبة.

وقد تعلمك علاقة بشرية أن الخطأ يبقى مع صاحبه مهما اعتذر، أو أن من عفا عنه لن يرضى عنه بعد ذلك. ليس لهذه التجربة أن تحكم ما أخبر الله به عن نفسه. تتلقى خبر الغفور الودود كما جاء، وتسأله أن يصلحك ويقربك إليه. وتؤدي ما ترتب على خطئك من حق، فالتوبة التي ترجو معها الود لا تختزل في شعور يريحك وتبقى آثاره على غيرك.

هذا الاسم يدعوك إلى محبة تعرف مصدرها، ورجاء يعرف طريقه. تستطيع أن تقول في دعائك: يا ودود، ارزقني محبتك ومحبة ما يقربني إليك؛ وهي صياغة دعاء تنشئها بهذا المعنى، لا ذكر مخصوص تنسب له عددًا أو أثرًا معينًا. وتعود بعدها إلى عبادتك مستحضراً أن ربك الذي أمرك بالتوبة هو الذي عرّفك برحمته ومغفرته وودّه.

حين تقرأ الفاتحة مرة أخرى، أعط الكلمات نصيباً من انتباهك. «الرحمن الرحيم» ليستا خبراً جديداً على لسانك، لكن القلب قد يحتاج أن يعود إليهما. ومن هذه العودة نقترّب من معنى عظيم: كيف يتغير سيرنا إلى الله حين نعرف سعة رحمته؟

١٠ | رحمة تدعوك إلى الاقتراب

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ تَدْيِهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ قُلْنَا لَا وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ. فَقَالَ لِلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا».²⁸

جاء البيان في مشهد يفهمه من حضر: طفل تحمله امرأة وتطعمه. ثم دلهم النبي ﷺ على رحمة الله التي هي أعظم. في الرعاية التي رأوها ما يقرب المعنى إليهم، وفي الكلمة النبوية خبر عن ربهم يحملونه معهم بعد انقضاء المشهد. ونحن نقرأ الخبر لنتعلم ما علّمهم، ونستحضر رحمة الله حين ندعوه.

قد يعرف الإنسان أوامر كثيرة، ثم تبقى معرفته برحمته ربه بعيدة عن حديثه مع نفسه. إذا أخطأ، لم يسمع إلا جملة واحدة: كيف صدر هذا منك؟ الجملة توقظه أول الأمر، لكنها إذا انفردت به طويلاً قد تشغله عن الخطوة التي ينبغي أن

28 حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، حديث ٥٩٩٩، عن عمر بن الخطاب.

تلي الندم. لديه ذنب يحتاج إلى توبة، ورب يدعوه إلى الرجوع؛ فيبقى ينظر إلى الذنب حتى ينسى الدعوة.
قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾²⁹

يجتمع في الآيتين فتح باب الرجاء والدعوة إلى الإنابة. ويقرر السعدي أن مغفرة الذنوب هنا متعلقة بالرجوع إلى الله بالتوبة، فلا تؤخذ سعة الرحمة حجة على البقاء في المعصية. لهذا تعينك معرفة الرحمة على حركة كان الخجل يعطلها. أخطأت في كلمة لأبيك؛ يمكنك أن تعتذر. قصرت في صلاة؛ يمكنك أن تتوب وتحافظ على ما يستقبل من وقتك، وتسأل عما يلزمك في تقصيرك. بقي لإنسان عندك حق؛ تبدأ برده بالطريق المشروع. وقد تبقى في النفس مرارة مما فعلت، لكنك تستطيع أن تعمل وأنت تجدها. ليس اختفاء الألم شرطاً لكل بداية.

29 القرآن الكريم، الزمر: ٥٣-٥٤؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآيتين.

وفي علاقتنا بالناس نعرف شيئاً من الفرق بين اعتذار نأتي به إلى من نرجو قبول عذرنا، واعتذار يثقله تصور أننا سنرد مهما قلنا. أما خبر الله عن رحمته فيمنعنا أن نجعل ظنوننا الخاصة حكماً على بابه. لا نعلم الغيب حتى نقول عن أنفسنا: لن يقبل مني. نعلم أنه دعانا إلى الإنابة، فنجيء بما أمرنا به، ونرجو فضله.

قال الله تعالى:

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا
إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ
شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ
بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.³⁰

وفي هذه الآية يميز السعدي بين الرحمة التي يصل أثرها إلى الخلق، والرحمة الخاصة التي ذكر الله أهلها. فنقرأ الوعد مع صفات أهله، ونرجو فضل الله ونحن نسعى إلى طاعته.

قد تسأل: وإذا عاد مني الخطأ بعد قرار صادق؟ تحتاج الواقعة إلى صدق جديد، لا إلى إعلان أن كل ما سبق كان تمثيلاً. تبصر السبب الذي تعثرت فيه، وتصلح ما تستطيع، وتستعين بمن يعينك على الخير. والمسؤولية هنا محددة

30 القرآن الكريم، الأعراف: ١٥٦؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

بقدر الفعل وآثاره؛ فلا يكفي أن ترتاح أنت إذا بقي غيرك يتألم من حق ضاع عندك. من حسن العودة أن ترى من مسه خطأك، وأن تعطي الإصلاح وقته.

وفي البيت تظهر ثمرة أخرى لهذه المعرفة. يعود طفل معترفًا بما كسر، أو تصارحك أخت بخطأ تخشى تكراره. تستطيع أن تسمع أولاً، وأن تعالج الفعل بما يناسبه، وأن تجعل الصدق ممكنًا في المرة المقبلة. الرحمة لا تمنع تربية الطفل ولا نصح الأخت؛ تعيينك على أن يكون غرضك إصلاح ما وقع، لا إطالة لحظة انكسارهما أمامك. هذا تطبيق في سلوكنا، أما رحمة الله فنؤمن بها على ما يليق به، كما سبق في أصل الباب.

يبقى مشهد الحديث قريبًا: أم تحمل طفلًا، ونبي يعلم أصحابه سعة رحمة ربهم. قد لا تتغير ظروف يومك حين تقرأه، لكنك تعلم خبرًا صحيحًا تدعو الله وأنت تستحضره. تستطيع أن تأتيه بحاجتك وبندمك، وأن تسأله رحمة تصلح قلبك وعملك. لا يلزم أن يكون لديك كلام كثير. ربما بدأت الليلة بقول صادق: يا رب، اغفر لي وارحمني، وأعني على الرجوع إليك. وهذه صياغة دعاء مباح، لا نقل لذكر ماثور بهذا التركيب.

١١ | من النعمة إلى المنعم

قد تبقى النعمة في يدك ويغيب قدرها عن قلبك. تستيقظ في بيت اعتدت سقفه، وتشرب ماءً لا تنتظر وصوله، وتسمع صوتاً ألفتَه حتى صار جزءاً من يومك. تمر الألفة بهذه الأشياء سريعاً، فإذا اختل واحد منها عرفت ما كان يؤديه في حياتك. قال الله تعالى:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.³¹

يذكر القرآن خلق السماوات والأرض وإنزال الماء وإخراج الثمرات، ثم تسخير الفلك والأنهار والشمس والقمر والليل والنهار. وينتهي إلى عجز الإنسان عن إحصاء نعمة الله. وفي تفسير السعدي أن هذه النعم تدعو إلى الشكر والذكر والسؤال

31 القرآن الكريم، إبراهيم: ٣٢-٣٤؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآيات.

والدعاء. بذلك يعود القلب من النعمة إلى واهبها، فلا يقف عند الماء وينسى من أنزله، ولا عند الرزق وينسى رازقه.

قد يعرف الإنسان اسم النعمة ولا يعرف حقها. يقول: عندي صحة، وأسرة، ووقت، ثم يعبر الكلمات كما يعبر عناوين لا يفتحها. المعرفة التي توقظ المحبة أبطأ من التعداد. أن تتوقف عند نعمة واحدة وتسأل: ماذا كان سيختل لو لم تكن؟ ماذا حملت عني ولم ألاحظه؟ وما الباب الذي ينبغي أن أفتحه بها؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى بَدَأَ لِلَّهِ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الْأَبْرَصَ. فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ، قَدْ قَدَّرَنِي النَّاسُ. قَالَ فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ، فَأَعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا. فَقَالَ أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الْإِبِلُ. أَوْ قَالَ الْبَقَرُ هُوَ شَأْنٌ فِي ذَلِكَ، إِنَّ الْأَبْرَصَ وَالْأَقْرَعَ، قَالَ أَحَدُهُمَا الْإِبِلُ، وَقَالَ الْآخَرُ الْبَقَرُ. فَأَعْطِيَ نَاقَةً عُسْرَاءً. فَقَالَ يُبَارِكُ لَكَ فِيهَا. وَآتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا، قَدْ قَدَّرَنِي النَّاسُ. قَالَ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ، وَأَعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا. قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الْبَقَرُ. قَالَ فَأَعْطَاهُ بَقَرَةً حَامِلًا، وَقَالَ يُبَارِكُ لَكَ فِيهَا.

وَأَتَى الْأَعْمَى فَقَالَ أَتَى شَيْءٌ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ يَرُدُّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ. قَالَ فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ. قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الْغَنَمُ. فَأَعْطَاهُ شَاةً وَالِدًا، فَأُتِيَ هَذَانِ، وَوَلَدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ إِبِلٍ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ بَقَرٍ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ. ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيئَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مَسْكِينٌ، تَقَطَّعَتْ بِي الْحَبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاعَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيدًا أَتَبْلُغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ لَهُ إِنَّ الْحُقُوقَ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ لَهُ كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْدِرُكَ النَّاسُ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ فَقَالَ لَقَدْ وَرِثْتُ لِكَابِرٍ عَنْ كَابِرٍ. فَقَالَ إِنْ كُنْتُ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتُ، وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، فَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا فَقَالَ إِنْ كُنْتُ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتُ. وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مَسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ وَتَقَطَّعَتْ بِي الْحَبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاعَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ بِكَ أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبْلُغُ بِهَا فِي سَفَرِي. فَقَالَ قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ بَصَرِي، وَفَقِيرًا فَقَدْ أَغْنَانِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ

أَخَذَتْهُ لِلَّهِ. فَقَالَ أُمْسِكْ مَا لَكَ، فَإِنَّمَا ابْتَلَيْتُمُ، فَقَدْ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْكَ وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ».³²

تظهر المفارقة في جواب الثلاثة: أنكر اثنان ماضيهما، وواحد وصل حاضره بفضل الله عليه. وظهر أثر اعترافه حين جاءه المحتاج؛ أذن له في الأخذ مما وهبه الله، ثم جاءت البشارة برضا الله عنه في هذه الواقعة.

وهنا يفترق الشكر عن الإعجاب بما نملك. قد يفرح المرء ببيت أصلحه، أو علم تعلمه، أو قدرة اكتسبها بعد تدريب طويل. ليس المطلوب أن ينكر سعيه ولا جهود من أعانه. الأسباب نفسها من أبواب النعمة: عقل يفهم، وجسد يقدر، ومعلم يدل، ووقت يتسع، وفرصة تفتح. الانتقال إلى المنعم لا يمحو السبب البشري؛ يضعه في موضعه، فلا يستغني به القلب عن الله ولا يبخس الناس فضلهم.

تبدأ الغفلة أحياناً من لغة صغيرة: «أنا صنعت نفسي وحدي»، «هذا حقي مهما كان»، «لن أحتاج إلى أحد». ثم تكبر اللغة

32 حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، حديث ٣٤٦٤، عن أبي هريرة. وجاء صدر الخبر بلفظ إرادة الله ابتلاءهم في صحيح البخاري، حديث ٦٦٥٣. العشاء: الناقة الحامل؛ والحبال: الأسباب؛ ولا أجهدك: لا أشق عليك في أخذ ما تختار. ويبن ابن حجر أن المراد بلفظ «بدا لله» سبق علم الله بالابتلاء وإظهاره، لا أن أمراً كان خافياً عليه ثم علمه؛ فتح الباري، كتاب أحاديث الأنبياء، شرح هذا الحديث؛ مقابلة نصية إلكترونية.

حتى يصعب على صاحبها أن يرى عطية سبقت عمله أو رحمة صاحبت ضعفه. وفي الجهة الأخرى قد يقول إنسان «الحمد لله» كثيرًا، ثم يمنع ما أوجب الله في ماله، أو يستخدم قدرته في إذلال من لا يملكها. اللسان باب كريم، لكنه لا يحمل الشكر وحده إذا كذبه العمل.

لست محتاجًا كل مساء إلى جرد طويل يورثك الملل. اختر نعمة قريبة من يومك، واذكر واهبها، ثم ابحث عن حقها. إن كانت صحةً فلا تجعلها كلها في الاستهلاك؛ أعط منها عبادةً وخدمةً وراحةً تحفظها. وإن كانت علمًا فلا تتخذها سلمًا لاحتقار من لم يتعلم. وإن كانت بيتًا فليعرف أهله فيه الأمان، لا أن يصير جماله أهم من راحتهم. وإن كانت مالا فاسأل عما يلزمك فيه، وافتح منه بابًا للخير تستطيع دوامه.

وقد ترى أثر النعمة في عناية قريب، أو وفاء صديق، أو معونة وصلت في وقت الحاجة. وعند تذكير متألم بذلك، أعطه مجالًا لوصف وجعه وطلب العون. ملاحظة الخير الباقي تعينه، أما استعماله لإسكاته فيحرمه المواساة التي يحتاجها.

تقودنا النعمة إلى محبة المنعم، ثم تتسع معرفتنا بما أخبر به عن أسمائه وصفاته. نحبه لكماله وفضله، ونعبده في السعة والضيق؛ فإذا فقدنا نعمة نحبها بقي ربنا مستحقًا للحمد

والعبادة. هذا ما يحفظ شكرنا من أن يصير معلقًا بصورة واحدة من العطاء.

وفي قوله تعالى: ﴿لَا تُحْصَوْهَا﴾. راحة من نوع آخر. لن تبلغ إحاطة كاملة، ولن تؤدي شكر كل نعمة على وجه الكمال. لا يقودك هذا العجز إلى الترك؛ يقودك إلى التواضع. تحمد، وتستغفر من التقصير، وتستعمل ما عرفت في طاعة، وتسال الله أن يعينك. كلما رأيت نعمةً لا تقل فقط: ما أجملها. قل بقلبك قبل لسانك: من الذي ساقها إليّ؟ ثم دع الجواب يغير شيئًا في يومك.

١٢ | جمال يوقظ التعظيم

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ. قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ»³³.

بطر الحق ردّه، وغمط الناس احتقارهم. بهذا البيان ظهر الفرق بين حسن الهيئة وبين الكبر: يستطيع الإنسان أن يحب الثوب الحسن ويقبل الحق ويكرم الناس.

ويظهر هذا الفرق في معاملتك للناس. تعتني بهيئتك من غير أن تجعلها مقياس قيمتهم، وتحب حسن بيتك وترحب بمن لا يملك مثله. أما رد الحق لأن قائله أقل مكانة في عينك، أو ازدراء من ثيابه أبسط، فمن الكبر الذي سماه الحديث.

والحديث يثبت ما أخبر به النبي ﷺ عن الله على الوجه الذي يليق به؛ فلا نقيس جمال الخالق على مقاييس المخلوق، ولا نخوض فيما لم يأت به النص. يكفي أن نتلقى الخبر بالإيمان والتعظيم، وأن نعرف أن الجمال المشروع لا يناقض التواضع.

33 حديث صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانها، حديث ٩١، عن عبد الله بن مسعود.

وحين يذكر المؤمن هذا الاسم لا يحوله إلى شعار لتبرير كل ما استحسنه؛ فالذوق يتغير، وقد يحب الإنسان ما يضره أو ما يمنعه الشرع. الحسن في عينه لا يصير وحده حكماً بالجل، كما أن بساطة الشيء لا تجعله مذموماً.

قال الله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝﴾³⁴

تصل الآيات بين بناء السماء وزينتها وبين الأرض وما أنبت فيها، وتدعو العبد إلى الاعتبار بما يرى. وفي تفسير السعدي أن هذا النظر قريب لا يحتاج إلى كلفة، وأن الانتفاع به يكون لمن يقبل على الله بالحب والخوف والرجاء.

قد ترفع رأسك إلى السماء فتلتقط صورة تعجبك، ثم تقف قليلاً مع ما دعت إليه الآيات: بناء وزينة واتساع ألفتة العين. يجدد هذا النظر معرفتك بقدرة الله وحسن صنعه. تنتفع بالدلالة التي هداك إليها الوحي، وتترك ما لم تعلمه من تفاصيل الكون للبحث الذي يقوم عليه دليل.

34 القرآن الكريم، ق: ٦-٨؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآيات.

وتستطيع هذه البصيرة أن تصحبك في أشياء أصغر. ترى انتظام ورقة، أو تحول أرض بعد المطر، أو يدًا أتقنت صنعة نافعة، فتفرح بالحسن وترد أصله إلى الله. وإذا مدحت صانعًا لم تنس أن ما عنده من قدرة وتعليم ومواد كلها مما يسره الله. لا تعارض بين أن تقول لإنسان: أحسنت، وأن يمتلئ قلبك بحمد من وهبه وأقدره.

لكن الجمال قد يتحول إلى عبء حين نطلب منه ما لا يقدر عليه. بيت لا يحتمل أثر طفل، ومائدة يصعب أن يجلس إليها ضيف عابر، ولباس يرهق صاحبه بالدين ليحفظ صورة أمام الناس. هنا لا تكون المشكلة في اللون أو الترتيب، بل في الثمن الذي دفعه القلب والعلاقات. من حقك أن ترتب وتختار وتحسن، ومن حق من حولك ألا يتحولوا إلى أدوات تكمل مشهدك.

ومن الناس من يخشى الجمال كله لأنه يخاف الرياء أو الترف. يعلمه الحديث أن حسن الثوب والنعل ليس هو الكبر الذي حذر منه النبي ﷺ. والخوف الصادق لا يحتاج إلى تشويه النعمة؛ يحتاج إلى تفقد القصد والحدود والحقوق. قد تلبس حسنًا وتتواضع، وقد تلبس خشنًا ويستقر في قلبك ازدراء لمن خالفك. الهيئة وحدها لا تكشف خبيئة القلب، لكن العمل

يعطينا مواضع للمحاسبة: قبول الحق، وإكرام الناس، وترك الإسراف، وحفظ الواجبات.

إذا أردت أن تجعل الجمال طريقًا إلى المحبة، فلا تكتف بامتلاكه. انظر، واذكر، واحمد، ثم دع أثره يصل إلى غيرك. رتب مكانًا يريح أهلك لا يرهقهم، واختر كلمة حسنة لا تخفي باطلاً، وأتقن عملاً نافعاً من غير أن تحتقر من كان أقل مهارة. الجمال الذي يوقظ التعظيم لا يحبسك عند ذاتك؛ يفتح بصرك على فضل الله ويهذب طريقتك مع عباده.

١٣ | الغني الذي نفتقر إليه

حين يحب الإنسان إنساناً قد يستند إليه في حاجة، ويخشى فقد ما يجده عنده. فإذا تحدث عن محبة الله احتاج إلى معرفة تحميه من نقل هذا الميزان البشري إلى ربه. الله غني، والعبد فقير إليه؛ ومن فضل الله أن يفتح للفقير باب عبادته ومحبته، من غير أن تكون عبادة العبد حاجة يكمل بها ربه. قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ
الْحَمِيدُ﴾.³⁵

تضع الآية الفقر والغنى في موضعهما. حاجتنا إلى الله أصل مستمر، يظهر في الخلق والرزق والهداية، وفي كل ما لا نملكه من أسباب الحياة. وقد تخفيه عنا سعة عارضة: مال حاضر، أو صحة، أو قدرة على الاختيار. لا يصير الإنسان مستقلاً بوجود الوسائل؛ فالوسائل نفسها وما تتيحه من قدرة مما افتقر فيه إلى ربه.

هذا المعنى يعين على ترك المن في العبادة. ربما نظرت إلى اجتهادك كأنه جميل قدمته لله، ثم طالبت بنتيجة معينة لأنك

35 القرآن الكريم، فاطر: ١٥؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

تعبت كثيراً. تستطيع أن تقدر مشقتك البشرية، وأن تسأل الأجر والرحمة، لكنك عبد مفتقر قبل العمل وبعده. وجود باب للطاعة نعمة، والقدرة عليها نعمة، وقبولها مما ترجوه؛ فلا يتحول اجتهادك إلى حق تختار به صورة القدر.

والعبد المفتقر إلى الله يستعمل ما أتاحه له من أسباب. يتعلم ويعمل ويطلب المساعدة المشروعة، مع علمه بحدود قدرته. الطبيب يعالج، والعامل يؤدي أمانته، والطالب يدرس؛ ويستعين كل منهم بربه فيما يقدر عليه وفيما لا يملكه من العاقبة.

وفي الشدة تتبين أحياناً حاجة غابت في السعة. أمر حسبته تحت يدك يتغير، فتتعلم أن تطلب العون بصدق. انتفع بهذه المعرفة من غير أن تتمنى استمرار الضرر لتبقى قريباً. العافية خير يسأل، ولها عبادة وشكر، كما أن للمحنة صبراً وأسباباً تدفع بها. محبة الله تصحب الحالتين؛ ولا يلزمها أن تختار لنفسك أشقهما لتثبت صدقك.

قد يمر بك مدح لعمل حسن فعلته. اقبل كلمة الناس بأدب، واذكر فضل من أعانك، واحذر أن تصبح الكلمة تعريفك لنفسك. أنت تعرف ما احتجت إليه حتى تم العمل، وما لم يعرفه المادح من تقصيرك. الرجوع إلى الافتقار يحفظ الفرح

من الكبر، ويترك لك قدرة على التعلم حين يبين غيرك نقصاً لم تنتبه إليه.

ومن التربية النافعة أن تستعمل لغة تستقيم مع هذا المعنى. تقول: أعانني الله على فعل كذا، وأرجو أن يقبله. وتقول عند العجز: أحتاج إلى التعلم أو التعاون، بدل أن تعد بما لا تملك. تلك عبارات عن حقيقة ومسؤولية، وليست طريقة تتصنع بها تواضعاً أمام الناس. العبرة أن تظهر في طلبك للعلم وفي أداء العمل، لا أن تزيد على كل خبر صيغة محفوظة ثم تبقى على حالك.

تظهر دقة هذا المعنى حين تساعد إنساناً. ربما حسبت أنك تستطيع أن تضمن له النجاة من كل مشقة، ثم عجزت عن أمر تمنيت إصلاحه. أحسن ما تقدر عليه، وبين له ما لا تستطيع، ولا تحوله إلى تابع لك حتى يبقى عونك حاضراً. معرفة فقرك إلى الله تذكرك بأنك سبب من الأسباب، وأن من أعنته عبد له كرامته ومسؤوليته. قد ينفعه معك غيرك، وقد يعرف وجهاً لم تعرفه؛ فاترك للخير أبوابه، ولا تشترط أن يمر كله من يدك.

وقد يعتذر من طلبت عونه لأنه لا يملك حاجتك. احفظ له حقه، وابحث عن سبب آخر، ولا تحصر إمكان النفع في شخص واحد. معرفة حدود الناس تحفظ الصلة بهم، وتبقي رجاءك متعلقاً بالله مع السعي فيما أتاح من أسباب.

لله الغنى والحمد، ولنا الحاجة والعبودية. إذا عرف القلب ذلك، صار قربه سؤالاً ورجاءً واستجابة. يحب ربه بما علم من كماله وفضله، ويحمده على أن أذن له أن يأتي بضعفه؛ ثم يقوم إلى ما بين يديه، مستعيناً بمن لا يستغني عنه طرفة عين.

١٤ | نعمة الهداية

قد تبدأ قائمة النعم عندك بالصحة والرزق والبيت، وتغيب عنها نعمة أن تعرف لمن تتوجه بهذه النعم. المال قد يتسع معه باب خير أو باب غفلة، والقدرة قد تعين على الحق أو على ظلم. معرفة الله والهداية إلى عبادته تمنح ما في الحياة وجهة؛ ولهذا يستحق هذا الباب أن تتوقف عنده، ولو كانت حاجات أخرى أشد ظهورًا في يومك.

قال تعالى:

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ
اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾³⁶

نزلت الآية في رد المن بالإسلام، ونسبت المنة إلى الله بهداية الإيمان. يصل هذا الأصل إلى الساعي اليوم: لا يتعامل مع استقامته كخدمة قدمها لربه، ولا يستعلي على الناس بما فتح الله له من علم أو طاعة. يشكر نعمة الهداية، ويسأل ثباتها، ويعرف أن شكره نفسه يحتاج إلى عون.

تذكر علمًا صحيحًا وصلك في الوقت الذي كنت تحتاجه. ربما صحت به عبادة، أو تركت معاملتك المؤذية، أو فهمت بابًا

36 القرآن الكريم، الحجرات: ١٧؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

من الرجاء كان غائبًا. لِمَ كانت هذه المعرفة نعمة؟ لأنها غيرت أمرًا في علاقتك بالله وبالناس، وأتاحت لك فعلًا لم تكن تحسنه. لا تحتاج إلى أن تضخم القصة أو تجعلها خبرًا خارقًا؛ يكفي أن ترى أثر بيان نافع وصل إليك.

والشكر هنا يتسع للمحافظة على أسباب التعلم. تختار مصدرًا تثق بعلمه، وتراجع ما أشكل، ولا تكتفي بعنوان يوافق رغبتك. قد تتعب في فهم مسألة، ثم يساعدك سؤال محدد على الوصول إلى جواب. هذا التعب المعتدل من العناية بالنعمة، وليس عيبًا في محبة الله لأن المعرفة لم تأتكَ دفعة واحدة.

ومن أثر الهداية أن تحسن الحديث مع من بدأ يتعلم. أنت تعرف ما كنت تجهله، فلا تجعل خطأه مناسبة لتذكيره بأنه أقل منك. بيّن الحكم، واستعمل مثالًا يستطيع فهمه، واترك له مجال السؤال. وإذا كان الخطأ مؤذيًا، فامنع أثره بما تملك من صلاحية، مع حفظ كرامة المخاطب. لا يلغي لطف التعليم وضوح الحق، ولا يحتاج وضوح الحق إلى إنزال.

وقد ترى شخصًا تعلمت على يده يقع في تقصير. تحفظ له فضل ما علمك، وتزن الفعل بمرجه، ولا تحمل خطأه على كل علم وصل إليك. الهداية من الله، والمعلم سبب له حق الشكر وأدب العلاقة. إذا اختلطت عليك مسألة، انتقلت إلى بيان

أوثق؛ أما أن تتخلى عن أصل الحق لأن أحد أهله أخطأ، فيجعل ثباتك تابعاً لصورة بشر لا يعصم.

وفي المقابل، قد تستعيد تقصيراً وقع منك بعد معرفة الخير، فتقول: ضاعت النعمة كلها. إن كان الذنب معلوماً فتب منه وأصلح ما يلزم، واستعمل ما بقي من العلم طريقاً للرجوع. لا تحتاج إلى إعادة حياتك من الصفر حتى تعمل بما عرفت. النعمة التي لم تشكرها بالأمس تستطيع أن تشكرها اليوم باستجابة صادقة.

وقد تعرف شخصاً ترك خطأ كنت تراه عليه. افرح بإصلاحه، ولا تحبسه في صورته القديمة كي تحتفظ أنت بمرتبة الناصح. يستطيع أن يتعلم ما لم تعلمه، وأن يسبقك إلى خير لم تقدر عليه. ليس توفيق الآخرين خسارة في نصيبك، وليس شكر الهداية منافسة على من يظهر أحسن. اطلب لنفسك الثبات، ولهم مزيد الخير، واجعل معرفة الحق عملاً مشتركاً في بيئة تقبل التصحيح وترد صاحبه بأدب.

وفي مراجعة تعلمك، انظر إلى أثر واحد: معاملة اتضحت حدودها، أو قول رجعت عنه، أو عبادة أحسنت أدائها. وإن بقي العلم بعيداً عن العمل، فابدأ باستعمال مسألة تعرفها فيما بين يديك، واسأل الله التوفيق. شكر نعمة البيان استجابة تتجدد كلما تعلمت.

ليس شكر الهداية خبرًا تتداوله عن نفسك. قد يكون في ركعة تحسنها بعد تعلم، وفي جواب تقول فيه لا أعلم، وفي دعاء أن يثبت الله قلبك، وفي رحمة بمتعلم ذكرك ببدايتك. هنا تتحول المعرفة إلى محبة للمنعم؛ تعرف قدر ما وهبك، وتحب أن تحفظه بما يرضيه.

١٥ | الكمال الذي تعرفه من الوحي

قد يعجبك في إنسان علمه أو رحمته أو وفاؤه، فتزداد رغبتك في صحبته كلما عرفتته. وإذا أقبلت إلى معرفة الله، كان مرجعك ما أخبر به عن نفسه وما صح عن رسوله ﷺ. لا تصنع صفات تناسب تجربتك، ولا تجعل ما تتخيله من الكمال أصدق عندك من الوحي. هذا الحد يحفظ المعرفة، ومن المعرفة تنمو المحبة.

قال الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ
فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾³⁷

تجمع الآية أسماء الله الحسنى والدعاء بها والتحذير من الإلحاد فيها. وقد سبق بيان أثر معرفة الاسم في الدعاء؛ وسألنا هنا عن المعرفة التي تقوم عليها المحبة: هل نتلقى كمال الله من الوحي، أم نقيسه بما نستحسنه في تجاربنا المحدودة؟

قد يستحضر المرء رحمة الله عندما يرجو العفو، ثم يغفل عن علمه وعدله حين يتبع هوى يعرف ضرره. وتصحح المعرفة

37 القرآن الكريم، الأعراف: ١٨٠؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

هذا الاجتزاء؛ فما أخبر الله به عن نفسه حق في الأحوال كلها. محبته تعيننا على تلقي الخبر والعمل بمقتضاه، حتى حين يدعونا إلى تصحيح اختيار نتمناه.

ومن أسباب الالتباس أن ينقل شخص معنى اسم مأخوذاً من استعمال البشر ثم يبني عليه حكماً في صفات الله. قدرة المخلوق محدودة، ورحمته قد يقترن بها عجز، وعلمه يسبقه جهل؛ والله منزّه عن النقص. تميز ما يثبتته اللفظ في حق الخالق من اللوازم البشرية التي لا يجوز نقلها إليه، وترجع في البيان المشكل إلى أهل العلم.

ويحسن أن تحتفظ بوصف دقيق لما لم تفهمه. بعض المسائل في الأسماء والصفات تحتاج إلى تحرير اصطلاح أو جمع نصوص، ولا يكفي فيها أن تختار عبارة ألين وقعاً على نفسك. تستطيع أن تقول: فهمت هذا الأصل، وبقي علي هذا السؤال. وضوح حدود المعرفة أنفع من ثقة واسعة تستند إلى تعريف ناقص.

وقد تسمع شرحاً مؤثراً لاسم من أسماء الله، فميز بين معنى دل عليه النص وعبارة أضافها المتحدث. اسأل عن مستند ما لم يتضح لك؛ فالكلام عن الله يحتاج إلى علم، ولو كان قصد قائله الترغيب في الخير. ومحبتك للمعنى لا تغني عن معرفة صحته.

ومن أثر اليقين بكمال علم الله أن تنشغل بحقيقة عملك حين تختلف عما يراه الناس. تعلم أن خفاء التقصير عليهم لا يغيره، وأن غياب ثنائهم لا يضيع ما أحسنت فيه. فتؤدي حقاً، وتصحح خطأ، وترجو القبول ممن يعلم السر وأخفى.

ومن أعمق ما تتعلمه في هذا الباب أن الله محبوب لكماله، كما أنه محبوب لإحسانه. في النعمة ما يوقظ الشكر، وفي معرفة المنعم ما يفتح للقلب باباً أوسع من تعداد النعم. فأنت تحب رحمته وعلمه وحكمته وجوده، وتوقن أنه مستحق للحمد قبل أن تعرف وجه النفع الذي يصل إليك في يوم بعينه. الله ليس وسيلة إلى غاية أعلى منه؛ إليه تنتهي عبادة القلب، وبه يستعين على ما يصلحه. وهذا أصل يقرره ابن تيمية في العبودية حين يجعل الله غاية مراد العبد ومحبوبه بالقصد الأول.³⁸

وقد ميز ابن القيم بين هذين البابين في أسباب المحبة: معرفة أسماء الله وصفاته وأفعاله، ثم مشاهدة بره وإحسانه ونعمه. وقال: «فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله: أحبه

38 ابن تيمية، العبودية، فصل تفاضل الناس في العبادة والإيمان والمحبة، موضع كون الله غاية مراد العبد ومحبوبه بالقصد الأول؛ ص ٩٧-٩٨ بحسب علامات النسخة الرقمية. وفي مجموع الفتاوى: ١٩٤/١٠-١٩٥. والمقصود محبة التأله وغاية العبادة؛ لا نفي المحبة الطبيعية المشروعة التي سبق بيانها.

لا محالة».³⁹ يتلقى القلب هذه المعرفة من الوحي، ثم يتدبرها ويعبد الله بمقتضاها. ولهذا جاءت معرفة الأسماء في كلامه بين أسباب فيها قراءة وذكر وإيثار لما يحبه الله؛ معرفة تصل القلب بالعمل، ولا تقف عند حفظ التعريف أو حسن التعبير.

تقرأ أن الله غفور، فيتجه القلب إليه بذنب يريد الخلاص منه. وتقرأ أنه حكيم، فتتعلم أن تأخذ بأمره وأنت تعلم قصور نظرك عن بعض المصالح. وتقرأ أنه سميع بصير، فيسكن بعض وحشتك حين تغيب عنك مواساة الناس؛ تدعوه وتعلم أن حاجتك لا تخفى عليه. تتكامل هذه المعاني: الرحمة تفتح الرجاء، والعظمة توقظ التعظيم، والعلم يردك إلى الصدق؛ وتجمع المحبة ذلك في توجه إلى رب واحد تعرف أنه أهل لعبادتك.

وحين تسبح الله تنزهه عما لا يليق بجلاله، وحين تحمده تثني عليه بما هو أهله. قد تجتمع هذه المعاني في ذكر قصير، فيخرج القلب من اقتصاره على ما ينقصه إلى معرفة من يرجوه. تظل حاجتك حاضرة، لكنك لا تدخل الدعاء محصوراً

39 ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، فصل أسباب المحبة، السببان الخامس والسادس، ١٨/٣-١٩ بحسب النص الرقمي. هذا بيان ابن القيم نفسه، وليس متن الهروي المنقول في الشرح.

فيها وحدها؛ تأتي ربًا تحبه وتعظمه، وتسأله أن يقربك إليه ويصلح أمرك. وكل معنى تتعلمه يزيدك مادة صحيحة للثناء، حتى لا يبقى اللسان سابقًا للقلب في كلمات ألفها.

قد يطول على الإنسان مرض ينتظر الشفاء منه، فيحمد الله على نعمة موجودة غفل عنها، ويحمده على كماله الذي لم يتغير بتغير ظرفه. لا يطلب من نفسه أن يستعذب الألم؛ إنما يعرف أن استحقاق ربه للحمد أوسع من رخاء ينتظره. ويبقى للدعاء والعبادة معنى حاضر وهو يطلب العلاج والفرج. فإذا جاء اليسر ازداد شكرًا، وإن تأخر بقي عارفًا بمن يدعوه، محبًا له، مفتقرًا إلى فضله.

كل معرفة صحيحة تفتح مجالًا لعبادة أصدق. لا تستعجل أن تحيط بكل الأسماء في يوم، ولا تكتف بعبارات وجدانية لا تعرف أصلها. تعلم ما تستطيع تعلمًا ثابتًا، وأقبل على ربك بما علمت من كماله. يحب القلب من عرف، وتستقيم معرفته حين يصحبها أدب الوقوف عند الوحي.

١٦ | قلب يعرف معنى العبادة

قد يتعلم الإنسان أحكام عمله، ويؤديه صحيحاً، ثم يحتاج إلى استعادة المعنى الذي من أجله يقوم به. الصلاة ليست مجرد مهمة في قائمة، والدعاء ليس نطقاً تنتظر بعده نتيجة، وترك المحرم ليس حركة منفصلة عن معرفة الأمر. لكل عمل صورته المشروعة، وله في القلب عبودية تصحبه؛ ومحبة الله تمنح هذا الاتصال حياة.

قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.⁴⁰

تقرر الآية الغاية من خلق الجن والإنس. ويعبد المسلم ربه بما شرع من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة، وعبادته مبنية على محبته وتعظيمه والخضوع له والاستجابة لأمره. فالمحبة ليست زينة تضاف إلى العبادة بعد استغنائها عنها؛ هي من حقيقتها الباطنة، كما أن الاستجابة ليست بديلاً عن القلب الذي يحب ويعظم. لا تنفصل الأعمال عن هذه الجهة، ولا تغني دعوى صلاح القلب عن أداء العمل المشروع.⁴¹

40 القرآن الكريم، الذاريات: ٥٦؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

41 ابن تيمية، العبودية، تحقيق محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة السابعة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، فصل معنى العبادة، موضع اجتماع المحبة والخضوع والتميز من محبة الولد والصديق.

قد تقول: أعرف أن علي الصلاة، فماذا تضيف المحبة؟ تضيف معرفة أنك تقبل على من تعبد، وأنتك تحب ما يرضيه، وأن علمك بفضله يعينك على أداء ما أمر. لا يعني هذا أن صحة الصلاة تتوقف على انفعال تستطيع استحضاره في كل مرة. تتعلم شروطها وأركانها، وتجاهد الغفلة، وتسال الله حياة القلب؛ فلا تؤخر الفرض حتى يصل الشعور الذي تفضله.

والخضوع لله يحرك من طاعة الناس في معصيته. تتعامل معهم بأدب، وتعرف حقوقهم، لكنهم لا يملكون أن يغيروا جهة عبادتك. وإذا سأل أحدهم أن تجعل رضاه معيار كل اختيار، استطعت أن تتوقف وتسال عن الحكم. ما أمر الله به يبقى مرجعاً، ولو كان من ضغط عليك قريباً أو محبوباً.

ولهذا نفرق بين العبادة المشروعة والوسائل التي تعين عليها. دفتر الأسئلة وموعد القراءة ووسيلة التذكير اختيارات تنظيمية تقوّم بقدر نفعها؛ أما فضل تعبدٍ مخصوص فيحتاج إلى دليل. وسنعود إلى هذا الفرق في ختام الباب التالي.

وفي المال والعمل يختبر هذا المعنى بطريقة أقل ظهوراً. ربما استطعت كسب نفع بإخفاء معلومة لازمة، ثم علمت أن فعلك غش. ترك هذا الطريق استجابة للشرع، وترجو به رضا الله، مع السعي في بديل مشروع. لا يصبح النفع المحرم عبادة

لأنك ستصرف بعضه في خير، ولا يزول حق المتضرر لأنك وصفت مقصدك بالحسن.

وإذا وجدت العمل ثقیلاً، فارجع إلى ما تفهمه بدل أن تزيد على نفسك وصفاً قاسياً. هل تعرف معنى ما تقول؟ هل تؤديه وفق ما علمت؟ ما المشتت الذي تستطيع تقليله؟ قد يفتح التعلم باباً كان مغلقاً، وقد تحتاج إلى انتظام أبسط أو مساندة. تصحيح السبب الظاهر جزء من المجاهدة، ولا يلغي سؤال الله التوفيق.

قد تحمل العبادة في نفسك صورة واحدة نشأت عليها؛ مجلساً هادئاً، أو صوت قارئ، أو زماناً كنت فيه أقل شغلاً. فإذا تغيرت حياتك ظننت أن طريقك إلى الله انقطع مع تلك الصورة. انظر إلى العبادة المأمور بها في واقعك الحاضر. للصلاة مكانها في يوم مزدحم، ولصدق المعاملة موضع في عملك، وللإحسان إلى قريب محتاج وقت قد لا يكون جميلاً في التصوير. العبرة بما شرع الله وبصدق الاستجابة له، وتبقى الصور المباحة التي تعينك وسائل تستعملها حين تتاح.

ومن فهم العبادة أن تعرف رتبة العمل: فرض، أو تطوع، أو مباح ينتفع بالنية الصالحة. لا تتغير هذه الرتب بشدة تعلقك بعمل دون آخر. وفي الباب التالي نتبين كيف يساعدك هذا العلم على ترتيب عبادتك واختياراتك.

أن تعرف معنى العبادة يعني أن تبقى لله وجهتك، وللشرع مرجع عملك، وللناس حقوقهم. تعمل بما تستطيع وتتعلم ما تحتاج إليه، وتحب أن يجد ربك منك استجابة لما أمرك. ومن هذا الاتصال يسترد العمل المعتاد قدره؛ يؤديه عبد يعرف من يعبد، ويرجو أن يصلح الله قلبه وهو يؤديه.

الباب الثالث: محبة تعرف طريقها

١٧ | قراءة تسمع فيها الخطاب

قد تنهي صفحة من القرآن وتعرف أين انتهى بصرك، ثم يصعب عليك أن تذكر المعنى الذي صحبتك منها. كان اللسان يقرأ، وكانت النفس تتابع حديثًا آخر: عملاً ينتظر، أو جوابًا تأخر، أو أمرًا وقع أمس. حين تنتبه إلى ذلك، تستطيع أن تعود إلى الآية؛ فالانتباه الذي رجع فرصة للفهم، وليس مناسبة لإطالة لوم النفس.

قال الله تعالى: ﴿كَتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. [ص: ٢٩].⁴²

تدل الآية على غاية تتصل بما نقرأ: أن نتأمل المعنى ونتذكر به. ويبين السعدي أن إعادة النظر في معاني القرآن من أسباب إدراك خيره وبركته. يبدأ هذا التأمل بفهم الكلام؛ نعرف ما تخبر به الآية، وما تأمر به، والسياق الذي وردت فيه. ثم ننظر في أنفسنا على ضوء هذا العلم. وقد يكون أول نفع القراءة أن تصحح تصورًا حملناه طويلاً عن الله أو عن عبادته.

وللقرآن في باب المحبة شأن خاص؛ فمنه نتعلم أسماء ربنا وصفاته، وما يحبه من الأعمال، وما وعد به عباده. كلما ازددنا فهمًا لما يخبرنا به عن نفسه، صارت محبتنا متصلة بمعرفة

42 القرآن الكريم، ص: ٢٩؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

أوضح. لا نستخرج من الآية معنى نتمناه ثم ننسبه إليها؛ نتلقاها كما جاءت، ونسأل عما لم نفهمه. وهكذا تكون القراءة سبيلاً إلى التعرف إلى الله، وتبقى للتفسير أمانته وحدوده.
عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:

قال لي النبي ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ». قلت: يا رسول الله، اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «نَعَمْ». فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾، قال: «حَسْبُكَ الآنَ». فالتفتُ إليه فإذا عيناه تذرفان.⁴³

استمع رسول الله ﷺ إلى القرآن الذي أنزل عليه، فبقي باب التلقي مفتوحاً مع معرفته بالآيات. ونقل ابن مسعود دمع عينيه عند آية الشهادة. نحفظ للخبر هذا القدر الثابت، ونتعلم منه الإقبال على الاستماع وتدبر ما نسمع.

وقد ينفعك تنويع التلقي: تقرأ بنفسك، وتستمع إلى قراءة متقنة، وتفتح تفسيراً موثقاً حين يلبس معنى. تأخذ بما وجدته من علم أو تذكر، وتجتهد في العمل به؛ أما صورة

43 حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ حسبك، حديث 5050، عن عبد الله بن مسعود. الآية المذكورة: النساء: ٤١.

التأثر فتختلف، وقد سبق بيان ذلك في فصل «حلاوة لا تُفتعل».

في حياة القارئ فرق بين سؤال يعينه على الفهم وسؤال يصرفه إلى نفسه وحدها. يسأل الأول: ما الذي تخبر به الآية عن الله؟ وما وجه الأمر فيها؟ ويسأل الثاني، قبل أن يفهمها: ما الرسالة الخاصة التي تثبت أن حاجتي ستقضى اليوم؟ قد يجد الإنسان مواساة وهداية في قراءته، لكن ذلك لا يجعل ترتيب المصحف وسيلة لاكتشاف خبر غيبي عن موعد أو شخص أو قرار. يبقى الخبر عن الله مقيدًا بالدليل.

تخيل أنك قرأت آيات تأمر بالعدل وأنت مختلف مع قريب. يمكنك أن تعود إلى تفسيرها، ثم تسأل عن موضع الإنصاف الذي أغفلته في كلامك. هذا انتفاع بالمعنى. أما أن تختار جملة لتجعلها حكمًا على سريرة قريبك، أو تحملها على واقعة لم تدرسها، فذلك استعمال آخر يحتاج إلى تصحيح. المحبة التي تنمو بالقرآن تجعلنا أحرص على العمل به، وأشد احترازًا من استخدامه لتأييد أنفسنا في كل خصومة.

وقد تساعدك قراءة مقطع قصير مع تفسيره على حضور تفقده في قراءة مستعجلة. وقد تجد وقتًا تتسع فيه التلاوة. اختر ما يعينك، ولا تجعل اقتراحًا تنظيميًا عبادة ذات مقدار مخصوص. ومن المفيد أن تميز بين وقت الحفظ، ووقت

المراجعة، ووقت النظر في المعنى؛ تتعاون هذه الأعمال، ولكل واحد منها حاجة. وإذا التبس عليك حكم أو لفظ، فدوّن السؤال وارجع إلى من يحسن بيانه.

حين تغلق المصحف، لا تحمل نفسك على استخراج درس جديد من كل آية. قد يبقى معك معنى واحد: خبر عن رحمة الله، أو علمه، أو صدق وعده؛ فتدعو وأنت أوعى بمن تدعو. وقد يبقى أمر واضح تجد له موضعاً في يومك. هكذا تمتد القراءة إلى الحياة: معرفة تصحب القلب، وعمل يصدقها، وعودة إلى الكتاب كلما احتاجت المعرفة إلى تجدد.

١٨ | اتباع في التفاصيل

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله، فقال:

«إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ
النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ»⁴⁴.

يقبل عمر الحجر اتباعاً لما رأى من رسول الله ﷺ، ويصرح بأن الحجر لا يملك الضر والنفع. اجتمع في كلماته تعظيم السنة وصيانة الاعتقاد؛ فمرجع هذا الفعل ما ثبت عن النبي ﷺ، لا استحسان المرء ولا اعتقاد قدرة في الحجر.

هذا وجه دقيق من وجوه المحبة: أن تعرف الطريق الذي سلكه من تحب، فتتبعه عن علم. قد يبدو الفعل يسيراً، لكن وضوح مرجعه يحفظه من التحول إلى عادة لا تعرف أصلها. وفي العبادة خاصة يحتاج الإنسان إلى أن يسأل: هل ثبت هذا الفعل؟ وكيف ورد؟ وما موضعه؟ فمحبة الرسول ﷺ تدعونا إلى معرفة هديه، ثم إلى العمل بما علمنا منه.

⁴⁴ أثر موقوف صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب ما ذكر في الحجر الأسود، حديث ١٥٩٧، من رواية عابس بن ربيعة عن عمر بن الخطاب؛ اللفظ المنقول من قول عمر.

والاتباع في التفاصيل يبدأ أحياناً من تصحيح صغير. تعلّمت عملاً في طفولتك، وظللت تؤديه كما رأيته، ثم سمعت بياناً يخالف ما اعتدت. تستطيع أن تثبت وتسال، فإذا بان لك الصواب عدلت عملك. لا يلزم من التصحيح أن تحتقر من علّمك؛ فقد نقل إليك ما عرفه، وكان له فضل التعليم. تستطيع أن تحفظ فضله وتزيد علماً في الوقت نفسه.

وقد يقع العائق في جهة أخرى: يعرف المرء السنة، لكنه يستثقلها لأنها لا تناسب الصورة التي رسمها لنفسه. يحب أن يكون له في كل عمل اختيار خاص يلفت النظر، فيضيق بما هو معروف مأثور. هنا تفيده كلمة عمر؛ فقد جعل علة عمله ما رأى من النبي ﷺ. للابتكار مجاله في الوسائل النافعة، أما التعبد فمرجعه ما شرعه الله. لا يكتسب العمل صفة السنة لأن صاحبه بالغ في تحسين صورته أو صدق انفعاله به.

ومن المعرفة اللازمة أن تميز بين حكم العمل وصورته. ليس كل فعل ثبت عن النبي ﷺ واجباً على كل أحد في كل حال، ولا يصح أن نستخرج من موقف الحجر وحده قاعدة نفصل بها جميع مسائل الاتباع. لمعرفة الحكم والسياق والأعذار وحقوق الناس موضعها في بيان أهل العلم. نأخذ من هذا الخبر المعنى الذي يدل عليه، ونرد تفاصيل المسائل إلى أدلتها.

قد يحرص إنسان على عمل نافلة، ثم يغلظ على أهله لأنهم لم يرتبوا يومهم على رغبته. يحتاج أن ينظر إلى الحال كلها: ما حقه؟ وما حقوقهم؟ وكيف يعمل الخير برفق؟ لا ينبغي أن يصير الحرص على سنة ذريعة إلى أذى محقق. وإذا تعارضت أمامه أعمال أو أشكلت صورتها، سأل عن الواقعة بصدق، وذكر ما فيها من حق للغير بدل أن يخفيه طلبًا للجواب الذي يريده.

وحين تتعلم سنة صحيحة، أعطها فرصة أن تستقر في عملك قبل أن تجعلها ميدانًا لاختبار الآخرين. ابدأ بتصحيح فعلك، وافهم حكمها، ثم علّمها برفق إذا أحسنت البيان. ربما احتاج من أمامك إلى شرح لم تحتج إليه، أو كان عنده سؤال لم يخطر لك. لا تختصر اختلاف الفهم في حكم سريع على المحبة والنية؛ فالمحبة مقام في القلب، وتعليم السنة عمل يحتاج إلى علم وصبر.

قد يعود الإنسان بعد مدة إلى عادة قديمة. يستطيع أن ينتبه ويصحح، مستعينًا بالله.

١٩ | الفرض الذي ينتظرك

قد ينشغل الإنسان بالبحث عن عمل يزيد قربهِ من الله، وفي يومه واجب لم يعطه حقه بعد. يتتبع أبواب التطوع، ويجمع لها الأوقات، ثم تمر الصلاة مستعجلة على هامش برنامجه. وربما بحث عن مشروع كبير يخدم به الناس، وأبوه يحتاج إلى مساعدة يستطيعها اليوم. المشكلة هنا في ترتيب العناية؛ فالخير القريب قد يحجبه بريق ما نتطلع إليه بعيداً.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:

«سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ قَالَ الصَّلَاةُ عَلَى وَفَّيْهَا. قَالَ ثُمَّ أَيُّ قَالَ ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ. قَالَ ثُمَّ أَيُّ قَالَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. قَالَ حَدَّثَنِي بِهِنَّ وَلَوْ اسْتَزِدَّتُهُ لَزَادَنِي»⁴⁵

يبدأ السؤال بالمحبة: أي العمل أحب إلى الله؟ ويأتي الجواب بأعمال معلومة، يجد المؤمن بعضها في كل يوم. للصلاة وقت تصونه، وللوالدين بر يتجدد بتجدد أحوالهما. فطلب المحبة لا يبعدك عن واجبك العادي؛ قد يعيدك إليه بقلب عرف قيمته بعد طول اعتياد.

45 حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، حديث ٥٢٧، عن عبد الله بن مسعود.

وقد تقدم في أول الكتاب حديث الولاية، وفيه تقديم الفرائض في التقرب. هنا نقرب من أثر ذلك في توزيع اليوم: كيف تعطي العمل المفروض نصيبه قبل أن تملأ الوقت بما اخترته لنفسك؟ تستطيع أن تحب القراءة أو خدمة الناس أو تعلم مهارة نافعة، وأن تفسح لها مجالاً، لكنك تحتاج إلى معرفة ما يلزمك أنت الآن. تفاوت أحوال الناس يجعل واجباتهم التفصيلية متفاوتة؛ فصاحب المال يسأل عما وجب فيه، ومن تحمل أمانة يتعلم كيف يؤديها، ومن يرعى ضعيفاً يعرف ما تعين عليه من رعايته.

يطيل طالبٌ حضور لقاء نافع، حتى يضيق عليه وقت الصلاة. قبل أن يبحث عن نشاط آخر يزيده، يصلح هذا الخل المحدد. يسأل عن موضع الصلاة، وينظم خروجه، ويترك في برنامجه وقتاً يكفيها. هذا الإصلاح لا يقل شأنًا في حياته لأنه لا يصنع له عنوانًا جديدًا؛ إنه يعيد للفرض مكانه الذي ضاع بين الأعمال المحبوبة.

وفي مثال آخر، يتطوع شخص بمساعدة الغرباء، ويؤجل مهمة اتفق مع أسرته على تحملها لرعاية والده. أصل التطوع خير، لكن حسن المقصد لا يؤدي المهمة نيابة عنه. يمكنه أن ينسق الوقت، وأن يتعاون مع أهله، وأن يعتذر عن بعض

الزيادة إذا تعين عليه ما لا يقوم به غيره. عندئذ تبقى الخدمة متصلة بالأمانة، ويخرج إلى نفع الناس من باب صحيح.

ولا يعني بر الوالدين أن تخمن كل ما في نفسيهما، أو تعدهما بما لا تقدر عليه، ثم تحمل نفسك تبعات الوعد. اسأل عن الحاجة، وتكلم بأدب عن القدرة، واطلب تعاون من يشاركك المسؤولية. وقد تمر مسألة يشتبه فيها الواجب بالمستحب أو بحق آخر؛ فاذكر لأهل العلم صورتها كاملة. الكلام العام في فضل البر يوقظ العناية، وأما الحكم في واقعة مركبة فيحتاج إلى معرفة تفاصيلها.

والحديث يذكر الجهاد في سبيل الله ضمن الأعمال الفاضلة؛ له أحكامه وشروطه التي تبينها نصوصه وأهل العلم. لا يجعل ذكره هنا إذنًا بعمل يختاره الفرد خارج ضوابط الشرع، ولا يختصر به ترتيب جميع الواجبات لكل شخص في كل ظرف. نأخذ من الحديث تعظيم الأعمال المذكورة، ومن مجموع الشريعة نتعلم أحكامها وتنزيلها على أحوالنا.

قد يكون الواجب قليل الظهور: أمانة تعيدها، أو عمل تؤديه لأنك تقاضيت أجره، أو خصومة تمسك فيها لسانك عن الظلم. حين ترجو محبة الله بأدائه تجد للعناية به سببًا يبقى ولو غاب شكر الناس.

وقد يجهل المرء حكمًا يتكرر في عبادته أو معاملته، مع عنايته بتفاصيل نافلة. ليخرج إذن بسؤال محدد: يصف المسألة كما تقع، ويذكر ظروفها المؤثرة، ويرجع إلى جواب موثوق يفهمه. هكذا يصبح طلب العلم خطوة في أداء الواجب نفسه.

ثم إن العناية بالواجب لا تنحصر في مجرد إنجازه. قد يصلي الإنسان ثم يتعلم كيف يطمئن في صلاته، وقد يقوم بحاجة والده ثم يراجع نبرة صوته حين يخدمه، وقد يسدد دينه ثم يكف عن إيذاء صاحبه بالمن. في هذه التفاصيل مجال للإحسان داخل العمل نفسه؛ فليست كل زيادة نافعة عملاً جديداً تضيفه إلى القائمة، فقد تكون إصلاحاً لكيفية ما تفعله أصلاً.

اختر واجباً واحداً يتكرر تأخيرته، وانظر في سبب ذلك بصدق. أهو جهل بالحكم، أم سوء ترتيب، أم اتفاق غامض، أم استئثار تعرفه في نفسك؟ لكل سبب إصلاح يناسبه. التعلم يعالج الجهل، والتنظيم يفسح الوقت، وتوضيح المسؤولية يمنع ضياعها بين الأشخاص. وإن كان في الأمر تقصير متعمد، فله توبة وعزم وعمل، لا تسمية لطيفة تخفيه.

وأنت تصلح موضعاً، أبق قلبك مفتوحاً لسائر الخير. ترتيب الفرائض لا يدعوك إلى الزهد في النوافل، بل يمنح الزيادة

أساسًا صحيحًا. ربما اتسع يومك بعد إحكام واجباته أكثر مما كنت تظن، وربما ضاق لعارض تعلمه. في الحالين تستطيع أن تسأل الله الإعانة، وأن تقبل على العمل الذي بين يديك، وأنت ترجوه وتحب أن تفعل ما يحبه.

٢٠ | عمل قليل تصحبه

هناك خير نعرف بدايته جيداً، ولا نعرف كيف نصحبه. نبدأ قراءة طويلة في ليلة نشاط، ثم ننتظر ليلة تشبهها كي نعود. أو نختار من التطوع ما يتسع له يوم الإجازة، ثم نطالب أيام العمل أن تكون مثله. يظل العمل محبوباً في نفوسنا، لكن صورته التي رسمناها أكبر من الوقت الذي نملك، فيطول الانقطاع بين بداية وأخرى.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال:

«سَدُّوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ كُنْ يُدْخِلُ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ
الْجَنَّةَ، وَأَنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ أَدْوَمُهَا إِلَى اللَّهِ، وَإِنْ قَلَّ»⁴⁶

يجمع الحديث بين إصابة الطريق، والمقاربة عند العجز عن الكمال، والاستمرار في العمل. ومع ذلك كله يرد القلب إلى الافتقار؛ فلا يجعل الإنسان عمله ثمناً يستغني به عن فضل ربه. يسعى ويحسن ويرجو، ويبقى محتاجاً إلى رحمة الله في كل خطوة.

يدل الحديث على فضل العمل الذي يدوم عليه صاحبه، ولو كان قليلاً. وليس المقصود اختيار أقل ما يمكن، وإنما اتخاذ

46 حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، حديث ٦٤٦٤، عن عائشة.

أصل من العمل يصحب الحياة، والزيادة عليه عند القدرة. بهذه المداومة يبقى للعبادة موضع في النشاط وفي الأيام التي تكثر فيها الأشغال.

قد يبدأ قارئ بقدر يسير من التلاوة يفهمه ويحافظ عليه، ثم تتسع قدرته مع الأيام. وقد يجد آخر في صدقة يستطيعها أو مساعدة معتادة بابًا مناسبًا له. تختلف الأبواب باختلاف العلم والوسع والحاجة؛ فلا يحتاج الناس إلى نسخة واحدة من برنامج واحد. وحين يكون للعبادة مقدار أو وقت وارد في السنة، يتعلمه العامل ويلتزمه على وجهه؛ أما الترتيب الشخصي لتيسير العمل فلا ينسب إليه فضل مخصوص بغير دليل.

انظر إلى يومك كما هو: أي وقت تستطيع حمايته غالبًا؟ وأي عمل مشروع يناسبه؟ وأي حق قد تزاحمه إن أطلت؟ تنقل هذه الأسئلة رغبتك في الاستمرار إلى موعد وعمل يمكن الوفاء بهما.

يريد قارئ أن يصحب القرآن، لكنه اعتاد تأجيل القراءة إلى نهاية اليوم، ثم يجد نفسه مرهقًا فينام. يستطيع أن يجرب وقتًا أبكر، وأن يهيئ المصحف، وأن يبعد ما يقاطعه دقائق معدودة. لا فضيلة خاصة لهذا الوقت المقترح لمجرد أنه نجح

معه، ولا ضمان أن تنجح الوسيلة نفسها مع غيره. الذي تغير أنه عرف عائقًا ظاهرًا، فاختار سببًا يستطيع تجربته وتقويمه. والدوام لا يحول التطوع إلى دين في الذمة لمجرد أنك نظمته لنفسك. قد تمرض أو تسافر أو تتغير مسؤولياتك، فتحتاج إلى معرفة ما يناسب حالك. فرّق بين الواجب الثابت وبين الخطة الشخصية، ولا تدخل في نذر أو إلزام لتجبر نفسك على ما لم تفهم تبعته. يستطيع المرء أن يجتهد بعزم من غير أن يجعل كل عثرة محاكمة طويلة لنفسه.

إذا فاتك عمل تطوع اعتدته، فانتبه إلى الجملة التي تقولها بعده. قد تقول: ضاع كل شيء، فتدع ما بقي من الأسبوع. وقد تسأل: ما الذي منعني؟ ومتى أستأنف؟ السؤال الثاني يفتح بابًا للعمل. إذا كان السبب إرهاقًا يتكرر، عدلت الموعد أو المقدار. وإذا كان انشغالًا بما لا ينفع، أصلحت هذا الموضع. هكذا تصبح المراجعة عونًا للاستمرار، ويأخذ الخطأ حجمه دون أن يبتلع بقية الطريق.

وقد يداوم الإنسان ثم تضعف عنايته بالمعنى. يجري اللسان بالكلمات، ويبقى الذهن في شأن آخر. من الإصلاح أن يعود إلى فهم ما يقرأ ويقول، وأن يتعلم شيئًا يوقظ معرفته، وأن يجاهد ما يشتهه. استمرار الصورة نعمة، وحضور القلب مطلب يتعاهده. لا يحتاج إلى هدم العمل ليبدأ من جديد كل مرة؛

يحتاج إلى تجديد قصده والانتباه إلى ما صار يمر عليه سريعاً.

وللزيادة موضعها حين تنفتح القدرة. من وجد سعةً في وقت أو موسم خير، أخذ منها نصيبه، ثم عاد إلى ما يطيقه في سائر أيامه. لا يجعل أيام الاجتهاد حجة لاحتقار العمل المعتاد، ولا يجعل العمل المعتاد سقفاً يمنعه من مزيد نافع. يستطيع أن يحفظ أصلاً، ويزيد عليه، ويعرف الفرق بين ما يصلح لأسبوع استثنائي وما يصحب عامًا كاملاً.

ومن حسن صحبة العمل أن تقل مقارنة صورتك بصور الآخرين. ما تراه من عبادتهم لا يحيط بأحوالهم، وما عندك من مسؤوليات قد لا يعرفونه. خذ منهم ما يعينك، واسأل عما تحتاج إلى تعلمه، ثم ارجع إلى تكليفك وقدرتك. الغبطة قد تفتح باباً، أما تعقب المقادير ليكون لك دائماً أكثر مما عند غيرك فيشغلك عن المعنى الذي بدأت من أجله.

وبعد مدة راجع تنظيمك: هل استمر العمل؟ هل أحسنت أداءه؟ وهل حفظت معه الواجبات وحقوق الناس؟ تصلح الإجابات لتعديل الخطة، ولا تمنح حكماً على القبول أو منزلة القلب.

ربما كان أنفع ما تختاره اليوم عملاً يسييراً تعرف مشروعيته، وتجده له وقتاً، وتقبل عليه رجاء وجه الله. لا يلزم أن تخبر به

أحدًا، ولا أن تصنع من بدايته حدثًا كبيرًا. أعطه مكانًا صادقًا في حياتك، وجدّد نيتك حين ترجع إليه. ومع مضي الأيام تعرف قيمة هذا الخير الذي بقي معك: بابًا تعود منه إلى ربك، كلما توزعت بك الأشغال.

٢١ | إثثار عند غلبة الهوى

تظهر بعض الاختيارات واضحة حتى يأتي وقتها. تعرف حرمة فعل، ثم يعرض لك نفع عاجل لا تصل إليه إلا به، فتجد نفسك تبحث عن اسم آخر للفعل. كان الحكم قبل الموقف معلومًا، والذي تغير شدة رغبتك. هنا تحتاج محبة الله إلى علم يحرسها، وإلى إرادة تختار ما علمته وإن بقي في النفس ألم الفوات.

سبق حديث حلاوة الإيمان، وما فيه من تقديم محبة الله ورسوله على ما سواهما.⁴⁷ ولا يلزم من هذا التقديم اختفاء كل ميل مخالف في لحظة. يستطيع الإنسان أن يحب مألًا مباحًا، وأن يشتهي قبول الناس، ثم يترك طريقًا محرّمًا إليه. العبرة بما يقدمه حين عرف التعارض، مع مجاهدة ما في القلب واستعانتة بالله.

أول ما يعينك تسمية الواقعة بصدق. ما الفعل؟ ومن صاحب الحق فيه؟ وما الذي أعلمه من حكمه؟ قد يكون الأمر جهلاً بصورة مركبة فتحتاج إلى سؤال، وقد يكون الحكم بينًا لكنك تستثقله. لا يعالج الثاني بتكثير الأسئلة حتى تجد جوابًا

47 حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، حديث ١٦، عن أنس بن مالك.

يريحك، ولا يعالج الأول باتهام النفس قبل التعلم. تفريق السبب يمنع علاجًا يزيد الالتباس.

صاحب تجارة يعرف عيبًا مؤثرًا في سلعة، ويخشى أن تفوته الصفقة إذا ذكره. يستطيع أن يبين العيب، ويعرض ما يراه عوضًا مشروغًا، ويترك للمشتري اختياره. قد يخسر النفع الذي تصوره، لكنه حفظ صدقه وحق الآخر. لا يعده هذا الفصل بتعويض مالي محدد في الأسبوع القادم؛ يرجو فضل الله، ويواصل السعي، ويقبل أن الطاعة قد تكلفه نفعًا عاجلاً.

وقد يظهر التعارض في القول. وصلت إليك رسالة تسيء لشخص خالفك، وتريد أن تنشرها قبل أن يفقد الخبر أثره. تعرف أنك لم تثبت، لكن رغبة الانتصار تستعجل إصبعك. توقف قليلًا، واطلب الأصل، أو اترك النشر. ليس كل ما يفيد موقفك مما يجوز لك قوله. وقد تكون محبة الله حاضرة في امتناع لن يعلم الناس به أصلًا.

إيثار ما يحبه الله يستفيد من تقليل المقدمات التي تعرف خطرها. إذا كان طريق معين يكرر عليك الإغراء، فعدل ما تملك من البيئة أو الوقت أو الصحة. هذه أسباب بشرية، تختلف بقدر الحال. لا تكفي وحدها عن العزم، لكنها قد تمنح العزم مجالًا أوسع. ومن الحكمة ألا تعود إلى موضع ضعفك كل مرة لتختبر قوة قلبك.

وإذا فاتتك فرصة بسبب اختيار صحيح، اسمح لنفسك أن تحزن على الفوات من غير أن تعيد تسمية المعصية مصلحة. تحدث مع من تثق بعلمه وخبرته عن البدائل، وتعلم كيف تعالج خسارتك، واحتفظ بوضوح المبدأ. قوة الاستجابة تظهر أحيانًا في احتمال هذه المرحلة الهادئة؛ حين انتهت لحظة الرفض وبقيت تبعثها العملية.

وإذا اجتمعت عليك رغبات مباحة، فليس كل تأخير لواحدة منها إثارة دينيًا مخصوصًا. قد تؤجل زيارة لتنجز عملاً، أو تقدم راحة لأنك تعبت. هذه مفاضلات حياتية تتعلم حسن تدبيرها. يزداد وضوح السؤال حين يدخل فيها حق واجب أو حرام معلوم: ما الذي يلزمني هنا، وما الذي يمكن تغييره؟ لا تحمل كل قرار عادي معنى امتحان حاسم لمحبتك؛ فذلك يثقل الاختيار ويجعل الحياة محكمة متصلة بدل أن تكون موضع عمل وتعلم.

وإن ضعفت، فصف خطأك بصدق ثم تب وأصلح أثره. تستطيع أن تعترف بأنك قدمت رغبتك في هذا الموقف، من غير أن تمحو كل خير سبق منك أو تصنع عذرًا يزين المخالفة. بهذا الاعتراف تعرف ما يحتاج إلى علاج، وتعود إلى ما تعلم أنه يرضي ربك.

٢٢ | نية صالحة في المباح

تمضي في يومك ساعات في عمل ونوم وطعام ورعاية. قد تتخيل أن صلتك بالمحبة لا توجد إلا في وقت العبادة الظاهرة، فتضيق صورة القرب عن أكثر يومك. وفي المباح مجال لقصد صحيح: تستعين به على طاعة، أو تؤدي به حقًا، أو تحفظ به قدرة تحتاج إليها. لا يتغير حكم الشيء المحرم بحسن النية، لكن النية الصالحة تمنح المباح وجهة ترجو بها الأجر.

قال الله تعالى:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.⁴⁸

جاءت الوصية في سياق قارون، فجمعت طلب الآخرة، وعدم نسيان النصيب من الدنيا، والإحسان، والنهي عن الفساد. لا تدعو الآية إلى ترك الحياة، ولا إلى جعل نعمتها مستقلة عن المسؤولية. من هذا الجمع يتعلم القارئ أن يسأل عن استعمال

ما أعطاه الله: إلى أي عمل تحمله القدرة؟ ومن ينتفع بما بين يديه؟

قد تنام لتستريح وتستطيع أداء عملك وصلاتك، وتأكل ما يقيم بدنك، وتتعلم مهارة تيسر لك رزقاً طيباً. لا تحتاج إلى جملة طويلة تكررهما في نفسك عند كل فعل، ولا إلى تحويل اليوم إلى تفتيش لا ينتهي عن النية. يكفي أن يعرف قلبك الجهة التي يعمل لها، وأن يجدد قصداً نافعاً عندما يغيب عنه، مع حفظ أحكام الفعل نفسه.

وفي رعاية الأهل تظهر هذه الجهة بوضوح. تساعد طفلاً على فهم درسه، أو تهیی حاجة لمريض، أو تصلح شأنًا في البيت. يمكنك أن ترجو الأجر بما تقوم به من حق وإحسان، حتى حين لا يجد العمل عنواناً يراه الآخرون. لا تقل قيمته لأنه يتكرر، ولا لأن التعب فيه أقرب إلى واجب عادي منه إلى حال وجدانية تصفها بسهولة.

ويحتاج هذا الباب إلى حماية من المبالغة. اختيار نوع طعام مباح لأنك تحبه لا يلزم أن تسنده كل مرة إلى مقصد تعبدي جديد. الحياة فيها سعة مباحة، وتستطيع أن تنتفع بها مع الشكر ومن غير إسراف. المقصود فتح باب القصد الصالح، لا تحميل كل رغبة تفسيراً يزيدّها تعقيداً، ولا الادعاء بأنك حولت جميع ساعاتك إلى طاعة تامة.

وتبقى حقوق الناس محفوظة مهما حُسِّن وصفك لمقصدك. فلا تأخذ من وقت العمل المأجور ما لا يحق لك لتصرفه في تعليم نافع، ولا تكشف خصوصية أهلك بحجة نفع القراء. يراجع الفعل والقصد معًا؛ فسلامة أحدهما لا تغني عن سلامة الآخر.

قد يتغير قصدك أثناء العمل. تبدأ بمساعدة، ثم تنتظر شكرًا لا يأتي، فتضيق. تستطيع أن تنتبه لما عرض، وأن تراجع ما عليك وما تختاره من زيادة، وأن تصلح ما استطعت من قصدك. لا يلزم أن تترك المساعدة كلها كي تبدأ بنية أنقى؛ وقد تحتاج إلى بيان حدود قدرتك حتى يبقى المعروف صالحًا للاستمرار.

وقد يجتمع قصد الخير مع لذة المباح نفسه: تستريح بالنوم وتنوي التقوي به، وتستمتع بالتعلم وتريد إتقان مهنة نافعة. لا يلزم أن تزول اللذة حتى يصدق القصد. يكفي أن تعرف وجهتك، وتجدها عند الغفلة، من غير تكلف إعلانها أو تكرار عبارة داخلية تطلب بها الطمأنينة.

٢٣ | حين تتعدد أبواب الخير

تقرأ فضل عمليْن، وتحبهما معاً، لكن وقتك لا يتسع لهما بالصورة التي تخيلتها. قد يحمل هذا على جمع مرهق، أو على تأجيل الاختيار حتى تفوت الفرستان. محبة الخير تحتاج إلى فقه في التكليف والقدرة والحاجة؛ فليس كل ما فُضِّل في أصله هو المقدم في حق كل إنسان في كل ساعة.

سبق حديث ابن مسعود في أحب الأعمال إلى الله، وتقديم الصلاة على وقتها وبر الوالدين.⁴⁹ وفيه عناية بمعرفة ما يحبه الله، وقد تبين أن ترتيب الأعمال يستفيد من جمع الأدلة ومعرفة الحال. نستصحب هذا الأصل هنا لننظر في المفاضلة بين أعمال صحيحة، بعد حفظ الواجب الذي لا يجوز تفويته.

يطلب منك قريب محتاج مساعدة لا يجد لها غيرك، ويأتي الموعد نفسه الذي خصصته لناكلة تستطيع فعلها بعده. تسمع حقيقة الحاجة، وتعرف ما يلزمك وما تستطيعه، ثم تنظم الأمر. ليست كل مطالبة من قريب واجباً متعيّناً، وليست كل نافلة مقدمة لأن صورتها أظهر تعبّداً. يزيل السؤال الدقيق تصوّراً عاماً لا يكفي للحكم في الواقعة.

49 حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، حديث ٥٢٧، عن عبد الله بن مسعود.

ومن الفروق المهمة الفرق بين واجب له وقت محدود وعمل تطوعي اتسع وقته. والفرق بين خدمة يتوقف عليها حق إنسان، ومشاركة يستطيع غيرك أداءها. والفرق بين عمل تعلمه وتحسنه، وعمل يحتاج إلى مهارة لا تملكها بعد. المحبة تمنحك الرغبة في البذل؛ والمعرفة تساعدك أن تضع البذل حيث ينفع.

قد ينجذب شخص إلى مشروع معروف لأنه يراه أكثر أثرًا، ثم يقصر في أمانة صغيرة كُلف بها. لا يعالج المشكلة باحتقار المشروع، بل بإعادة ترتيب ما عليه. يؤدي الأمانة أو يطلب نقلها بصورة صحيحة، ثم يشارك بما وسعه. إذا بنى زيادة الخير على حق ضائع، حملت الزيادة خللاً لا يصلحه اتساعها. وحين تتعادل أمامك أمور مباحة نافعة، تستطيع أن تختار بحسب القدرة والحاجة والوقت. لا يلزمك البحث عن جواب غيبي يحدد أيها سيغير حياتك. تستشير من يعرف المجال، وتستخير في موضعها، وتبذل وسعك، ثم تتحمل مسؤولية الاختيار. ربما تبينت معلومة لاحقة فتعدل الخطة، من غير أن تجعل التعديل حكمًا بأن بدايتك كلها كانت خطأ.

وتختلف الاستعدادات بين الناس. قد يحسن أحدهم التعليم، ويكون آخر أقدر على تمويله، وثالث على حفظ العمل وتنظيمه. التعاون الصادق يترك لكل واحد موضعًا ينفع فيه. لا

تثبت محبة الله بأن تصنع لنفسك وظيفة غيرك، ولا تجعل عملك معيار قيمة جميع الأعمال. احفظ فضل ما تؤديه وفضل ما يؤديه الآخرون، واعرف كيف يكتمل خيركم المشترك.

وقد يقبل الإنسان أدوارًا كثيرة لأنه يخشى أن يخيب ظن الآخرين فيه. ثم يجد نفسه حاضراً بالاسم في كل موضع، غائباً عن الأداء الذي انتظروه. الصدق عن حدود القدرة يحمي النفع الذي تريد. تقول ما تتولاه وما تعجز عنه، وتحيل إلى من يعرف، وتراجع وعداً تبين لك أنه أكبر مما تملك. هذا البيان قد يحسن الصلة بدل أن يضعفها، لأن الناس يعرفون عليه كيف يرتبون حاجاتهم دون انتظار لا تستطيع تحقيقه.

بعد اختيارك، امنح العمل قدره من التركيز. كثرة مراقبة الأبواب التي لم تدخلها قد تستهلك ما خصصته للباب الذي دخلته. يمكنك أن تراجع قرارك في وقت مناسب وبسبب معلوم، ثم ترجع إلى ما أمامك. يصدق حب الخير حين يصير نفعاً يمكن الاعتماد عليه؛ وتبقى أبواب أخرى ترجوها إذا اتسعت القدرة.

٢٤ | عبادة لا نخترعها

قد تسمع اقتراحًا يبدو لطيفًا: عدد خاص من ذكر، في وقت معين، مع وعد بصورة من الفرج. ترغب في محبة الله والقرب منه، فتجد الكلام موافقًا لحاجتك. قبل أن تجعل الاقتراح عبادة، تحتاج إلى معرفة أصله؛ فحرارة الرغبة لا تثبت أن العدد أو الوقت أو الوعد مما شرعه الله.

سبق أصل الاتباع في آية المحبة وموقف عمر عند الحجر الأسود.^{50 51} والمقصود هنا صيانة طريق التقرب من إضافة صفة تعبدية لا دليل عليها. ما ثبت من هدي النبي ﷺ تتعلمه وتعمل به، وما اقترحه الناس لتنظيم الوقت تختبر نفعه من غير أن تمنحه حكم السنة. وقد جمع ابن تيمية هذا المعنى بقوله: «ألا نعبد إلا الله ولا نعبد إلا بما شرع».⁵² يسأل القلب أولًا عن جهة عبادته فيخلصها لله، ويسأل عن طريقها فيتبع

50 القرآن الكريم، آل عمران: ٣١؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية، النص الرقمي في المصحف الإلكتروني بجامعة الملك سعود.

51 أثر موقوف صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب ما ذكر في الحجر الأسود، حديث ١٥٩٧، من رواية عابس بن ربيعة عن عمر بن الخطاب؛ اللفظ المنقول من قول عمر.

52 ابن تيمية، العبودية، تحقيق محمد زهير الشاويش، فصل «جماع الدين أصلان»، ص ١٤٨ بحسب علامات النسخة الرقمية؛ وردت الرسالة أيضًا في مجموع الفتاوى، ج ١٠، فلا يعد ورود النص في الموضوعين شاهدين مستقلين.

ما شرعه. حسن القصد لا يثبت عبادة مخترعة، وموافقة الصورة المشروعة لا تغني عن إخلاص القصد.

فرق بين أن تجعل لنفسك موعدًا يناسبك لقراءة القرآن، وبين أن تقول إن لهذا الموعد الذي اخترته فضلًا مخصوصًا لم يثبت. وفرق بين تذكير بشري يساعدك على الانتظام، وبين إلزام الناس به كأنه حد العبادة. تستطيع الاستفادة من الوسيلة وتغييرها حين لا تنفع، أما العبادة المأثورة فتحفظ ما ثبت من صورتها وموضعها.

وتحتاج الوعود التي تصاحب بعض الأوراد إلى تثبت مستقل. قد يكون أصل الذكر مشروعًا، ثم يضيف الناقل عددًا أو وقتًا أو نتيجة لم يثبتها. اسأل عن مستند كل تخصيص، ولا تجعل صحة أصل الذكر دليلاً على صحة كل ما ألحق به.

قد يقال لك إن كثرة الأسئلة تضعف الروحانية. السؤال الذي يطلب الدليل ويحفظ العمل ينفع القلب. لا يلزم أن يدخل كل قارئ في دراسة تفصيلية للأسانيد، لكنه يعرف أين يجد حكمًا موثوقًا، ويميز بين نقل الحكم وبين الاجتهاد المستقل. وإذا أشكلت المسألة رجع إلى أهل العلم بدل أن يجعل شعوره بالصواب مصدرًا للتشريع.

والتثبت لا يسلب الحياة جمالها. يترك في الصحيح مجالًا واسعًا للدعاء والذكر والتطوع، وفي المباح مجالًا لتنظيم

التعلم والتعاون. تستطيع أن تدعو بكلام مباح يعبر عن حاجتك، مع بيان أنك أنشأته إن قدمته للناس. وتستطيع أن تختار وسيلة نافعة للتعليم، مع حفظ النصوص والأحكام. الحد إنما يقع عند النسبة والفضل التعبدي الذي يحتاج إلى دليل.

وإذا كنت عملت مدة بصفة لم تعرف أصلها، فتعلم بهدوء. اسأل عن حكمها وعن الذي يلزمك الآن، ثم صحح عملك بحسب البيان. لا تجعل طول المدة حجة لبقاء الخطأ، ولا تحكم على كل خير في حياتك من واقعة واحدة. تستطيع أن تحفظ فضل من أراد تعليمك، وأن تترك ما تبين عدم ثبوته؛ فقد يكون هو أيضًا نقل ما ظنه صحيحًا.

وفي النصيحة لمن اعتاد أمرًا لم يتبين لك أصله، اجمع العلم والرفق. لا تجزم بالتبديع من ملاحظة عابرة، ولا تسكت عن سؤال تعرف أنه يحتاج إلى بيان. اعرف ما يفعله وما يعتقد فيه، ثم ارجع إلى حكم موثوق يناسب هذه الصورة. قد تكون المشكلة في نسبة فضل معين، وقد تكون في أصل الفعل، وقد يكون ما ظننته عبادة مجرد عادة مباحة. اختلاف الصور يمنعك من اختصار الناس في حكم سبق فهم الواقعة.

محبة تعرف طريقها تقبل التصحيح. ربما حزنت لأن عادة محبوبة لم تثبت، ثم وجدت في المأثور ما هو أصدق وأغنى.

خذ منه ما يناسبك على وجهه المشروع، ودع فضل العبادة يُعرف من دليلها. عندئذ يصبح الاطمئنان إلى العمل معرفة تستطيع الرجوع إليها، بدل وعد عاطفي يضعف عند أول سؤال.

الباب الرابع: حياة القلب مع ربه

٢٥ | أن تذكره

تمر ساعات العمل سريعاً، ويتأخر الذكر إلى فراغ قد لا يأتي. والمحبة التي في القلب تحتاج إلى تعاهد: تذكر ربك، وتثني عليه بما علمك، وتستعين به وأنت تمضي في يومك. يلتقي في الذكر إقبال القلب وعمل اللسان، ويجد العبد سبيلاً للرجوع كلما شغلته عاداته.

قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا⁵³

جاء الأمر بالكثرة، وذكر طرفا النهار، ليصاحب الذكر حياة المؤمن. تذكر ربك في الصلاة، وعند تلاوة كتابه، وفي الأذكار المشروعة، وحين ترى نعمة فتشكر، أو تقارف ذنباً فتستغفر وتتوب. وإذا اقتضى واجب استغراق انتباهك أديته بإحسان، ثم عدت إلى الذكر حين يتسع له موضعه.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:
«مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»⁵⁴.

53 القرآن الكريم، الأحزاب: ٤١-٤٢؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآيتين.

54 حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل، حديث ٦٤٠٧، عن أبي موسى الأشعري.

لا يصف الحديث مقدار حركة الشفتين وحدها؛ إنه يضع الذكر في موضع الحياة. فالقلب الذي يعرف إلى من يرجع، واللسان الذي لا ينقطع عن الثناء والاستغفار، والعبد الذي يسترد وجهته كلما تفرقت به الأسباب—كل ذلك أقرب إلى حياة الإيمان من يوم يمضي كأن لا رب له يُعبد ولا نعمة تُشكر ولا تقصير يُستغفر منه.

وربما جرّبت أثر ذلك في موقف صغير. يصل إليك خبر يفرحك، فتندفع مباشرة إلى سرد الأسباب والأسماء، ثم تتذكر أن تقول: الحمد لله. هذه الكلمة لا تلغي فضل من أحسن إليك، ولا تعفيك من شكره؛ إنها تعيد النعمة إلى مبدئها، وتمنع الأسباب من أن تحجب المنعم. وقد يصيبك خوف، فتقول ما شرع من الاستعانة والدعاء، ثم تأخذ بالسبب المتاح. الذكر هنا ليس بديلاً من العمل، بل قلب العمل ووجهته.

تشتد الحاجة إلى الذكر حين تزدهم الخواطر. استغفار بعد زلة، أو تسبيح في طريق مباح، أو دعاء ماثور في موضعه، يصل القلب بربه وسط يوم مضطرب. لا تنتظر صفاء المكان والنفس حتى تبدأ؛ تعلّم ما يناسب حالك من الذكر، وارجع إليه كلما وجدت فرصة.

وللذكر ألفاظ وأوقات وصفات جاءت بها السنة. الطريق الآمن أن تتعلم الثابت منها من مصدر موثوق، فتقوله كما ورد بقدر

استطاعتك، ولا تنسب إلى عدد أو هيئة فضلاً مخصوصاً بغير دليل. أما أن تختار لنفسك علامة تذكير أو ترتيباً يعينك على المحافظة، فذلك وسيلة تنظيمية لا تصير سنة لمجرد أنها نافعة لك. الفرق يحفظ التعبد من الاختراع، ويحفظ الوسائل من تكلف ما ليس فيها.

قد يحمل المرء قائمة طويلة من الأذكار في هاتفه، ثم يعجز عن حضور يسير مع واحد منها. ليست المعالجة في احتقار الكثرة، ولا في الرضا الدائم بالقليل؛ بل في أن تبدأ بما تعرف ثبوته ومعناه، وتمنحه انتباهاً صادقاً، ثم تزيد علمك وعملك. إذا قلت: «سبحان الله»، فاعرف أنك تنزه ربك عن كل نقص. وإذا حمدت، فاستحضر أن المحامد له. وإذا استغفرت، فلا تجعل الكلمة ستاراً للإصرار؛ اجمع إليها ندماً وإقلاعاً ورداً للحق حين يتعلق الذنب بحق آدمي.

ويأتي الفتور حتى على اللسان المعتاد. تردد كلمات صحيحة، ثم تكتشف أن قلبك بعيد؛ فارجع إلى معنى واحد، أو اخفض سرعتك، أو تعلّم شرح الذكر. حافظ على العمل وجاهد الغفلة، وأبعد مشتتاً ظاهراً إذا كان يقطع عليك فهم ما تقول.

انتبه كذلك إلى أن الذكر لا يبيح لصاحبه أدنى من حوله. من رفع صوته في موضع يقطع على مصلٍّ أو قارئٍ أو نائم، احتاج إلى تعلم الأدب والحكم المناسب. ومن اتخذ مظهر

الذكر بابًا ليراه الناس، احتاج إلى مجاهدة نيته وإخفاء ما يشرع إخفاؤه. لا نجزم بما في قلب أحد، لكن الإنسان يستطيع أن يسأل نفسه: هل أفعل هذا لو لم يرني أحد؟ وهل يزداد تعظيمي لله حين أخلو، أم لا أجد للذكر رغبة إلا مع الجمهور؟

ومن علامات صدق الذكر أن يردعك عند الحد. قد تقول بلسانك إن الله يراك، ثم تمتد يدك إلى ما لا يحل. لا يعني وقوع التناقض أن تترك الكلمات، بل أن تستدعي معناها إلى موضع العمل. اقطع السبب المحرم، ورد المظلمة، واطلب العلم إن اشتبه عليك الحكم. الذكر الذي يصحب التوبة ليس تزيبًا للمشهد؛ إنه إعلان افتقار يعقبه رجوع.

وليس كل صمت غفلة، كما أن كل كلام ديني ليس ذكرًا محمودًا. قد يصمت الإنسان ليتفكر في آية أو يحفظ لسانه من غيبة، فيكون صمته طاعة. وقد يتحدث آخر في أمور الشرع بلا علم، فيضر وهو يظن أنه يذكّر. الميزان ليس كثرة الصوت، وإنما موافقة ما شرع الله، وصلاح المقصد، وأداء الحق. إذا لم تعلم صحة عبارة متداولة، فلا تنشرها لمجرد أنها مؤثرة؛ تحقق أولاً، فما يُتقرب به إلى الله أولى بالصدق.

اختر موضعًا واحدًا يتكرر فيه نسيانك: بعد استيقاظك، أو عند خروجك، أو في انتقال ثابت من يومك. تعلم ذكرًا

صحيحًا يناسبه، وافهم معناه، وضع سببًا بسيطًا يذكرك به. بعد أسبوع لا تسأل: كم صرت محبًا؟ فهذا مما لا تقيسه الأرقام. اسأل: هل حفظت الذكر؟ هل قلته بوعي أكثر؟ هل أعانك على شكر أو توبة أو سكينة مشروعة؟ ثم صحح الوسيلة واستمر.

اذكر ربك في اليوم الذي تعيشه، بيسره وزحامه. وكلما عاد لسانك إلى حمده وتسبيحه، فاستحضر معناه واستجب لما يذكرك به من شكر أو توبة أو أداء حق.

٢٦ | حاجة تفتح الدعاء

للحاجة صوت قد نحاول إسكاته طويلاً. نستحي أن نظهر ضعفاً، أو نخشى أن تكون رغبتنا صغيرة، أو نطلب من الخلق قبل أن نرفع الأمر إلى الخالق. ثم تضيق الأسباب، فتتكشف حقيقة كانت قائمة منذ البداية: نحن فقراء إلى الله في السعة والضيق، وما نملكه من قوة ووسائل هو من عطائه.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ
إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾⁵⁵

في الآية قرب وإجابة، ثم استجابة وإيمان. لا تجعل الدعاء مجرد لحظة طلب منفصلة عن حياة العبودية. أنت تسأل رباً قريباً يسمع دعائك، وتؤمن به، وتستجيب لأمره، وتسلك ما أباح من الأسباب. ليس القرب وعداً بأن تقع كل صورة اخترتها في الوقت الذي عينته، لكنه يرفع الوحشة: دعاؤك ليس ضائعاً، وربك أعلم بحاجتك وعاقبتها.

55 القرآن الكريم، البقرة: ١٨٦؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي، إِنَّ شَيْئًا
لَيُعْزِمُ الْمَسْأَلَةَ، فَإِنَّهُ لَا مُكْرَهَ لَهُ».⁵⁶

العزم في المسألة ليس أمراً لله، ولا ثقة بأن اختيارك الخاص لا بد أن يقع. معناه أن تسأل بوضوح وافتقار، فلا تصوغ طلب المغفرة والرحمة كأنك تتلطف مع من قد يُكره على العطاء. الله سبحانه لا يكرهه أحد. تقول: اغفر لي وارحمني، وأنت تعرف أنك عبد لا يستغني عن المغفرة، وأن خزائن ربك لا تنقص بعطائه.

قد تبدأ الحاجة باسم واضح: عمل، أو شفاء، أو سداد دين، أو صلاح علاقة. سمّها بين يدي الله من غير تزويق. قل ما تريد بدعاء مشروع، ثم فتش عما يلزمك من عمل. من يسأل رزقاً يبحث في أبوابه المباحة ويتعلم ما يحتاج إليه. ومن يسأل شفاء يستعمل العلاج المتاح ويستشير أهله. ومن وقع في حق لإنسان لا يجعل الدعاء بدلاً من الاعتذار ورد الحق. الأخذ بالسبب لا يناقض الافتقار؛ بل قد يكون من الاستجابة التي كلفت بها.

56 حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له، حديث ٦٣٣٩، عن أبي هريرة.

واعرف للسبب حدوده: الطبيب يعالج بما علّمه الله، والرزق يُطلب من أبوابه، والتدبير كله لله. نحترم الخبرة، ونشكر الناس، ونلتزم العقود، وقلوبنا مفتقرة إلى ربنا. إذا نجح السبب حمدت المنعم، وإذا تعطل بحثت عما تقدر عليه من سبب آخر.

ومن صور الاضطراب أن يتحول الدعاء إلى صفقة: إن أعطيتني هذه الصورة فعلت الطاعة، وإن تأخرت عني تركت القرب. الطاعة ليست أجرًا نقدمه لله ليحقق رغبتنا؛ نحن عباده في الحالين، وهو الغني عنا. تستطيع أن تدعو بالحاح، وأن تبكي من الألم، وأن تكرر السؤال، من غير أن تشترط على ربك ما لا يليق. الصدق لا يعني سوء الأدب، والرضا لا يعني أن تتظاهر بأن الجرح لا يؤلم.

وقد لا تعرف ما الأفضل لك في تفصيل المسألة. تدعو بما تحب، وتستخير في موضعها المشروع، وتفوض العاقبة إلى الله. إذا ظهر لك ضرر في المطلوب، فلا تتمسك بصورته لأنك دعوت به طويلاً. غير مشارك وأنت تقول في نفسك: كنت أسأل الخير، وقد ظهر لي الآن أن هذا الباب ليس هو الخير الذي ظننته. مراجعة القرار ليست ضعف يقين؛ قد تكون ثمرة علم جديد.

وحين تتأخر الإجابة التي تراها، احذر تفسير الغيب من عندك. لا تقل إنك مردود حتمًا، ولا تعد غيرك بموعد انفراج لم يخبرك الله به. تستطيع أن ترجو وتحسن الظن وتواصل العمل، مع الاعتراف بأنك لا تعلم وقت القدر ولا صورته. وإذا أثقل الانتظار نفسك حتى أثر في نومك أو قدرتك أو سلامتك، فطلب المساندة من أهل الاختصاص سبب مشروع، ولا يقدر في الدعاء.

أحيانًا لا تفتح الحاجة دعاءً جديدًا، بل تكشف دعاءً مهملاً. كنت تردد كلمات عامة، ثم صار لها معنى حين عرفت ضعفك. لا تعيب نفسك لأن الألم أيقظك؛ احمد الله على باب الرجوع، ثم حاول ألا تغلقه عند انقضاء الشدة. اجعل من وقت الرخاء نصيبًا للشكر والسؤال، كي لا تصير علاقتك بالدعاء مقصورة على الإنذار.

ومن أدب الحاجة أن تتسع عينك لحاجات غيرك من غير أن تقارن الآلام. قد تدعو لمريض وأنت مريض، أو تعطي قليلًا وأنت محتاج. لكن لا تحمل نفسك ما لا تطيق لتثبت حسن قلبك، ولا تمنّ على من أعنته. افعل ما تقدر عليه، واسأل الله لك وله. المحبة التي يربّيها الدعاء لا تحتكر الرحمة للنفس، ولا تلغي حقوقها.

إذا ارتبكت كلماتك، فلا تظن أن باب الدعاء أغلق. ادع بما تعرف من جوامع الدعاء الثابتة، أو عبّر عن حاجتك بكلام مباح واضح. لست مطالباً بصناعة جملة بليغة. المهم أن لا تتضمن دعاءً بمحرم أو اعتداء، وأن تعرف من تسأل. وقد يكون من تمام الصدق أن تقول: يا رب، لا أعرف وجه الخير، فاختر لي وأعني على ما ترضى. وهذا مثال لدعاء ينشئه العبد بمعنى مباح، لا صيغة مأثورة بهذا اللفظ.

في حاجة قائمة، بيّن لنفسك ما تسأل الله، والسبب المباح الذي تستطيع فعله اليوم، والحق الذي ينبغي أن تحفظه أثناء السعي. ثم ميّز ذلك من النتيجة التي تفوض توقيتها وصورتها إلى الله. قد يكشف لك هذا الترتيب خطوة واجبة أغفلتها، أو انشغلاً بالأسباب أنساك الدعاء.

ثم ادع. لا تؤجل حتى تستحق في ظنك، فأنت تدعو لأنك محتاج، ومع الدعاء تب إلى الله مما تعلم من ذنبك. اسأله المغفرة والرحمة كما علمك النبي ﷺ، واسأله خير حاجتك، واعزم المسألة من غير استعلاء. حين تنتهي، قم إلى ما تستطيع من عمل، واترك ما لا تملكه لمن يملكه.

٢٧ | خلوة تحفظ الصدق

يهدأ البيت، وتنتهي الرسائل، وتبقى دقائق لا ينتظر فيها أحد جوابك. قد تملؤها سريعاً بشيء يبدد الصمت، وقد تجد فيها فرصة لتعود إلى معنى انشغلت عنه طول النهار. ليست الخلوة مكاناً بعيداً أو حالاً لا يقدر عليها إلا قليل؛ قد تبدأ حين تضع ما يشغلك، وتقرأ آية تفهمها، وتدعو ربك بحاجتك.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾⁵⁷

يذكر السعدي في تفسير الآية أن الخشية تكون حتى في الحال التي لا يطلع فيها على العبد إلا الله. يترك المعصية ويؤدي ما أمر به، مع غياب نظر الناس. وهذه دلالة نحتاجها هنا: للصلة بالله أثر حين ينصرف الجمهور وتغيب المكافأة القريبة. يظل الحق حقاً، ويجد المؤمن باعثاً إلى الوفاء به لأنه يعرف ربه ويعظمه.

تتيح الخلوة وقتاً تتوجه فيه إلى الله، بعيداً عن كثرة المخاطبات. تقرأ ما أخبر به عن نفسه، وتسأله، وتذكر فضله.

57 القرآن الكريم، الملك: ١٢؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

وقد يكفي أن تقف عند معنى واحد غفلت عنه فتدعوه بما تعلمت، ثم تعود إلى يومك وقد وجدت مجالاً لتجديد القصد. قد نتصور رجلاً اعتاد أن يشرح كل خاطر يمر به لأصدقائه. وجد فائدة في حديثهم، لكنه صار يستبق كل دعاء بمنشور عن حاجته. حين يترك مرةً بعض التفاصيل بينه وبين ربه، لا يقلل من قدر الصحبة ولا يحرم طلب المساعدة. إنه يتعلم أن حياته أوسع مما يحكي، وأن لله فيها عبودية لا تحتاج إلى مشاهد. وهو اختيار ممكن، لا خبر عن شخص ولا حكم على من شارك تجربة نافعة.

والعمل الخفي ليس أفضل في كل صورة. صلاة الجماعة لها موضعها، والتعليم يحتاج إلى متعلم، والبر قد يقع أمام الأسرة. إنما تختار الخلوة حين تناسب العمل وتعينك عليه، وتؤدي ما يلزمك حيث أمرك الله. لا تطلب لنفسك سرًا على حساب واجب علني، ولا تجعل حب الخفاء سببًا لكتمان علم يحتاجه الناس أو حق يجب أن يشهد به صاحبه.

ويظهر صدق الخلوة أيضًا حين تنفرد بهاتفك. تستطيع أن تخفي الشاشة عن الناس، ويبقى اختيارك معلومًا لله. إذا عرفت بابًا محرّمًا فأغلقه، وإذا اشتبه حكمه فاسأل؛ فالعناية بالخلوة تشمل ما تتركه لله، كما تشمل العبادة التي تؤديها بعيدًا عن الأنظار.

وقد يثقل الصمت على إنسان يحمل حزنًا شديدًا. ليس ملزمًا بأن يطيل العزلة حتى يثبت حسن صلته بالله. يذكر ربه بما يستطيع، ويصل من يعينه، ويطلب المساندة إذا احتاج إليها. للناس في الطاقة والحاجة أحوال مختلفة؛ وما ينفع واحدًا في وقت قد لا يناسب آخر. الخلوة هنا فرصة عبادة، وليست وصفة علاج أو امتحانًا لتحمل الوحدة.

ومن حفظ الصدق أن تعرف حدود ما تجد. الأُنس الذي تشعر به فضل ترجوه وتحمد الله عليه، لكنه لا يجعل كل خاطر يرد عليك إلهامًا صحيحًا، ولا يفتح لك معرفة الغيب. تعرض المعنى على الوحي، وتثبت قبل أن تنسب إلى الله وعدًا أو حكمًا. قد يطمئن قلبك لقرار، ثم يكشف العلم خطأه؛ فتصحح القرار وفاء بالحق الذي تريد التقرب به.

اختر من يومك فرصة هادئة لا تضيع حقًا لأحد. ضع فيها ما يشغلك، واقرأ قدرًا تستطيع فهمه، ثم ادع بكلام مشروع. إن طرأ واجب خرجت إليه، وإن انشغل ذهنك عدت برفق إلى ما تقرأ. الوقت الذي تختاره ترتيب شخصي، لا فضيلة مخصوصة تثبت بلا دليل. يكفي أن تجد للعبادة موضعًا تستطيع الوفاء به.

ومتى انتهت الخلوة، فاحمل صدقها إلى معاملتك: كلمة ألين،
ووعده محفوظ، وخطأ تعترف به. وما بقي من عملك مستورًا،
فرجاؤك فيه إلى الله الذي يعلم سرّك.

٢٨ | حين تفتت المشاعر

خرجت من مجلس علم وقلبك حاضر، ثم انشغلت في اليوم التالي بما يحتاجه البيت والعمل. عدت إلى القراءة فلم تجد الرقة نفسها. قد تستعجل فتقول: ما شعرت به أمس كان عابراً لا قيمة له. وقد تحمل نفسك على استعادة الحال حتى تتعب من ملاحظته. في السنة خبر يعينك على فهم هذا التغير، وعلى سؤال أهل العلم قبل أن تحكم على نفسك.

عن حنظلة الأسدي رضي الله عنه، وكان من كتاب رسول الله ﷺ، قال:

«لَقِينِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ. قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا. فَأَنْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَمَا ذَاكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى قُرَشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً. ثَلَاثَ مَرَّاتٍ».⁵⁸

بدأ حنظلة بوصف شديد لحاله، وجاء البيان النبوي بعد أن شرح ما وجد. لم يتحول خوفه وحده إلى حكم صحيح على نفسه. سأل، ووصف الواقعة، وسمع الجواب. نحتاج هذا الأدب حين يشتد اللوم: ما الذي وقع فعلاً؟ هل أضعت واجباً، أم تغير حضور المعنى أثناء مشاغل مباحة؟ معرفة الفرق تمنع أن نسمي أحوالاً مختلفة باسم واحد.

اشتغال الإنسان بأهله ومعاشه مما تدور عليه الحياة. وشرح ابن باز أن «ساعة وساعة» تشمل هذه الحاجات المباحة، مع اجتناب الحرام.⁵⁹ لا يجعل الحديث للمعصية وقتاً مأذوناً بين وقتين من الطاعة. حين يعود الإنسان إلى تجارته يظل الصدق لازماً، وحين يلاعب أولاده لا يخرج من عهد العبودية.

58 حديث صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا، حديث ٢٧٥٠، عن حنظلة الأسدي. عافسنا: خالطنا واشتغلنا؛ والضيعات: المعاش.

59 عبد العزيز بن عبد الله بن باز، جواب «ما النصيحة للشباب في قضاء الأوقات؟»، تفريغ الجواب المنشور في موقعه الرسمي؛ بيان معنى «ساعة وساعة» وحدود الاشتغال بالمباح.

يتغير نوع العمل وقوة الاستحضار، وتبقى أحكام الله حكمة عليه.

وهذا ينفع المحب الذي ظن أن صدق محبته يقتضي انفعالاً واحداً لا ينخفض. قد تذكر ربك بحضور قوي، ثم تحتاج إلى إصلاح جهاز أو متابعة درس ولدك. لا تطالب نفسك بأن تجد في هذين العمليين الشعور نفسه الذي وجدته عند تلاوة آية. أقبل على ما يلزمك وأحسن أدائه، ثم عد إلى ما يعينك على التذكر حين يأتي موضعه.

ومع ذلك، يختلف تغير الشعور عن ترك الطريق. إن صارت الفرائض مهمة، أو جرت الأيام وأنت تختار ما تعلم تحريره، فهذه أفعال تحتاج إلى إصلاح واضح. لا تختبئ وراء الحديث لتسمي كل تقصير تنوعاً طبيعياً. اسأل عن الفعل المحدد، وتعلم ما يلزم فيه، ثم صحح السبب. أما منزلة قلبك عند الله فتسأل لها الإصلاح، ولا تضع لنفسك حكماً غيبياً من واقعة واحدة.

قد يشتد الفتور بعد برنامج مرهق وضعته في ساعة حماس. هنا تنظر في قدرة بدنك، ووقت نومك، وحقوق أهلك، وأصل العمل الذي ألزمته نفسك. تعديل الزيادة التي لا تطيقها يختلف عن إسقاط الفرض. سبق بيان المداومة، والمقصود هنا تحرير معنى الحال: تستطيع أن تخفف ما لا يلزمك، وأنت

تحافظ على ما أمرك الله به، ولا تجعل التعب دليلاً على فساد كل ما فعلت.

وإذا عاد شيء من الرقة، فاشكر الله وانتفع به من غير أن تضاعف البرنامج فوراً. ربما أعانك المجلس على فهم آية، فراجع معناها، أو على إصلاح علاقة، فابدأ بما تستطيع. الأثر الذي يستقر في اختيارك أنفع من محاولة حفظ الانفعال طوال اليوم. ثم إذا ضعف الشعور بقي لك علم تعلمته وعمل تستطيع الرجوع إليه.

تأمل مثلاً متخيلاً: امرأة وجدت في قيام الليل أنساً، ثم مرض طفلها فأصبحت تستيقظ للعناية به. تؤدي فرائضها بحسب استطاعتها، وتسأل عن أحكام ما يعرض لها، وتعتني بمن يحتاجها. ترجو من الله أجر الرعاية، وتعود إلى نافلتها حين تتيسر؛ فقد تغير عملها في الليل وبقي لها فيه باب طاعة.

وقد يكون فقدان المتعة واسعاً ومستمرّاً، يشمل العبادة والعمل والعلاقات، ويؤثر في نومك وقدرتك. لا يستخرج هذا الفصل تشخيصاً له. اطلب تقييماً مناسباً من أهل الاختصاص، مع مواصلة ما تستطيع من طاعة وطلب المساندة. لا يكفي أن يقال لكل متعب: زد الحماس، ولا يصح أن ينسب كل ألم إلى ضعف الدين.

إذا تغير حالك، فاستبدل الاتهام العام بوصف دقيق: ماذا تغير؟ وما الواجب الذي بقي قائماً؟ وما السبب القريب الذي أستطيع إصلاحه؟ وقد لا تملك جواباً كاملاً اليوم؛ عندئذ تحافظ على الأصل، وتطلب العلم والعون، وتترك لنفسك فرصة تتبين فيها الأمور.

حين يفاجئك تغير حالك، تذكر أن حنظلة رضي الله عنه وصف ما وجد وسأل عنه، فتعلم. احمل قلقك إلى سؤال واضح، وخذ بالبيان الذي يصح فهمك، ثم عد إلى أهلك ومعاشك وأنت تتعاهد ما يلزمك من العبادة.

٢٩ | مناجاة في الليل

في الليل تخف المطالب، ويتسع الوقت لقراءة ودعاء قد يقطعهما زحام النهار. قيام الليل باب للتقرب إلى الله يتعلم المرء صفته ويأخذ منه ما يطيق. وقد تختلف قدرة الناس عليه باختلاف أعمالهم وصحتهم وحقوق من يقومون عليهم. تقدم وصف أهل القيام في آية السجدة، ودعاؤهم خوفاً وطمعاً.⁶⁰ وإذا رجعنا إليها هنا، نظرنا في اختيار وقت للعبادة وتربية الأنس بالمناجاة. للفرض مكانه أولاً، وللبدن والأهل حقوقهم؛ وبعد ذلك يتسع التطوع على قدر العلم والقدرة. لا تحمل لحظة نشاط برنامجاً يصعب الوفاء به في سائر الأيام. ولقيام الليل معنى يظهر في جواب النبي ﷺ حين سئل عن اجتهاده فيه. عن عائشة رضي الله عنها:

«أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقْدَمُ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخَرُ؟ قَالَ: أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ

60 القرآن الكريم، السجدة: ١٦؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

عَبْدًا شَكُورًا. فَلَمَّا كَثُرَ لَحْمُهُ صَلَّى جَالِسًا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ
يَرْكَعَ قَامَ، فَقَرَأَ ثُمَّ رَكَعَ.⁶¹

جاء السؤال عن قيام طال حتى ظهر أثره في القدمين، وجاء
الجواب عن شكر المنعم. قد يظن السامع أن المغفرة تنتهي
معها الحاجة إلى مزيد من العبادة، فإذا بالجواب يكشف باعثًا
آخر: يحب أن يكون عبدًا شكورًا. فالقيام طلب للقرب،
واعتراف بفضل الله، واستجابة للنعمة بعمل. ومن هنا يفهم
القارئ كيف يدعو فضل الله إلى الإقبال عليه؛ كلما عرف من
إحسانه ما كان يغفل عنه، وجد سببًا جديدًا للشكر.

ويبين خالد السبت في شرح هذا الحديث أن دوافع العبادة
تتسع لطلب تكفير الذنوب ولشكر النعم، وأن المعرفة بأسماء
الله وصفاته تورث تعظيمه والإقبال على عبادته. ويقرر ابن
باز أن هذا الاجتهاد من شكر الله على نعمته ومغفرته.⁶² هذه

61 حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر»، حديث ٤٨٣٧، عن عائشة رضي الله عنها، واللفظ له؛ وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث ٢٨٢٠، بلفظ: «يا عائشة أفلا أكون عبدًا شكورًا». اللفظ المنقول في المتن متن رواية البخاري كاملاً بعد الإسناد.

62 خالد بن عثمان السبت، شرح رياض الصالحين، درس «حديث أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا، كان إذا دخل العشر»، مقطع «سمو مقصد العبادة»، التفريغ في موقعه الرسمي؛ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، شرح رياض الصالحين، الدرس ٤٠، شرح حديث عائشة في قيام الليل، التفريغ في موقعه الرسمي. النقل تلخيص للمعنى، لا اقتباس حرفي.

معانٍ تجتمع في قلب العبد: يحب ربه، ويرجو رحمته، ويخاف تقصيره، ويشكره على ما أولاه. لا يحتاج إلى إقصاء أحدها حتى يصدق في الآخر؛ فالعلم بالفضل يبعث الرجاء والشكر، والعلم بالتقصير يدعو إلى الاستغفار والإصلاح.

تأمل وصف العبودية في الجواب. لم تصبح النعمة سببًا للاستغناء، وإنما حملت على مزيد من الإقرار بالافتقار. والعبد حين يشكر يعلم أن قدرته على الشكر عطية أخرى: عرف معنى الصلاة، وتعلم كيف يؤديها، ووجد في بدنه قوة عليها. فإذا قام بين يدي ربه لم يقدّم عمله كأنه ثمن يقابل به إحسانًا أحاط بحسابه. يشكر بما أُعِين عليه، ويعرف أن فضل الله عليه أسبق من قيامه وأوسع من عمله.

وحين تقول في قراءتك ما يتضمن تنزيه الله أو تمجيده، فأنت تعترف بكماله. تفهم اللفظ كما جاء، وتدعوه بما دل عليه من علم ورجاء. هكذا تتسع المناجاة عن سرد قائمة المطالب؛ فيها ثناء تتعلمه، وافتقار تقر به، وذنب تستغفر منه، وخير تسأله. ومن عرف قدر الثناء لم يستعجل تجاوزه إلى حاجته، كما أن صدق الثناء لا يمنعه أن يصرح بما يريده من رحمة وعافية وهداية.

ويحفظ آخر الخبر اتساع العبادة مع تغير القدرة؛ فقد نقلت عائشة رضي الله عنها صلاته جالسًا حين كثر لحمه. فالسرد

نفسه لا يقف عند صورة القدمين المتفطرتين ليجعل الألم مقصودًا مستقلًا. موضع الاقتداء هو شكره واجتهاده وهديه المشروع. يحب المؤمن أن يبذل في الطاعة، ويتعلم صورتها المناسبة لحاله، ولا يطلب أثرًا في بدنه ليجعل منه شهادة محبة أو علامة قبول.

لهذا يدخل المحب ليله ومعه معرفة متجددة بمن يعبد. ربما كانت حاجته هي التي أيقظت دعاءه أول مرة، ثم علمته العبادة أن فضل الله عليه أوسع من تلك الحاجة. فإذا سكن المكان قرأ كلام ربه، وحمده، وسأله، وسجد له. يحمل إلى ذلك كله معنى الجواب النبوي: أن يكون عبدًا شكورًا؛ معنى يصحب العمل، ثم يمتد بعده إلى طريقة استقبال النعمة واستعمالها.

ابدأ بالتعلم مما ثبت في صلاة الليل. تعرف كيف تصلي، وما أحكام الوتر التي تحتاج إليها، وكيف تتصرف إذا ضاق وقتك أو تغير حالك. بعض الناس يستثقل البداية لأنه يتخيل صورة طويلة من الليلة الأولى. يستطيع أن يأخذ من العمل المشروع ما يطيقه ويستمر عليه، ثم يزيد إذا اتسعت قدرته؛ من غير تخصيص مقدار بفضل لم يرد.

وفي القراءة مجال تعرف فيه من تناجي. تفهم ما تقرأ من آيات، وتتعلم معنى ما أشكل، ولا تجعل طول القراءة وحده

قيمة الليل. قد يكون قدر أقل مع تدبر وحسن أداء أنسب لحالك، وقد تتسع لقراءة أطول في وقت آخر. لا تقطع بقبول إحدى الصورتين بسبب مقدارها؛ تنظر إلى ما تستطيع تصحيحه من عمل، وترجو فضل الله فيما لا تعلمه.

وقد يوقظك أمر دنيوي قبل الفجر. تستطيع أن تستفيد من يقظتك في عبادة مشروعة إن تيسر، من غير أن تعطي هذا الاستيقاظ تفسيراً غيبياً خاصاً. لا يلزم أن تكون لك إشارة كي تبدأ، ولا أن تستخرج من موعد الاستيقاظ منزلة عند الله. وقت حاضر وقدرة متاحة ومعرفة بالعمل تكفي لبداية نافعة. وقد تحتاج إلى تنسيق مع أهلك لتنام مبكراً أو تستيقظ في وقت مناسب، أو إلى سؤال معلم عن عبادتك. اذكر ما تحتاج إليه لهذا الغرض، واحفظ ما عدا ذلك إن كان أستر لقصدك.

إذا مرضت أو تغيرت مسؤولياتك، تعلم ما يناسب الحال. قد يكون النوم المبكر عوناً على الفجر والعمل، وقد تكون رعاية محتاج أوجب من زيادة نافلة. المحبة تصحب ترتيب الحقوق، ولا تطلب منك أن تنقضها لتثبت صورة من الليالي اعتدتها. يمكنك أن تحزن على فوات نافلة وأن ترجو الأجر في عمل آخر مشروع يقوم مقام حاجتك الآن.

وقد يشغلك تصور حديثك للناس عن ليلتك. إذا انتبهت فارجع إلى ما تقرأ وتدعو، واستعن بالله على جمع القلب

وتصحیح القصد. ما تعلمته من الإخلاص يعينك على أن يستغرقك العمل نفسه، بدل الانشغال بصورته عند الآخرين.

وبعد الوقت الهادئ تعود إلى الحياة التي تنتظرك. قد يحمل الصباح حقًا لقريب أو عملاً التزمت به، فتؤديه بما استطعت. لا تجعل صفاء الليل مبررًا للجفاء حين يعود الضجيج، ولا سببًا للحكم على من لم تيسر له صورتك نفسها. من أثر المناجاة الذي ترجوه أن يصدق توجهك في العمل التالي؛ كلمة أرفق، وأمانة أحسن أداءً، واستجابة للحق حين يطلب منك ما يخالف راحتك.

صلّ ما تيسر لك، واقرأ بتدبر، واسأل الله حاجتك. ثم احفظ في نهارك حقًا عرفته في هدوء الليل.

٣٠ | افتقار لا يهين النفس

الانكسار لله يرد الإنسان إلى حاجته ورجائه. لكن بعض الناس يخلطه بإهانة النفس: يعرف تقصيره فيصف ذاته بما يعجزه عن الإصلاح، أو يقبل ظلمًا يستطيع دفعه باسم التواضع. الافتقار إلى الله يعينك على الاعتراف بضعفك وطلب رحمته، وعلى القيام بما يصلح حالك.

يرجع هذا المعنى إلى فقر العبد الذي بينته آية فاطر، وقد تقدمت.⁶³ أنت محتاج إلى الله حين تحسن وحين تخطئ، وحين تملك سببًا وحين تعجز عنه. فإذا اعترفت بالذنب، عينت الفعل وتبت منه؛ وإذا اعترفت بالعجز، طلبت العون المناسب. لا يحتاج شيء من ذلك إلى نفي كل قيمة عن نفسك أو عن الخير الذي أعانك الله عليه.

للانكسار أثر حين يكسر دعوى الاكتفاء. تعبت في إصلاح أمر ثم رأيت حد قدرتك، فقلت في دعاء مباح تنشئه: يا رب، أعني واهدني إلى ما يرضيك. تستطيع أن تسأل هذا السؤال من غير أن تضخم فشلك أو تقدم ألمك زينةً في حديثك. الله يعلم حالك، وحاجتك لا تكتسب صدقها من شدة الكلمات التي تختارها.

63 القرآن الكريم، فاطر: ١٥؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

قد أخطأت في حق شخص. الافتقار النافع يقودك إلى اعتذار وإصلاح، ولو احتجت إلى جهد. أما أن تمضي في لوم نفسك أمامه حتى ينسى حقه ويبدأ في مواساتك، فقد يغير وظيفة الاعتذار. أعط الخطأ اسمه، واسأل عما يصلحه، ولا تحمل المتضرر مهمة تخفيف انزعاجك بدل أداء ما له.

ومن حفظ الكرامة أن تطلب العون من إنسان على قدر حاجتك. تذكر ما يلزم للمعالجة، وتختار أهل الأمانة والخبرة، ولا تكشف كل خصوصيتك لمن لا يحتاجها. كونك فقيراً إلى الله لا يمنح أي مخلوق سلطة مطلقة على حياتك. من يعينك يساعدك على الحق، ويقبل حدود قدرته وحدود حقه في العلاقة.

وقد يكون في قلبك خير تعترف به شكراً. لا تهدمه لتثبت أنك متواضع؛ انسب التوفيق إلى الله، واستعمله في مزيد من العمل. إن صرت أصدق في حديثك أو أحفظ لأمانتك، فاشكر النعمة وتعاهد بها. يبقى تقصير يحتاج إلى إصلاح، ولا يجعل وجوده كل تقدم كذباً. هذه المعرفة تحفظ لك رجاءً يعمل بدل عجز يتغذى من الاتهام العام.

٣١ | الصلاة والذكر الذي من أجله تقوم

قد تحفظ حركات الصلاة وكلماتها، ثم يستولي الاعتياد على المعنى الذي تقوم له. تسمع النداء فتتحرك، لكنك تحتاج أن تعرف هذا الانتقال من جديد: من شغلك إلى عبادة الله، ومن تفرق المطالب إلى وقوف له. إعادة المعنى لا تبدأ بترك الصلاة حتى تحضر الرقة؛ تبدأ بالمحافظة عليها وتعاهد ما تقول وتفعل فيها.

قال الله تعالى:

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.⁶⁴

ورد الأمر لموسى عليه السلام في خطاب يقرر توحيد الله وعبادته وإقامة الصلاة لذكره. يحملنا هذا الاتصال إلى معرفة قدر الصلاة: لها صورة معلومة نتعلمها، وفيها ذكر ومناجاة واستجابة. ليست بحثًا عن إحساس منفصل عن الحكم، ولا حركة نستغني بها عن تعاهد القلب.

وتفتح الفاتحة معنى المناجاة في الصلاة. تقرأ كلام الله الذي علمك أن تثني عليه وتسأله، ويخبرك رسوله ﷺ بما يقوله ربك عند قراءتك. ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمَدَنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي. فَإِذَا قَالَ: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ».⁶⁵

الصلاة المذكورة في هذا السياق هي قراءة الفاتحة، وما فيها من ثناء وسؤال. يبين ابن باز أن صدها ثناء على الله

65 حديث صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، حديث 395، عن أبي هريرة رضي الله عنه. المنقول هو النص القدسي كاملاً في الرواية التي أولها: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج»، وبلغها: «وقال مرة فوض إلي عبدي». وما قبل النص القدسي من السؤال عن القراءة خلف الإمام له موضعه الفقهي، ولم يدخل في هذا الاقتباس.

وتمجيد له، وأنها تعلم العبد إفراده بالعبادة والاستعانة وسؤاله الهداية.⁶⁶ تقرأها وأنت تعلم أن الله يسمعك، وتؤمن بجوابه الذي أخبر به نبيه ﷺ. وهذه المعرفة تغنيك عن تخيل مشهد أو انتظار صوت؛ فطريقك إلى هذا الغيب خبر صادق، وطريقك إلى العبادة اتباع ما شرع لك.

يبدأ الحمد بتوجيه النظر إلى الله. قد تدخل الصلاة وقد امتلاً ذهنك بما ينقص يومك، فتقرأ أن الحمد لرب العالمين. في تلك البداية مجال لتتذكر أن معرفتك به أوسع من حاجتك العاجلة: ربك محمود بما له من الكمال، وله الفضل في الموجود الذي تنتفع به والمطلوب الذي ترجو تيسيره. لا تمحو العبارة ألمك ولا تلزمك إنكاره؛ تعيد حاجة صغيرة من حاجاتك إلى موضعها في حياة يغمرها إحسان لا تستطيع إحصاءه.

ثم تقرأ اسمي الرحمن الرحيم، فتثني على ربك بما أخبر عن نفسه. تتوجه إلى رحيم وأنت تسأله أن يهديك ويغفر لك. وبعد ذكر الرحمة يأتي تعظيم مالك يوم الدين، فيحضر اليوم الذي تلقاه فيه وتجازى على عملك. تتجاوز في هذه القراءة الرحمة والحساب؛ فينفتح الرجاء، وتبقى للقول والفعل

66 عبد العزيز بن عبد الله بن باز، «تفسير سورة الفاتحة وحكم قراءتها في الصلاة»،
التفريغ المنشور في موقعه الرسمي، مقطع تفسير حديث «قسمت الصلاة».

تبعتهما. محبة الله التي يصحبها هذا العلم تعينك على أن ترجو كرمه، وأن تستعد للقاءه بطاعة تحفظ بها ما أمرك.

وعند العبادة والاستعانة تتضح جهة القصد: له وحده تتعبد، وبه تستعين. يشرح السعدي أن تقديم «إياك» يفيد تخصيص الله بذلك، وأن العبد محتاج إلى إعانتته في فعل الأوامر وترك النواهي.⁶⁷ تقول ما يدل على عزمك وافتقارك معًا. ليست الاستعانة اعتذارًا عن العمل، كما أن إقبالك على العبادة لا يعني أنك استغنيت عن التوفيق. تؤديها بما أعطاك من قدرة، وتسأله أن يعينك على حسن أدائها.

وفي هذا الموضع يتهيأ القلب للسؤال الذي تختتم به السورة: الهداية إلى الصراط المستقيم. أنت بحاجة إلى معرفة الحق والعمل به، وتحتاج إلى بقائهما مع تغير المسائل والمواقف. قد تعرف أصل الصدق ثم تعرض لك واقعة يختلط فيها الواجب بالمجاملة، أو تعرف العدل ثم تميل مع من تحب. سؤال الهداية يصحب هذه الحاجة المتجددة؛ تطلب من الله أن يبين لك ما تعمل، وأن يعينك على اتباعه حين يخالف هواك.

67 عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير الفاتحة: ٥.

ويبين آخر السورة أن الهدى طريق للمنعم عليهم، وأن الخل يقع بترك الحق بعد معرفته أو بفقد العلم به؛ وهذا من المعاني التي يذكرها السعدي في تفسيرها.⁶⁸ لذلك لا يكتفي المحب بحسن إرادته إذا جهل العمل، ولا بمعرفته إذا أعرض عن اتباعها. قد يكون إصلاحه سؤالاً يتعلم به، وقد يكون اعترافاً بحق عرفه ثم تناقل عنه. في صورتين تحتاج المحبة إلى الهداية التي يكرر سؤالها في صلاته.

تلك معرفة تصحب ألفاظ الفاتحة دون أن تزاحمها بكلام تنشئه داخل القراءة. تذكر مرادها حين تقرأها: ثناء على ربك، وإقرار بعبادته، وافتقار إلى عونه، وسؤال لهداية تحتاجها. وحين تفهم هذا الاتصال، تجد أن الصلاة تعيدك إلى الله بما علمك من الكلمات؛ تحمل حاجتك إليه، وتتعرف إلى فضله، وتقوم بين يديه عبداً يحب أن يحسن عبادته.

في التهيؤ للصلاة مجال يسير للعناية. تنهي ما تستطيع إنهاءه، وتخفف ما يقاطعك، وتعرف ما يلزم لطهارتك ووقتك. لا تجعل التهيؤ طقوساً من عندك أو شروطاً لا تبدأ الصلاة دونها؛ إنما هي وسائل تساعد بحسب حالك. قد لا تسكن

68 عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير الفاتحة: ٧؛ النص الرقمي المقابل في مشروع المصحف الإلكتروني بجامعة الملك سعود.

أشغالك كلها، ومع ذلك تؤدي الفرض وتستعين بالله على حضورك.

ومن أنفع ما تقرّب به المعنى أن تفهم كلمات الصلاة. تقرأ تفسير الفاتحة، وتعرف ما ورد في التسبيح والتشهد، وتتعلم ألفاظ الدعاء الصحيح. لا تحتاج إلى جمع شرح طويل في أثناء كل ركعة، بل إلى معرفة تصحك ويستعيدها القلب حين يغفل. إذا عرض سؤال في الحكم، تعلمه خارج الصلاة من مصدره، ثم طبق ما فهمت.

وقد يشغلك خاطر، فتعود إلى موضعك من العبادة. لا يلزم أن تصف كل شرود بأنه كذب في المحبة، ولا أن تستسلم له لأنه يتكرر. جاهد ما تملك، وأصلح سببًا قريبًا، وتعلم أحكام ما يكثر وقوعه عندك من وسوسة أو سهو. للمسألة الفقهية جوابها، وللحضور القلبي مجاهدته؛ فلا تخلط بينهما حتى تتعقد عليك العبادة.

ومن أثر الصلاة أن يجد يومك موعدًا يتكرر للرجوع إلى الله. تحمل معنى الاستجابة إلى ما يليها: أمانة تنجزها، أو لسان تحفظه، أو وعد تفي به. وتعاهد هذا الاتصال بين العبادة والمعاملة عمل مستمر، يحتاج إلى مجاهدة تتجدد بعد كل صلاة.

وفي تعليم الصلاة تحفظ المحبة الرحمة والجدية معًا. تبين ما يصح الفعل، وتعطي المتعلم قدرًا يفهمه، ولا تجعل جهله مناسبة للسخرية. من أحب أن يعبد الله على بصيرة احتاج إلى سؤال، وقد يكرر السؤال حتى يستقر الفهم. تستطيع أن تعينه أو تدله على من يحسن البيان، مع الاعتراف بما لا تعلم. حين تسمع النداء، تذكر ما تقوم له: عبادة الله وذكره. أد الصلاة في وقتها على وجهها، وتعلم ما ينقصك، واسأل الله قلبًا أصدق في التوجه إليه.

٣٢ | أن تسأل الله محبته

تضع خطوات للقراءة والعبادة، ثم قد يغيب عنك أن تسأل الله صلاح القلب الذي تسعى إليه. السبب يحتاج إلى توفيقه، والخطوة تحتاج إلى إعانتة. فاجمع السعي إلى الدعاء، وسل ربك أن يرزقك محبته ومحبة ما يرضيه.

تقدم قوله تعالى في إجابة دعوة الداعي، وما ختم به من الاستجابة والإيمان.⁶⁹ وفي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه الطويل، جاء هذا الدعاء على لسان النبي ﷺ:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةَ قَوْمٍ فَتَوَقَّفَنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ، أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَيَّ حُبَّكَ».⁷⁰

يجمع هذا الدعاء سؤال المحبة والعمل الذي يقرب إليها: فعل الخير، وترك المنكر، ورحمة المساكين، وطلب المغفرة والثبات.

69 القرآن الكريم، البقرة: ١٨٦؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.
70 حديث حسن صحيح: أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة ص، حديث ٣٢٣٥، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه. قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، ونقل عن محمد بن إسماعيل البخاري الحكم نفسه. المنقول فقرة الدعاء بنصها من حديث طويل، لا الرواية كلها. المقابلة على النص الإلكتروني للأصل؛ لم تنبت هنا صفحة طبعة ورقية بعينها.

فنحن نسأل الله محبته، ونستعين به على الأسباب التي يحبها. وهذه فقرة الدعاء بنصها من الحديث، وليست نص الرواية الطويلة كله.

حسن السؤال يبدأ بمعرفة المطلوب. لا تطلب مجرد شعور تستمتع بوصفه، ثم تبقى على اختيار تعلم مخالفته. سل قلبًا يحب الله، واستجابة لما أمر، وقدرة على ترك ما نهى، وعلمًا يعينك عند الالتباس. وإذا كنت تعاني من تقصير محدد، تستطيع أن تسأل عونًا على إصلاحه، ثم تبدأ بأسبابه المتاحة. وقد يقال: إذا كانت المحبة من الله، فما الذي أملكه؟ تملك أن تعمل بما علمت، وأن تتعلم ما جهلت، وأن تسأل التوفيق، وأن تتوب من الذنب. لا تملك الحكم على قبول عملك أو إحاطة بما في قلبك؛ وهذا لا يسلبك مسؤولية السعي. يجمع الدعاء بين اعترافك بالحاجة واستعدادك للاستجابة، فيخرج الرجاء من الأماني إلى طريق له عمل.

ومن أدب السؤال أن تبقى في دائرة المعاني الصحيحة. لا تدعو بأن تبلغ مقامًا يعفيك من التكليف، أو بأن تكون لك معرفة غيب لا يثبتها الشرع، أو بأن يطيعك الناس لأنك ترى نفسك أصلح. محبة الله تحمي من هذه المطالب؛ ترغب فيما يرضيه، وتدع للناس حقوقهم واختياراتهم، وتسأل أن يبعدك عن ظلمهم باسم الخير.

ومن الدعاء ما تجمعه كلمات قليلة تعلمت ثبوتها ومعناها. ولك أن تعبّر عن حاجتك بكلام مباح واضح، مع التفريق بين الدعاء المأثور وما تنشئه أنت. وإذا نشرت صيغة من إنشائك فبيّن ذلك، ولا تنسب إليها فضلًا مخصوصًا أو عددًا يطالب الناس به.

قد تدعو ثم تجد فتورًا في اليوم التالي. حافظ على الفرض، وراجع تقصيرًا عرفته، وواصل السؤال. لا تجعل الشعور الذي تخيلته اختبارًا لقبول دعائك؛ فقد ترى خيرًا في عمل صار أيسر أو خطأ انتبهت إليه، وقد يغيب عنك كثير مما لا تحيط به. اشكر ما ظهر من توفيق، وابق مفتقرًا إلى الله فيما تسعى إليه.

وفي دعائك للناس تتسع المحبة إلى خير ترجوه لهم. تسأل الهداية لمن تعلمه، والرحمة لمن فقدته، والصالح لأهل بيتك، مع أداء ما يلزمك من أسباب وحقوق. الدعاء لا يبذل اعتذارًا. ينبغي أن تقوله أو مساعدة تستطيع تقديمها في موضعها. اجمع السؤال والعمل بقدر القدرة؛ فمن صدق حاجتك إلى الله أن تستعين به على الخير الذي تعرف كيف تبدأه، وأن تترك له ما لا يبلغه علمك ولا قدرتك.

الباب الخامس: ما تصنعه المحبة بالناس

٣٣ | أخ تحبه لله

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ أَيُّنَ تُرِيدُ قَالَ أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا قَالَ لَا غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحَبَّتُهُ فِيهِ».⁷¹

خرج الرجل إلى أخيه محبة لله، وسؤال الملك يكشف باعث هذه الزيارة. ومعنى «تَرُبُّهَا» أن تقوم بإصلاح النعمة ورعايتها؛ فسأله هل له على أخيه إحسانٌ يتعاهده ويقوم عليه، فنفى ذلك، وبيّن أن باعث زيارته محبته له في الله.

في الحديث بشارة بفضل المحبة في الله، وترغيب في صلة المؤمنين لأجلها. نرجو هذا الفضل ونحن نتعاهد قصدنا، ونؤمن بخبر الملك الذي رواه النبي ﷺ، دون أن ندعي وقوع مثله لنا.

71 حديث صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب في فضل الحب في الله، حديث ٢٥٦٧، عن أبي هريرة. ومعنى «تَرُبُّهَا»: تقوم بإصلاحها وتنهض إليه بسبب ذلك؛ النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، الكتاب والباب نفسيهما، شرح حديث ٢٥٦٧؛ مقابلة نصية إلكترونية.

وفي يومنا صور يسيرة لهذه المحبة. تتذكر صديقًا انقطع خبره فتسأل عنه دون طلب لاحق. تزور مريضًا لأنك تريد مؤانسته، وتراعي وقت راحته بدل أن تطيل الزيارة لإرضاء شعورك أنت. تفرح بخير أصاب أخاك، وتدعو له وإن لم يطلع على دعائك. هذه أمثلة مقترحة للتطبيق، وليست وقائع من القصة النبوية.

وليست المحبة لله مانعة من تبادل المنافع المباحة. لا يدل الخبر على أن كل صداقة فيها تعاون أو هدية أو قضاء حاجة صارت فاسدة. السؤال عن أصل هذه الزيارة وباعثها، ولا نوسع حكم القصة حتى نحرم ما لم تحرمه. قد تجمعك بأخيك قرابة وعمل ومعروف، وتحب فيه مع ذلك إيمانه وخيره؛ وتحتاج إلى الصدق مع نفسك حين تختلط الدوافع، لا إلى تفتيش قلوب الآخرين.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا.
أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ
بَيْنَكُمْ».⁷²

72 حديث صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان وأن إفشاء السلام سبب لحصولها، حديث ٥٤، عن أبي هريرة.

يفتح إفشاء السلام بابًا ظاهرًا للمحبة. يبدأ المرء بتحيةة يشيعها بين الناس، فيتعلم آدابها ويراعي أحوالهم، ويؤدي حقها من غير تكلف أو اقتحام لخصوصياتهم.

وتحتاج المحبة إلى مراعاة ظروف من تحب. قد يتأخر جوابه أو يتعذر لقاؤه لمسؤولية لا تعرفها؛ فاسأل عنه دون محاكمة، واترك له مجال الاعتذار. وإذا آذاك أمر متكرر فناقشه بصدق، بدل أن تجعل كل موعد اختبارًا لمكانتك عنده.

ثم إن المحبة لا تلغي النصيحة. إذا وقع من أخيك ظلم، لم يكن من الوفاء أن تستر الحق حتى يضيع صاحبه. تنصحه بما تعلم، وتعيّنه على رد المظلمة، وتحفظ من كرامته ما تستطيع مع أداء الواجب. هكذا تبقى المحبة عونًا على الخير الذي نشأت من أجله، ويجد فيها الطرفان باب إصلاح ورحمة.

٣٤ | فرحك بخير أخيك

أخبرك قريب بنجاح انتظره طويلاً. ابتسمت له، ثم وجدت في نفسك سؤالاً مؤلماً: لماذا تيسر له ما تعسر عليّ؟ قد يمر السؤال وينقضي، وقد تمسك به حتى تبدأ في تصغير نجاحه. الفرق يظهر فيما تختار بعده: تهنئة صادقة، أو بحث عن عيب يرد صاحب النعمة إلى مستوى ترتاح إليه.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ».⁷³

بيّن ابن باز في شرح الحديث أنه من كمال الإيمان وتمامه أن يحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه من الخير.⁷⁴ والحديث يربي رغبة القلب، ثم يحملها إلى المعاملة. أحب لنفسك هداية وصحة ورزقاً طيباً وسمعة تستحقها؛ فليكن لأخيك نصيب من هذه الرغبة، وإن لم تعد عليك منفعة مباشرة.

لا يعني ذلك أن تتمنى للجميع الصورة نفسها التي اخترتها لحياتك. قد يناسبك عمل لا يناسب أخاك، وقد يكون الخير له

73 حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث ١٣، عن أنس بن مالك.

74 عبد العزيز بن عبد الله بن باز، شرح رياض الصالحين، الدرس ٨٩ «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا»، شرح حديث أنس «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، تفريغ الدرس المنشور في موقعه الرسمي.

في بلد أو دراسة لا تحبها لنفسك. تحب له ما ينفعه، وتسمع حاجته، وتدع له مجال الاختيار المباح. الرحمة تتسع لاختلاف الناس، وتستطيع أن تفرح بنجاح لم تكن ستختاره أنت.

وليس كل ألم عند رؤية نعمة غيرك تمنياً لزوالها. قد تستيقظ به حاجة قديمة: ترغب في الزواج، أو تتمنى ولدًا، أو تنتظر رزقًا. اعترف بحاجتك واسأل الله فضله، ثم احفظ حق صاحب النعمة. إذا تمنيت خيرًا مثله من غير أن يزول عنه، فقد فتحت لرغبتك طريقًا مختلفًا عن إيذائه. أما الدعاء عليه أو التقليل منه أو تعطيل مصلحته فاختيارات تحتاج إلى كف وإصلاح.

في العمل، قد يترشح زميل لمنصب كنت ترجوه. تستطيع أن تطلب بيان معايير القرار بالطريق المناسب إذا وجدت خللاً، وأن تطور ما تحتاج إليه. وتستطيع في الوقت نفسه أن تحفظ حق زميلك، فلا تنسب إليه عيبًا لا تعلمه، ولا تحجب عنه معلومة لازمة لإنجاز عمله. المطالبة بالإنصاف والفرح بخير الآخر يمكن أن يجتمعا؛ لا يلزم أن تترك أحدهما لتثبت الآخر.

ومن صعوبة هذا الباب أن الضرر قد يلبس ثوب النصيحة. تقول عند كل نجاح: أخشى عليه، ثم تذكر من عيوبه ما لا

يحتاجه السامع. اسأل نفسك عن ضرورة الكلام ودليله ومن ينتفع به. إن كان ثمة خطر حقيقي، فله مخاطب مناسب ونصيحة محددة؛ وإن كنت تبحث عن راحة من المقارنة، فلا تجعل عرض أخيك وسيلتها.

وتظهر المحبة في نسبة الجهد إلى صاحبه. إذا انفرد زميل بعمل فاذكر فضله كما هو، وإذا اشركتم فاحفظ لكل واحد نصيبه. تستطيع أن تبين ما أنجزت أنت دون أن تقلل مما أنجز غيرك؛ فالاعتراف بفضله يخرج رغبتك في الخير له من الشعور إلى كلمة حق.

وحين تشتد المقارنة، راجع ما تعرضه على نفسك طوال اليوم. قد تتابع صور النجاح المتتابعة، ثم تقيس حياتك بما غاب عنك من حياة أصحابها. تخفيف هذه المتابعة وسيلة لتنظيم انتباهك، لا حكم على الناس ولا فضيلة مخصوصة. ارجع إلى حاجتك الفعلية: ماذا أريد؟ وما السبب المباح الذي أقدر عليه؟ بهذا يصير وقتك أقرب إلى العمل من مراقبة ترتيبك بين الآخرين.

وقد يتأخر صفاء الفرح لأخيك. ابدأ بكف الضرر، وقل كلمة حق، وادع له بخير. هذه أفعال تختارها وتستعين بالله على إصلاح ما وراءها؛ فلا تتكلف حماسًا تستر به حالك عن نفسك، ولا تسمح لثقل الشعور أن ينقلب ظلمًا.

وفي الأسرة يحتاج هذا المعنى إلى عدل في التربية. لا تجعل نجاح طفل توبيخًا دائمًا لأخيه، ولا تقارن زوجًا أو زوجة بما يظهر من حياة بيت آخر. امدح الخير في موضعه، وساعد كل شخص على خطوة تناسبه. يمكن للأسرة أن تحتفل بنجاح واحد منها من غير أن تصنع من الباقين خاسرين.

إذا سمعت غدًا خبرًا حسنًا لمن تتعثر محبتك له، توقف قبل التعليق. اختر كلمة صحيحة تحفظ حقه، واسأل الله لك وله الخير. إن احتجت إلى وقت لتستوعب ألمك، فخذ به بعيدًا عن إيذائه. ومن هنا يتسع القلب شيئًا فشيئًا: يظل له طلبه ورجاؤه، ويترك لنعمة أخيه أن تكون نعمة.

٣٥ | أن تنصح من تحب

قد يخبرك صديق بخطة تراه يغفل فيها عن حق أو خطر. يسألك عن رأيك، وأنت تعرف أنه ينتظر الموافقة. هنا يصعب الوفاء: تخشى أن تؤذيه بكلمة صادقة، وتخشى أن تخذله بكلمة مريحة. المحبة تعينك على البحث عن جواب يحفظ الحقيقة ويحترم من يسمعها.

عن تميم الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«الدِّينُ النَّصِيحَةُ». قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ
وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ».⁷⁵

شرح ابن باز النصيحة بالإخلاص والصدق والعناية بأداء الحق من غير غش أو خيانة.⁷⁶ فهي أوسع من ملاحظة توجهها إلى خطأ شخص آخر. تنصح في عبادتك باتباع ما أمر الله به، وفي صلتك بالقرآن بتعلمه والعمل به، وفي تعاملك مع الناس بطلب خيرهم وأداء حقوقهم. ومن هذا المعنى يأتي الكلام النافع، حين يقوم على علم وقصد إصلاح.

75 حديث صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، حديث ٥٥، عن تميم الداري.

76 عبد العزيز بن عبد الله بن باز، جواب «شرح حديث: الدين النصيحة»، تفريغ الجواب المنشور في موقعه الرسمي.

لذلك يبدأ الناصح بالتثبت. ما الذي أعرفه مباشرة، وما الذي سمعته من طرف واحد؟ هل الأمر مخالفة معلومة، أم اختيار مباح يخالف ذوقي؟ إذا كانت المسألة تحتاج إلى فتوى أو خبرة، فلا تملأ نقص علمك بقوة العبارة. يمكنك أن تقول: لا أعلم حكم هذه الصورة، لنسأل من يحسنها. وقد تكون هذه الجملة أنفع من جواب يطمئن صاحبه ساعة ثم يوقعه في خطأ.

وقد تحتاج أولاً إلى فهم السبب. صديق تأخر عن موعد يتكرر، أو قريب انسحب من مسؤولية مشتركة. بدل أن تبدأ بوصف طبعه، اسأل عن الواقعة وحدد أثرها. ربما ظهر عذر يحتاج إلى تعديل الاتفاق، وربما أقر بتقصير يحتاج إلى إصلاح. في الحالين تحصل على معرفة تعين على جواب مناسب، ولا تحكم على السريرة من سلوك ناقص البيان.

ثم اختر كلاماً يمكن العمل به. قولك «أنت لا تبالي بأحد» يتهم الشخص كله، أما قولك «تأخر الجواب أوقف هذا العمل، ونحتاج إلى موعد نعتمد عليه» فيصف أثراً محدداً ويطلب إصلاحاً معلوماً. هذه صورة تطبيقية للفارق بين اتهام الشخص ومناقشة فعله.

الرفق لا يلزمك أن تسمي الظلم اختلافاً في وجهات النظر. إذا وقع اعتداء، فحفظ الحق مقدم على راحة العبارة، مع مراعاة

الوسيلة المناسبة والصلاحية. قد تكون النصيحة جزءًا من الإصلاح، وقد يحتاج المتضرر أيضًا إلى حماية أو إلى جهة تستطيع رفع الضرر. لا تطلب منه السكوت ليحافظ المعتدي على صورته، ولا ترد الأمر كله إلى حوار لا يأمن فيه على نفسه.

وفي المواقف المعتادة، يساعد الحديث الخاص على أن يسمع صاحبك قبل أن ينشغل بالدفاع عن كرامته أمام الناس. تذكر الفعل الذي تريد إصلاحه، وتبين ما تعرف، وتساءل عن الخطوة التالية. أما الخطأ المعلن الذي يضل الآخرين فقد يحتاج إلى تصحيح يصل إليهم. تتحدد طريقة البيان بقدر المصلحة والحاجة، لا برغبتك في إظهار مهارتك أو بإصرار على قالب واحد لكل موقف.

ومن أدب النصيحة أن تفرق بين حق السامع في الفهم ورغبتك في الطاعة لك. إذا كان الاختيار مباحًا، جاز أن يختار غير ما اقترحت. وإذا خالف في مسألة تحتاج إلى علم، فارجعوا إلى أهلها. أما أن تحوّل كل اختلاف إلى امتحان للمحبة، فذلك يثقل الصلة بما لم يلزمها. قد يقول لك من تحب: فهمت رأيك، وسأراجع الأمر؛ فتمنحه فرصة المراجعة بدل أن تطالبه بنتيجة في اللحظة نفسها.

وقد يكشف الحوار خطأ في نصيحتك أنت. كن مستعدًا لتصحيحه بوضوح: هذه المعلومة لم تكن كاملة، أو هذا الحكم نقلته على صورة غير صورتك. الرجوع لا يسقط مكانتك؛ يحفظ الأمانة التي من أجلها تكلمت. ومن أحب الخير لأخيه أحب أن يصل إليه البيان الصحيح، ولو جاء على لسان غيره.

وأنت من أهل هذا الباب حين ينصحك غيرك. لا يلزم أن تقبل دعوى بلا دليل، لكن اسمع معناها قبل أن تحاكم أسلوب صاحبها وحده. قد يجتمع في كلامه حق يحتاج إلى أخذ وعبرة تحتاج إلى تهذيب. تستطيع أن تعترف بالأول وأن تناقش الثانية. وإذا كان الكلام جارحًا أو متكررًا على وجه مؤذ، فضع حدودًا مناسبة، من غير أن تجعل أذى الناصح دليلًا على صحة الخطأ المنصوح عنه.

المحبة التي تقبل النصيحة تترك في العلاقة بابًا للصدق؛ يعرف الطرفان أن الخطأ يقبل المراجعة، وأن الرجوع عنه يجد عونًا يحفظ الكرامة. فإذا نصحت، فاعرض عونًا تستطيع الوفاء به.

٣٦ | بيت يتسع للرفق

عن عائشة رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال:

«يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ».⁷⁷

حين نقرأ أن الله يحب الرفق، يصبح لحديثنا في البيت معنى يتجاوز حسن العشرة وحده. نطلب خلقًا يحبه ربنا، ونرجو ثوابه ونحن نخاطب من اعتادوا أصواتنا. وقد شرح ابن باز أن الرفق يصحب المؤمن في إصلاحه ونصيحته ومعاملته لأهل بيته وجيرانه.⁷⁸ فالبيت من أقرب مواضع هذا العمل، وفيه يعرف الإنسان أثر طريقته معرفة لا تمنحها له مجاملة العابرين.

قد يدخل أحدنا البيت وقد استنفد صبره في العمل. يسلم، ثم يسمع سؤالاً بسيطاً فيجيب بحدة لا يستحقها السؤال. التعب يفسر شيئاً مما وقع، لكن أهله لم يصنعوا كل ما أتعبه. يستطيع أن يذكر حاجته بوضوح: أحتاج إلى قليل من الراحة

77 حديث صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، حديث ٢٥٩٣، عن عائشة رضي الله عنها؛ اللفظ المبدوء بـ«يَا عَائِشَةُ».

78 عبد العزيز بن عبد الله بن باز، شرح رياض الصالحين، الدرس ٢١٧ «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف»، الشرح المنشور في موقعه الرسمي.

ثم أسمعك. بهذه العبارة يعطي تعبه حقه، ويحفظ لمن أمامه حق الكلام، بدل أن يجعل دخوله إعلانًا بأن على الجميع الانكماش.

وللرفق مادة أوسع من خفض الصوت. أن تشرح ما تريد قبل أن تؤاخذ على مخالفته، وأن تعطي المتعلم فرصة يفهم فيها، وأن تفرق بين نسيان عرضي واتفاق يتكرر الإخلال به. أحيانًا نطلب من أهلنا أن يحسنوا قراءة ما في نفوسنا، ثم نغضب لأنهم لم يعرفوا. بيان الحاجة عمل يسير، لكنه قد يرفع عن العلاقة حمل التخمين والعتاب الذي لا يعرف صاحبه سببه.

ينكسر كوب على يد طفل. يتعجل أبوه في وصفه بالإهمال، ثم يلاحظ أن الكرسي الذي وقف عليه غير ثابت. ما يحتاجه الموقف أولاً إبعاد الطفل عن الشظايا، ثم تنظيف المكان وتعليمه طريقة أسلم. يمكن للأب أن يصحح الفعل، وأن يحمل الطفل مسؤولية تناسب عمره، من غير أن يحول حادثًا واحدًا إلى حكم على شخصيته. هنا يخدم الرفق حقيقة التعليم؛ يرى الصغير ما يصلحه، بدل أن ينشغل بالخوف من الكلمة المقبلة.

ويظهر الرفق بين الزوجين حين تختلف القدرة على أداء مهمة. قد يكون ما يراه أحدهما قليلًا قد استغرق من الآخر جهده كله. يسمعان وصف اليوم، ثم يتفقان على توزيع أوضح، مع مراعاة الحقوق التي تلزمهما. حفظ المحبة يحتاج

إلى معرفة ما يقع فعلاً؛ فربما كان الخلاف على مسؤولية لم تحدث، أو على توقع لم يذكر، أو على تعب لم ينتبه إليه الطرف الآخر.

والكلمة الهادئة تحتاج إلى مضمون صادق. يستطيع الإنسان أن يتكلم بصوت منخفض، وهو يهدد أو يسخر أو يذكر كل معروف قدمه. رفق العبارة يظهر في احترام المخاطب، وفي ترك مساحة لجوابه، وفي طلب يمكن فهمه. إن قلت: هذا العمل تأخر ونحتاج إلى ترتيبه، فقد فتحت مسألة محددة. وإن جعلت الحديث حساباً لكل تقصير قديم، ضاعت المسألة بين دفاعين متعبين.

وقد يتطلب الرفق حزمًا في وقته. توقف عبثًا يعرض طفلًا للخطر، أو تمنع إهانة تتكرر، أو تطلب مساعدة ترفع أذى. يكون الطلب واضحًا، والوسيلة متناسبة، والحق محفوظًا. أما الاعتداء الذي يخشى معه الضرر، فليس امتحانًا يلزم المتضرر باجتيازه بالمزيد من اللين؛ يحتاج إلى حماية وعون مناسبين. حفظ هذه الحدود جزء من العناية بأهل البيت، ولا يمنح حديث الرفق أحدًا إذنًا بمعاقة الآخرين خارج ما يحق له.

ومن أجمل ما يعيد الطمأنينة اعتذار يحدد ما وقع. تقول: رفعت صوتي عليك، وكان يمكنني أن أبين حاجتي بطريقة أحسن. ثم تصلح ما تستطيع وتراجع السبب المتكرر. الاعتذار

الذي يعقبه استهزاء بالمتأذي يترك الجرح على حاله، والوعد الواسع الذي لا يتغير بعده شيء يضعف الثقة. خطوة صادقة يمكن الوفاء بها أنفع: وقت معلوم للحديث، أو توقف قصير عند اشتداد الغضب، أو ترتيب يخفف سبب النزاع.

الوسائل التي تصلح المعاملة تختلف باختلاف البيوت. اختر ما تستطيع الوفاء به، وأعط التغيير وقته؛ فأنت تصلح طريقتك وترجو ثواب الله، ويبقى للطرف الآخر اختياره ومسؤوليته.

ابدأ بالموقف الذي تكثر فيه حدثك، ثم عين ما يسبقه: تعب، أو غموض، أو استعجال، أو رغبة في أن يسير كل شيء وفق تصورك. أصلح سببًا تستطيع إصلاحه، واختر عبارة تحفظ الحاجة والكرامة معًا. وحين يسكن البيت قليلاً بعد ذلك، تذكر أن المحبة تنمو أيضًا في هذه التفاصيل التي لا يراها أحد خارج أهله.

٣٧ | حب لا يلغي العدل

قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا⁷⁹.

تذكر الآية صلات يشترط معها الميل: النفس، والوالدين، والأقربين. ويظل العدل واجبًا مع هذه المحبة كلها. يبين السعدي أن العدل يشمل الحقوق والأقوال والشهادة، وأن الميل إلى أحد المتنازعين لا يصلح أساسًا للحكم. فمن أراد خير من يحب حفظ له حقه، ولم يحمله حبه على ظلم غيره.

قد يتصل بك أخوك بعد خلاف في العمل، ويطلب أن تقف معه. تستطيع أن تسمع ألمه، وأن تعينه على عرض المسألة، وأن تدله على الطريق المناسب للمطالبة بحقه. ثم إذا طلب منك إثبات واقعة لم تشهدها، وجب أن تميز بين مساندته وبين القول بما لا تعلم. وفاؤك له يظهر في مساعدة تحفظ

79 القرآن الكريم، النساء: ١٣٥؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

صدقه وحق غيره؛ أما الكلام الزائد فقد يزيد عليه مشكلة كان يرجو الخروج منها.

ليس مطلوباً أن تنزع من قلبك محبة قريبك كي تنصف. المحبة الطبيعية قائمة، ويمكنك أن تعبر عنها وتبذل له المعروف المباح. ما يحتاج إلى ضبط هو أثرها في الحكم: هل صرت تستثني فعله من معيار تطبقه على الآخرين؟ هل تقبل منه دليلاً ترفضه من خصمه؟ حين تعرف موضع الميل تستطيع أن تراجع الطريقة، بدل أن تتوهم أنك فقدت القدرة على الإنصاف كلها.

خذ موقفاً متخيلاً من لجنة تختار شخصاً لعمل. أحد المرشحين صديق لعضو فيها، والعضو يعرفه في حياته الخاصة ويثق به. للمهمة شروطها المعلنة وأدلتها التي تفحص؛ فإذا كان يعرف معلومة نافعة قدمها بوضوح في موضعها الصحيح. وإذا كانت الصلة تؤثر في قراره أو توجب الإفصاح وفق نظام العمل، بين ذلك واتبع الإجراء المناسب. الصداقة لا تمنع كل تعاون، لكنها تحتاج إلى شفافية حين يدخل حق المتنافسين في الاختيار.

ومن الإنصاف أن تفرق بين ما تعلمه وما ترجحه وما تتمناه. تقول: رأيت هذا الجزء من الواقعة، وأما ما قبله فلم أشهده. وقد ترجح صدق قريبك لأسباب تعرفها، لكن الترجيح لا

يصير مشاهدة. وإذا أُحيل الأمر إلى من يملك الفصل فيه، قدم المعلومات كما هي واترك له عمله؛ فحماية المحبوب تبدأ أحياناً بتخليص روايته من زيادة أضافها المدافعون عنه.

ويصعب العدل حين يقدم الخطأ في صورة وفاء: أتقول هذا على أخيك؟ ألم يقف معك من قبل؟ المعروف السابق له حق الشكر، لكنه لا يغير حقيقة الواقعة الجديدة. تستطيع أن تحفظ إحسانه، وأن تعينه على إصلاح خطئه، وأن تكف عن فضحه فيما لا تدعو إليه حاجة. وحين يتوقف حق متضرر على بيان يلزمك، فالأمانة في البيان باقية؛ لا يدفع ثمن صلتكما شخص آخر.

الآية تتناول أداء الشهادة والقيام بالقسط، ولا تدعو إلى نشر أخبار الناس أو تتبع عيوبهم. لكل بيان موضعه ومخاطبه وحدود الحاجة إليه. من الإنصاف أيضاً أن تحمي من تحب من تهمة لا دليل عليها، وأن تطلب التثبت قبل اتخاذ إجراء بحقه. المحاباة التي تستر الظلم، والقسوة التي تستعجل اتهام القريب، كلاهما يبعدان عن العدل المطلوب.

وفي الخلاف الأسري قد يغلب التعاطف مع من حسن تعبيره عن ألمه. تسمع صوتاً حاضراً، وتغيب عنك رواية الطرف الآخر. إذا طلب منك التوسط، فاعرف حدود ما تستطيع، واسمع بالقدر المناسب، وحدد ما هو متفق عليه وما يحتاج

إلى تحقق. وحين يتبين خطر أو اعتداء، يتقدم رفعه إلى أهل
الصلاحية؛ فلا تحول طلب الإنصاف إلى تأخير لحماية لازمة.
أصعب مواضع الآية قولها: {وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ}. قد تعترف
أنك أخطأت في معلومة، أو أنك حملت رواية قريبك على
أحسن وجه وحملت رواية خصمه على أسوأ وجه. حين يظهر
ذلك، صح بقدر ما نشرت، وأعد إلى الطرف الآخر حقه في
البيان. المحبة لله تعينك على احتمال هذا النقص في
صورتك؛ لأن الحق الذي تطلبه أوسع من نجاحك في كل
حوار.

إذا وجدت نفسك مدافعاً، فاسأل عن الواقعة التي تستطيع
إثباتها، وعن المعيار الذي ستستعمله لو كان الفاعل بعيداً
عنك. ثم قدم لمن تحب عوناً مباحاً لا يحمل ظلماً لغيره. قد
يشق عليه صدقك أولاً، لكنك تحفظ له طريق الإصلاح،
وتحفظ لمحبتك أن تبقى صلة خير.

٣٨ | أن تزور بلا غرض خفي

في زيارة المحبة سؤالان: ما الذي يدعوك إلى صاحبك، وكيف تدخل حياته؟ تقدم أصل الباعث في خبر الرجل الذي زار أخاه لله. وهنا ننظر إلى الزيارة نفسها؛ فقد يكون الشوق صادقًا، ثم يحتاج صاحبه إلى أن يتعلم كيف يحفظ وقت المضيف وخصوصيته، وكيف يخرج من مجلسه وقد ترك راحة بدل أن يترك عبثًا.

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.⁸⁰

يبين السعدي أن الاستئذان يحفظ ما تستره البيوت، وأن الرجوع حين يطلبه صاحب المنزل ليس حرمانًا من حق واجب للزائر. تستطيع أن تحب اللقاء، وأن يكون تأجيله حقًا

80 القرآن الكريم، النور: ٢٧-٢٨؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآيتين.

لمن تزوره. حين تقبل هذا المعنى، تصبح المحبة أقدر على احتمال كلمة «اليوم لا يناسبني» من غير أن تحولها إلى خصومة.

الاتفاق قبل المجيء يعين على اختيار وقت مناسب، وتختلف فيه أعراف الأسر والأصدقاء. احرص على إذن واضح وراع تغير الحال؛ فقد يعرض لصاحبك ما يمنعه من موعد وافق عليه أمس. وما تكلفته في الطريق يدعو إلى التنسيق، ولا يسلبه حق الاعتذار.

يعرف رجل أن صديقه يستطيع تعريفه بجهة عمل. يريد زيارته ويسعد بصحبته فعلاً، وفي نفسه أيضاً طلب التعريف. يستطيع أن يبين حاجته، وأن يفصلها عن حق الصداقة: أحب لقاءك، ولي طلب إن استطعت النظر فيه. فإن اعتذر بقيت الصلة على أصلها. اجتماع المنفعة المباحة والمحبة ممكن؛ ما يفسد المعاملة هو الغش أو المن أو مطالبة الآخر بثمن لم يتفق عليه.

والهدية تحتاج إلى المعنى نفسه. تقدم شيئاً يناسب صاحبك وقدرته على قبوله، ثم تترك له الانتفاع به. إذا صرت تذكرها كلما تأخر عن خدمتك، حملتها وظيفه أخرى. وربما كان ما يحب أخذه بسيطاً، وما يثقل عليه رد مكافأته كبيراً. سؤال

لطيف عن حاجته قد يجعلك أقدر على إكرامه من اختيار يراد به إبهاره.

ومن أدب الزيارة أن يبقى البيت بيت أهله. ما أذنوا لك في رؤيته لا يفتح بقية المواضع، وما حكوه في مجلس خاص لا يصبح مادة تنقلها إلى غيرهم. وكذلك الصور والتسجيلات تحتاج إلى رضا أصحابها والضوابط الشرعية التي تحكمها. هذه تطبيقات معاصرة لحفظ الخصوصية، وليست ألفاظاً من الآيتين؛ يجمعها أن الصلة تمنحك أمانة فيما اطلعت عليه، لا ملكاً تتصرف فيه كيف تشاء.

وتراعي في مدة اللقاء حال صاحبك، لا مقدار شوقك وحده. قد تراه يجاهد النوم، أو يتابع حاجة طفل، أو يستعد لعمل مبكر. تعرض الانصراف بوضوح، وتختار وقتاً آخر إن رغب فيه. ليس لكل زيارة عدد دقائق ثابت؛ الذي ينفع هو انتباه يجعل الإكرام متبادلاً. وحين تحتاج إلى إطالة الحديث في شأن مهم، اسأل هل يتسع الوقت له، بدل أن يبدأ موضوع لا يمكن قطعه عند الباب.

للصلة صور أخرى إذا تعذر اللقاء: رسالة مناسبة، أو دعاء، أو مساعدة رضي بها صاحبها. وقد يحتاج قريب إلى زيارة أو رعاية واجبة بحسب حاله وصلة الرحم، فلا تجعل المرونة في المواعيد سبيلاً إلى ترك ما يلزمك. تعلم الواجب في صورته،

ونسق الوسيلة التي تؤديه بها. موضوع هذا الفصل زيارة معتادة بين محبين، لا تفصيل كل أحكام الضيافة والقرابة والطوارئ.

وللمضيف نصيبه من حسن الصلة: يبين قدرته، ويعتذر بوضوح، أو يقترح موعدًا يستطيع الوفاء به. وإذا وقع سوء فهم ناقشه في حجمه، حتى يبقى اللقاء رغبة مشتركة يسهل ترتيبها.

اذهب إلى من تحب ومعك رغبة في خيره، ووقت تستطيع بذله، وقدرة على سماع حاجته. وإذا عدت قبل أن تدخل، فدع للرجوع معناه الذي ذكره الوحي: أدب يزكي صاحبه. تبقى المحبة أوسع من مجلس واحد، ويبقى بابها مفتوحًا للقاء يأتي في وقته.

٣٩ | إخوة لا تجمعهم المنفعة وحدها

قد تعرف معنى الصحبة الصالحة، ثم تبقى صلتك بالناس محصورة في من يشبهونك في العادة أو ينفعونك في حاجتك. في الإيمان سبب أوسع للمحبة؛ ترى مسلمًا لا تعرف اسمه فتطلب له الخير، وتحفظ حقه، وتفرح باستقامته. لا تحتاج كل صلة إلى مصلحة متبادلة كي يكون لها وزن.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.⁸¹

تقرر الآية أخوة المؤمنين، وتأمّر بالإصلاح والتقوى. ليست الأخوة شعورًا تدعيه ثم يزول عند أول اختلاف؛ لها عمل تحفظ به الحق وتطلب الصلح. ولا تجعل كل خلاف بسيط مناسبة لإسقاطها عن أحد أو اتهامه في إيمانه. حكم الفعل وحق الشخص يراجعان بميزان العلم.

قد لا ترتاح إلى طبع مسلم تعرفه، ومع ذلك تحفظ له سلامًا وصدقًا وإنصافًا. ليس المطلوب أن تمحو اختلاف الطباع أو أن تصير كل العلاقات حميمة. يحب المؤمن الإيمان والخير

81 القرآن الكريم، الحجرات: ١٠؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

في أخيه، ويراعي حقوقه، ويختار من القرب ما يناسب الحال. من الواضح أن تفرق بين محبة الخير لشخص وبين رغبتك في مشاركته جميع ساعاتك.

وفي الإصلاح بين اثنين تبدأ بمعرفة ما تملك من دور. تسمع ما يلزم، وتثبت، وتحفظ الخصوصية، ولا تعد الطرفين بنتيجة لا تستطيع فرضها. قد يكون الخلاف سوء فهم يمكن توضيحه، وقد يكون حقًا ضائعًا يحتاج إلى رده، وقد يكون ضررًا يستلزم جهة تقدر على رفعه. لا تختصر الأنواع كلها في مطالبة المتضرر أن يتجاوز لأن الجميع إخوة.

كما يحتاج الصلح إلى حفظ الحقوق. لا تنسب إلى شخص تنازلًا عن حقه أو موافقةً على التزام لم يأذن به؛ فرخصة الإصلاح بين الناس لا تبيح إضاعة الحقوق. ولا تلغ موضوع الخلاف بإطراء عام. يمكنك أن تذكر من الخير ما تعلمه، وأن تقترح خطوة مأمونة، وأن تدعو إلى بيان واضح. المعالجة التي تحفظ الحق أقدر على البقاء من راحة ساعة بنيت على إخفائه.

وتظهر الأخوة خارج دائرتك القريبة. تحتاج جهة موثوقة إلى معونة لمحتاج، أو يصل إليك خبر مسلم أصابه ألم. تستطيع أن تدعو له، وأن تعين بما تقدر عليه من طريق صحيح، وأن تثبت من الطلب قبل المشاركة. لا يلزم أن تحمل نفسك كل

أوجاع العالم لتثبت المحبة، ولا أن تجعل عجزك عن بعض العون عذراً للكف عن الذي تستطيعه.

وعند الاختلاف في مسائل اجتهادية، احفظ للعلم مكانه. قد يتبع أخوك قولاً معتبراً تعلمه من أهل العلم، وقد تكون أنت على قول آخر. ارجع إلى البيان فيما يشكل، وتعلم أدب الخلاف، ولا تجعل أذواق جماعتك حد الإيمان. أما المخالفة المحققة فتنصح فيها بعلم، مع بقاء الحقوق التي لا تسقط بمجرد وقوع الخطأ.

وتظهر الأخوة حين يصل إليك حديث عن غائب. قد يحسن المجلس الظن بك لأنه يعرف قربك منه، فيطلب منك تفصيلاً لا يجوز لك نشره. احفظ الأمانة، ولا تجعل اسم المحبة مبرراً لكشف خصوصية صاحبها. تستطيع أن تحت على سؤال مباشر، أو أن تبين وجهاً معلوماً يمنع ظلماً، أو أن تمتنع عما لا يلزم قوله. لا تحتاج إلى أن تدافع عن كل خطأ كي تحفظ الأخوة؛ إنما تجمع صدق البيان وصيانة الحقوق فيما تقدر عليه.

٤٠ | حين يعجز من تحب عن مكافأتك

تساعد كبيرًا لا يحفظ ما قدمت، أو تقوم بحاجة طفل لا يدركها، أو تعين شخصًا أنهكه الألم فعجز عن الرد. تتعب، وتحتاج أحيانًا إلى كلمة تقدير. كيف تحفظ هذه الحاجة الإنسانية، وتواصل المعروف من غير أن تجعل عجز المستفيد عن الشكر دينًا في عنقه؟

قال الله تعالى:

﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾.⁸²

ويقول سبحانه بعدها:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾.⁸³

يصف القرآن إطعامًا لأصحاب حاجة، ويبين إرادة وجه الله وترك طلب الجزاء والشكر منهم. المقصود تهذيب الباعث وحفظ المستفيد من المن؛ لا منع الناس من شكر المحسن، ولا إنكار حق العامل في أجر متفق عليه. نفرق بين المعروف الذي اختاره الإنسان، وبين معاملة لها حقوق وأجور يجب أداؤها.

82 القرآن الكريم، الإنسان: ٨.

83 القرآن الكريم، الإنسان: ٩.

في رعاية قريب ضعيف، قد يرجع التعب إلى كثرة الحمل أو غموض المشاركة. لا تعالجه بانتظار امتنان لا يستطيع تقديمه. اطلب تعاونًا من القادرين، وحدد ما تتولاه، وتعلم ما يحتاجه العمل من خبرة. إخلاص القصد لا يلزم أن تقوم وحدك بكل ما تعجز عنه، ولا يجعل طلب التنظيم نقصًا في المحبة.

ومن صيانة المعروف أن تحفظ خصوصية صاحبه. إذا أردت دعوة الناس إلى مساعدته فاذكر قدر الحاجة، وبموافقته حين يلزم الإذن، واختر وسيلة تحفظ ستره وكرامته. عرض قصته على الجمهور قد يترك فيه أثرًا لا يزول بانتهاء جمع المساعدة؛ فتفكر في مصلحته كما تفكر في وصول المعونة إليه.

وإذا ظهرت حاجة أخرى لا تستطيع تحملها، فبيّن حدود قدرتك بصدق. تستطيع أن تدل صاحبها على جهة مناسبة أو أن تعينه على جزء محدد. لا تعده بما لا تملك فيزداد اعتمادًا على وعدك، ثم تلومه لأنه ظن أنك قادر. المعروف الذي يعرف حدوده يبقى أصدق من وعد واسع ينتج خذلانًا.

قد لا تشعر بنقاء كامل في كل مرة. ربما فرحت بمدح أو ضقت بغياب الشكر. انتبه، واستعن بالله على قصدك، ولا تجعل الخاطر وحده حكمًا على بطلان كل ما قدمت. تراجع ما

تختاره بعده: هل تمنّ؟ هل تهين؟ هل تقطع حقًا لازمًا؟ أم تصلح قلبك وتستمر فيما علمت حاجته؟ هنا مجال المجاهدة الذي تستطيع العمل عليه.

حين تعين من يعجز عن مكافأتك، يسقط عن العلاقة جزء من حساب التبادل، ويتسع فيها رجاء ما عند الله. احفظ الحقوق، ونظم القدرة، وابذل معروفًا تستطيع الوفاء به. قد لا يذكر صاحبه التفاصيل، لكنك لا تحتاج أن تحملها على لسانه لتبقى لعملك جهة صحيحة.

الباب السادس: حين يثقل الطريق

٤١ | محبة لا تشترط اليسر

تتغير صورة اليوم أحياناً بعد خبر واحد. نتيجة كنت تنتظرها لم تأت، أو باب عمل أغلقت فرصته، أو علاج يحتاج إلى وقت أطول مما رجوت. وقد يمر بالقلب سؤال: كنت أدعو وأجتهد، فلماذا بقي الطريق صعباً؟ يحتاج السؤال إلى علم ورحمة؛ فالألم حاضر، والعلاقة بالله أوسع من النتيجة التي كنت تنتظرها هذا الأسبوع.

قال الله تعالى:

﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾.⁸⁴

يبين السعدي أن دعوى الإيمان لا تعني السلامة من كل امتحان، وأن أحوال الاختبار تتنوع بين السراء والضراء والعسر واليسر. ينظر هذا الفصل إلى أثر ذلك في المحبة: كيف تبقى وجهتك إلى الله حين يتأخر ما تحب، وكيف تؤدي ما تستطيع دون أن تجعل كل نتيجة حكماً على منزلتك عنده؟

84 القرآن الكريم، العنكبوت: ٢؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

قد يحمل الإنسان في نفسه اتفاقاً لم ينتبه إليه: سأجتهد في العبادة، ثم تأتي حياتي بالصورة التي اخترتها. فإذا خالفتها الأيام، شعر أن الطريق كله أخلفه. يحتاج هنا إلى مراجعة ما ظنه وعداً. لله أوامره ووعدته الحق، ولنا حاجات نسأله إياها؛ أما تحديد صورة رزق بعينها ووقتها، فلا نملك أن نلزم به الغيب. الدعاء عبادة نرجو بها فضله، والنتائج التي لم تقع لا تحول الطاعات الصحيحة إلى أعمال ضائعة.

ومحبة الله لا تمنعك من طلب اليسر والعافية. تبحث عن علاج، وتحسن تقديم طلب العمل، وتستعين بمن ينفعك، وتسأل ربك أن يرفع ما أصابك. بذل السبب المشروع من عمل يومك، وتستطيع أن تفعله وقلبك مفتقر إلى الله. ما يحتاج إلى إصلاح هو ربط استمرار العبادة بتحقيق طلب واحد: فإن جاء رضى بالطريق، وإن تأخر تركت كل ما تعلمت.

اجتهد طالب في دراسة مشروعة ثم لم يحقق النتيجة التي أرادها. يستريح قدر حاجته، ويفحص أسباب التعثر، ويسأل عن فرصة أخرى. تبقى الصلاة في موضعها، ويبقى الدعاء مفتوحاً، ويستطيع أن يحزن من غير أن يدعي معرفة سبب ما قدر له. هذا الجمع يتيح له متابعة حياته؛ يتعلم مما يعرف، ويؤمن بما أخبره الله، ويترك ما غاب عنه دون قصة يخترعها ليطمئن.

ومن أخطاء هذا الباب أن يقصد المرء المشقة لذاتها، كأن الطريق الأسهل المشروع أقل صدقًا في المحبة. ما أمر الله به يؤديه العبد كما شرع، ويأخذ بالتيسير المشروع في موضعه. وقد تصعب طاعة لعارض فيقوم بها ويستعين، لكن تعتمد زيادة الضرر شيء آخر. مقدار الألم لا يصلح وحده مقياسًا للعمل المقبول، ولا علامة تجزم بها لنفسك أو لغيرك.

وقد يبقى في القلب وجع وأنت تؤدي واجبك. تكلم بما يحفظ أدبك مع الله، واسأله العون، واقبل مواساة من يحسنها. استمرار الألم لا يقتضي أن تخفي دمعتك، كما أن أداء الطاعة لا يتوقف على زواله.

وعندما تخاطب مبتلى، أعنه على حاجة تعرفها: قضاء شأن، أو تسهيل سبب، أو مواساة صادقة. وذكره بما ثبت من فضل الطاعة والدعاء، واترك تفسير الحكمة الخاصة من بلائه لما لا تعلمه؛ فهذا حد العلم الذي انفصله في الفصل التالي.

اختر في وقت الثقل عملاً معلوماً يمكنك حفظه اليوم، وسبباً مشروعاً تعالج به المشكلة، وشخصاً مناسباً تطلب منه العون إذا احتجت. هذا ترتيب بشري للسعي، يتغير بتغير القدرة والحال. لا يضمن نتيجة محددة؛ لكنه يعيدك من دوران السؤال إلى ما تستطيع فعله، ويترك للدعاء مكانه في الطريق.

ثم تواصل وأنت تحمل حاجتك، وقد لا تكون عرفت جواب كل سؤال. تحب ربك لما عرفت من أسمائه وكماله وفضله، وتسأله ما ينفعك، وتحفظ لأمره مرجعيته. وإذا اتسع اليوم حمدته، وإذا ثقل استعنت به. وبين الحاليين تبقى وجهتك إليه، وترجو أن يعينك على صدقها.

وهنا يظهر فرق لا يستقيم هذا الباب بدونه: ما وقع بمشيئة الله ليس كله محبوباً له شرعاً. قد يقع ظلم وهو من فعل العبد الذي يؤاخذ به، والله لا يحب الظلم ولا يأمر به. فالإيمان بأن شيئاً لم يخرج عن قدر الله لا يجعل المعصية طاعة، ولا يلزمك أن تحب الاعتداء أو ترضى به من جهة كونه اعتداء. هذا التفريق من أصول بيان ابن تيمية في العبودية: يصبر العبد على المصائب، ويتوب من المعاييب، ولا يحتج بالقدر لتترك الأمر والنهي.⁸⁵

إذا ظلم إنسان قريباً لك، اجتمعت أمامك جهتان واضحتان: تؤمن أن الأمر لم يخرج عن علم الله وقدره، وتسعى إلى رفع الظلم بما شرع. لا يلغي أحدهما الآخر. ومن ذلك أيضاً أن تدعو بزوال المرض وتطلب علاجه؛ فطلب العافية سبب

85 ابن تيمية، العبودية، تحقيق محمد زهير الشاويش، الفصل الذي يفرق بين شهود الربوبية وتحقيق الأمر والنهي، ومواضع الاحتجاج بالقدر في المصائب دون المعاييب؛ ص ٥٤-٦٠ و ص ١١٥-١١٧ بحسب علامات النسخة الرقمية.

مأذون، وليس منازعة لقدر الله. بهذا يبقى الصبر عبودية تقيم الإنسان على الحق، ولا يتحول الكلام عن المحبة والرضا إلى إعفاء للمعتدي أو تعطيل للمظلوم.

٤٢ | ما لا نعرف حكمته

يقول لك صاحبك إنه فقد عمله، فتريد أن تخفف عنه. تخطر لك عبارة سريعة: لعل الله أغلق هذا الباب ليعطيك أفضل منه. قد تقصد الرجاء، لكنه قد يسمعها وعدًا ينتظر وقوعه. وإذا امتد انتظاره، حمل مع ألم الفقد سؤالاً جديداً: أين البديل الذي قيل لي إنه سيأتي؟ تستطيع أن تواسيه بكلام أصدق، وأن تترك للغيب ما لم تعلمه.

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ
كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.⁸⁶

يربط السعدي النهي بالتثبت في القول والفعل، وبمسؤولية الإنسان عما استعمل فيه جوارحه. وفي حديثنا عن القدر نحتاج إلى هذا التثبت خاصة؛ فقد يكون الكلام لطيفاً في سمعنا، ثم يتضمن نسبة مقصد معين إلى الله بغير بينة. معرفة كمال حكمة الله أصل نؤمن به، وتعيين حكمة حادثة تخص إنساناً علم آخر يحتاج إلى دليل.

86 القرآن الكريم، الإسراء: ٣٦؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

بين سبب الحدث وحكمته فرق يساعد على الفهم. قد يثبت أن عقد العمل انتهى بسبب إغلاق المؤسسة، أو أن حادثًا وقع بسبب خلل فني، أو أن مرضًا اكتشفه الطبيب له أسباب يعرفها. هذه معارف تبحث بأدلتها، وينفع معرفتها في العلاج والإصلاح. أما القول إن الله قدر هذا الحدث ليحقق لهذا الشخص غرضًا بعينه، فليس نتيجة يثبتها تقرير المؤسسة أو فحص الجهاز. نستفيد مما عرفناه، ونقف عند حد ما غاب عنا. وللأحكام العامة في الوحي موضعها. نؤمن بأن الحياة ابتلاء، وبما ورد في فضل الصبر وتكفير الخطايا؛ ثم نحفظ الفرق بين هذا البيان العام وتفسير واقعة شخص بعينه. يستند رجاؤنا إلى ما ثبت، ولا يتحول إلى دعوى بأننا عرفنا سر ما أصابه.

قد يتأمل الإنسان بعد سنوات بعض ما نتج عن حدث مؤلم. تعلم مهارة، أو عرف صديقًا أمينًا، أو أصلح عادة كانت تستنزفه. له أن يحمد الله على هذه المنافع التي ظهرت. وإذا وصف تجربته، قال: وجدت بعدها هذا الخير، أو تعلمت منها هذا الأمر. يستطيع أن يرى الثمرة من غير أن يدعي أنها الحكمة الوحيدة التي وقع الحدث من أجلها. وقد يبقى مع الخير أثر مؤلم يحتاج إلى عناية؛ الاعتراف به لا يبطل الحمد.

تأخر قبول طالبة في التخصص الذي رغبت فيه. راجعت شروطه، وتعلمت ما ينقصها، ثم اختارت طريقاً آخر يناسب قدرتها. هذا وصف لعملها وما انتهت إليه، لا كشف لسر القدر. وربما بقيت على رغبتها الأولى وسعت إليها مرة أخرى؛ فلا يلزم أن تعتبر كل باب أغلق إشارة تمنعها من المحاولة. القرار الجديد يبنى على العلم المتاح، والقدرة، والمشورة، والاستشارة في موضعها؛ لا على فك رموز يظن المرء أن الأيام أرسلتها إليه.

وتحتاج المحبة إلى هذه الأمانة كي تبقى متعلقة بالله الذي عرفناه بالوحي. حين نبنيها على قصة خاصة اخترعناها عن المستقبل، قد يضطرب تعلقنا إذا خالفت القصة ما وقع. أما أن نحب ربنا لكماله وفضله، ونسأله حاجتنا ونحن نقر بقصور علمنا، فهذا يترك للقلب طريقاً حين لا يحصل على جواب تفصيلي. يستطيع أن يقول: لا أعلم الحكمة من هذه الواقعة، وأعلم أن ربي عليم حكيم.

وقد يلح سؤال «لماذا أنا؟» عند اشتداد الألم. لا يلزم أن يجاب صاحبه بمحاضرة طويلة في أول ساعة. يحتاج أحياناً إلى من يسمعه، أو يرتب معه أمر العلاج، أو يسنده في إجراء عملي. وحين يتهياً للسؤال العلمي، يسمع بياناً يفرق بين المعلوم والمظنون والمجهول. سماع السؤال وفهمه لا يعني تبني كل

عبارة فيه؛ إنه يعين على جواب مناسب بدل توبيخ لا يزيد صاحبه علمًا.

ومن الرحمة أن تحمي المبتلى من اتهام نفسه بجرم لم يثبت. إن عرف تقصيرًا فباب التوبة مفتوح، وإن وجد سببًا ظاهرًا فليعالجه. أما البحث في كل مرض عن معصية بعينها فقد يشغله عن علاج يحتاج إليه. ومع جهلنا بالحكمة الخاصة يبقى من تسبب في الضرر مسؤولًا عن فعله؛ فقصر العلم بالغيب لا يلغي ما ثبت من حقوق.

حين تعرض عليك عبارة تفسر حدثًا خاصًا، اسأل عن نوعها: أهي خبر ثبت؟ أم احتمال بشري؟ أم رجاء في فضل الله؟ سمها باسمها قبل أن تحملها إلى غيرك. ويمكنك أن تقول لصاحبك: أرجو أن يفتح الله لك خيرًا، وأستطيع مساعدتك في هذا الأمر. في الجملة رجاء صادق وعون معلوم، ولا وعد بتاريخ أو صورة لم يخبرك بها أحد.

تظل بعض الأسئلة مفتوحة، وقد يصحبها الإنسان زمنا. يحب الله، ويدعوه، ويطلب البيان فيما يمكن بيانه، ويقوم بما عرف من حقه. ليست معرفته بكل حكمة شرطًا لبدأ يومه التالي. وقد تكون الأمانة التي يحتاجها قلبه الآن أن يستبقي اليقين في موضعه، ويترك السؤال الذي لا يعلم جوابه بلا جواب مصنوع.

٤٣ | الفقد والحنين

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

«دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَيْفِ الْقَيْنِ، وَكَانَ ظَنًّا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَذْرِفَانِ. فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ عَوْفٍ، إِنَّهَا رَحْمَةٌ. ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ ﷺ: إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ».⁸⁷

يجمع الخبر الدمع والحزن وحفظ القول. سمي رسول الله ﷺ ما رآه ابن عوف رحمة، ثم عبر عن حزنه على فراق ابنه. يستطيع القلب أن يحب الله، وأن يتألم لفقد محبوب من الناس؛ فالحزن المذكور لم يقتض كلمة تسخط الرب، ولم يستلزم إخفاء الدمع.

87 حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «إنا بك لمحزونون»، حديث ١٣٠٣، عن أنس بن مالك رضي الله عنه. القين: الحداد؛ وظنًّا: زوج مرضعة إبراهيم؛ ويجود بنفسه: يحتضر.

كيف تبقى محبتك لله حاضرة وأنت تشتاق إلى من فقدت؟
يريك الحديث حزنًا صادقًا مع أدب العبودية. قد تفتقد
الطمأنينة ساعات، وتبقى محافظًا على ما يرضي ربك؛ فليس
مطلوبًا أن تستر كل ألم بابتسامة، وإنما أن تحفظ قولك
وفعلك وأنت تحمله.

قد يعود الحنين بعد زمن من الوفاة: تسمع صوتًا يشبه صوت
أبيك، أو تحتاج إلى رأي كنت تسأل أمك عنه، أو يحين موعد
اعتدت فيه زيارة من رحل. تثقل اللحظة ثم تمضي، وربما
وجدت بعدها قدرة على العمل. يختلف الناس في هذه الخبرة؛
وعودة الذكرى لا تنفي ما استأنفته من حياتك، كما أن
الانشغال لا يمحو محبتك للفقيد.

تحتاج الأسرة كذلك إلى مساحة تختلف فيها طرق التعبير. قد
يبكي أحد الإخوة، ويصمت آخر، وينشغل ثالث بترتيب ما
بقي من شؤون البيت. لا تكفي هذه الصور للحكم بأن واحدًا
أحب الفقيد أكثر. يسأل بعضهم بعضًا عن الحاجة، ويوزع
العمل بعدل، ويحفظ للألم حقه دون أن يجعل أشدهم ظهورًا
هو صاحب القرار في كل أمر.

وتبقى الحقوق العملية حاضرة بعد الفقد. إن خلف الميت
أمانات أو ديونًا أو وصية، فلها أحكام يسأل عنها أهل العلم
ومن يحسن الإجراءات. حبك له لا يبيح التصرف في مال

الورثة بغير حق، ولا يحمل الضعيف وحده مسؤوليات الجميع. وقد يكون الوفاء في أداء عمل شاق قليل الظهور: جمع معلومات صحيحة، أو تسليم أمانة إلى صاحبها، أو كف خلاف يزيد أحزان الأسرة. لهذا العمل مرجعه وحكمه، وتحتاج التفاصيل إلى بيان مستقل عن الكلام الوجداني.

ومن المواساة أن تتجنب الوعود الغيبية الخاصة. نرجو للمؤمن رحمة الله، وندعو للميت بما يشرع، ولا نجزم له بمنزلة لم يثبت بها نص. لا نحتاج إلى حكاية عن رسالة خفية أو حضور روحه في موقف عادي كي نحفظ محبته. الذكر الطيب لأمر نعرفه والدعاء الصادق أصدق من خبر لا نستطيع إثباته. ولحظة السكون التي يجدها الحزين لا تتحول وحدها إلى شهادة عن عالم الغيب.

قد تعلق ذكرى الفقيد بشيء من تأنيب النفس: كلمة لم تقلها، أو زيارة أجلتها، أو خلاف انتهى دون اعتذار. إذا كان ثمة تقصير معلوم، فاسأل عما يمكن إصلاحه شرعاً، وتب إلى الله. وإذا كان مجرد تصور يتكرر لما كان يمكن أن يكون، فلا تجعله دليلاً على جرم لم يثبت. لا تستطيع إعادة كل يوم مضى، ويمكنك أن تعطي من بقي معك اليوم حقه. بذلك يصير تذكر المحبوب باب عناية بالحاضر، بدل محاكمة لا تنتهي للماضي.

وأنت تواسي غيرك، اعرض عونًا يستطيع قبوله أو الاعتذار عنه. قد يحتاج إلى من ينجز حاجة، أو يجلس معه قليلًا، أو يترك له وقتًا هادئًا. لا تلزمه بحكاية تفاصيل الفقد كلما التقيته، ولا تطالبه بإعلان تحسنه ليطمئن من حوله. وإذا طلب تفسيرًا دينيًا، فقل ما تعلم، واترك ما لا تعلمه؛ الذي يشد أزره قد يكون حضورًا أمينًا أكثر من كثرة الكلام.

إذا امتد الألم حتى عطل شؤونك أو هدد سلامتك، فاطلب المساندة المناسبة من أهلها. تستطيع أن تستعين بمن يفهم حاجتك، وأن تحفظ ما تقدر عليه من العبادة والدعاء؛ فطلب العون لا ينقص وفاءك للفقيد.

يبقى من حديث أنس ميزان تصحب به حنينك: للقلب حزنه، وللعين دمعها، وللکلمة حقها عند الله. حين تفتقد من تحب، قل كلامًا صادقًا مشروعًا، واطلب العون، وأعط بقية يومك ما تستطيع. قد يظل مكان الفقيد في قلبك، وتجد مع ذلك مجالًا لحياة تؤدي فيها الحقوق، وتحب ربك، وتسأله الرحمة لك ولمن سبقك.

٤٤ | الرجوع بعد الزلة

أحياناً لا يكون أصعب ما بعد الخطأ الاعتراف بأنه خطأ، بل العودة إلى عبادة كنت تؤديها قبله. تقف عند سجادتك وتقول في نفسك: كيف أدعو وأنا الذي فعلت؟ يحتاج القلب إلى أن يرى التوبة من جهة دعوة الله، لا من جهة صورته التي انكسرت وحدها. تقبل عليه بما أمر، بدل أن تعاقب نفسك بترك الطريق الذي يصلحها.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ فَأُفْلِتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيَسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاصْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيَسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ».⁸⁸

يخبر الحديث بفرح الله بتوبة عبده على الوجه اللائق به. لا نقيس صفة الخالق على صفة المخلوق؛ والمثال يقرب إلى

88 حديث صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، حديث ٢٧٤٧، عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ الرواية المبدوءة بـ«لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه». الفلاة: الأرض الواسعة؛ والخطام: ما يقاد به البعير.

السامع شدة الفرح التي يعرفها. وقد بين النص أن الكلمة المقلوبة خرجت خطأ، فلا تفصل عن بيان سببها، ولا تصير دعاء يقصده الإنسان.

الحركة التي تلي الندم هي موضع العمل هنا: تعود إلى العبادة وتصلح أثر ما فعلت، وقد تبقى في نفسك مرارة. إصلاح صورتك عند نفسك قد يتأخر، أما واجب الساعة فتستطيع أن تبدأه وأنت تسأل الله المغفرة والإعانة.

يبين ابن باز أن التوبة تقوم على الندم، والإقلاع، والعزم الصادق على عدم العودة، وأن حقوق الناس تحتاج إلى ردها أو التحلل منها بحسب صورتها. ويبين أن الزلة التي تقع بعد توبة صادقة تحتاج إلى توبة جديدة؛ فلا يسقط بها صدق ما سبق تلقائياً، ولا يصح في المقابل أن يسمى توبةً عزمٌ يبقي العودة إلى الذنب مقصودة عند القدرة.⁸⁹ هذا القدر يكفي لتعيين وجه العمل هنا، وتبقى التفاصيل التي تحتاج إلى فتوى لأهل العلم.

قد تعود بعد خطأ في كلمة: نقل شخص خبراً عن زميله، ثم تبين له أنه غير صحيح. أول الإصلاح وقف تداوله، وتصحيح

89 عبد العزيز بن عبد الله بن باز، جواب «شروط التوبة وسبيل العودة إلى الله تعالى»، التفرغ المنشور للجواب، موضع شروط التوبة والعودة إلى الذنب بعد التوبة الصادقة.

ما بلغه لمن سمعه منه بالطريقة المناسبة. الدعاء والاستغفار لهما موضعهما، لكن ارتياح الناقل لا يصلح الخبر الذي ظل في أذهان الآخرين. وإذا التبست عليه طريقة الإصلاح أو خشية زيادة الضرر، عرض الواقعة بصدق على من يحسن بيانها؛ لا يختار السكوت لمجرد أنه أسهل عليه.

وقد تكون الزلة في عادة تتكرر حين تنفرد بهاتفك. بعد التوبة عالج السبب الذي تعرفه: حسابًا يكثر فيه المحرم، أو وقتًا طويلًا يسهل فيه الرجوع إليه، أو وسيلة تحتاج إلى ضبطها. غيّر ما تقدر عليه واطلب العون إذا احتجت، ثم راجع أثر التغيير في حفظ قرارك.

ويحسن أن تجعل وصف الخطأ محددًا. قولك «أنا لا أصلح لشيء» لا يعلمك موضع الإصلاح. تستطيع أن تقول: وقع مني هذا الفعل، وله هذا الأثر، وأحتاج إلى هذه الخطوة. تعترف بالذنب من غير أن تحول الاعتراف إلى حكم شامل على مستقبلك. ومن الأدب أن تحفظ ما ينبغي ستره، وأن تسأل من يحتاج إلى معرفة التفاصيل بقدر حاجتك؛ لا تجعل التوبة عرضًا علنيًا يضيف إلى الذنب انتشارًا.

وقد يدفع الندم إلى وعود مرهقة: إلغاء كل راحة، أو مضاعفة نوافل لا يدوم عليها صاحبها. عيّن الذنب الذي تتوب منه وما يلزم إصلاحه، وحافظ على الفرائض، وزد من الطاعة ما

تطبيق. لا تخترع لنفسك عقوبة لا يوجبها الشرع؛ فالمطلوب إصلاح الخطأ والثبات على الخير.

ومن عوائق الرجوع أن تنتظر الاطمئنان الكامل قبل العمل. ربما تقول: سأعتذر حين أستطيع مواجهة صاحبه دون خوف، أو سأبدأ من جديد حين أثق أنني لن أتعثر. تستطيع أن تأخذ خطوة صحيحة مع بقاء شيء من الخوف، وأن تستعين بالله على العزم الذي يحتاج إلى تعاهد. العلم بأنك ضعيف يدعوك إلى طلب العون؛ لا يمنحك إذناً بإرجاء الواجب حتى تصبح شخصاً آخر.

وفي مواساة من تاب، دع له مجال الوفاء بما بدأه. لا تستدع خطأه في كل اختلاف، ولا تمنحه شهادة غيبية بأنه بلغ مقاماً مخصوصاً. إن بقي حق لغيره، فحفظه لازم؛ وإن كانت المسألة انتهت بإصلاح مشروع، فلا تجعل الماضي وسيلة لإذلاله. المحبة تعين على طريق واضح: صدق، ومسؤولية، ومساندة تحفظ كرامة الإنسان وهو يصلح عمله.

وإذا عاد الندم بعد خطوة الإصلاح، فاسأل هل ظهر واجب جديد لم تؤده، أم عاد شعور قديم وحده. للواجب عمله، وللشعور ما يحتاجه من دعاء وعناية. لا تعد تنفيذ الإجراء نفسه بلا حاجة كلما اضطربت، ولا تترك بقية عباداتك لتجلس

أمام خطأ واحد. تستطيع أن تتوب وتتعلم وتواصل، وأن
ترجو فضل الله الذي دعاك إلى الرجوع.

الطريق بعد الزلة يبدأ من حيث تقف، بما تعرفه من أمر الله.
أوقف الفعل، وأصلح ما يلزم، واطلب البيان في الملبس، ثم
عد إلى عبادتك بقلب مفتقر. المحبة التي صحت وجهتها لا
تطلب منك أن تدعي أنك لم تخطئ؛ تعينك أن تأتي ربك
بصدق، وتستقبل يومًا تعمل فيه خيرًا.

٤٥ | صبر يأخذ بالأسباب

أمر يؤلمك وتستطيع إصلاحه، ثم تتردد: أيدل اتخاذ السبب على نقص صبري؟ محبة الله تحملك على الصبر على طاعته، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وتحملك أيضاً على دفع الضرر بما شرع. يجتمع الثبات وطلب العافية حين تعرف ما يلزمك في حالك.

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.⁹⁰

جمع الخطاب الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى، فالصبر جزء من عمل متجه إلى الفلاح. لا تدعو الآية إلى تعطيل السعي، ولا تمنح كل صورة من احتمال الضرر فضلاً واحداً. معرفة التكليف تحفظ العزم من أن يصير استسلاماً في موضع يحتاج إلى فعل.

مريض يستطيع طلب علاج مناسب. يأخذ بالمشورة الطبية من أهلها، ويرتب ما يحتاج، ويدعو الله بالعافية، ويصبر على مشقة الطريق. لا يجعل الألم شرطاً ليصدق في العبادة، ولا

90 القرآن الكريم، آل عمران: ٢٠٠.

يتمنى زيادة المرض لأنه سمع فضل الصبر. هذه أمور تعرف أصول مشروعاتها؛ أما تفاصيل العلاج والقدرة والمخاطر فترجع إلى أصحاب الاختصاص.

وفي العلاقة المؤذية قد يحتاج الصبر إلى منع اعتداء وطلب حماية. حفظ الحدود ليس إعلاناً أنك تركت الرفق، ورفع الضرر ليس حكماً على سريرة المعتدي. تعين الواقعة، وتختار الجهة المناسبة، وتحفظ من القول ما تستطيع إثباته. لا يطلب هذا الكتاب من متضرر أن يبقى في خطر ليثبت محبة أو وفاء.

وقد يكون موضع الصبر في السعي الطويل. تتعلم عملاً لا يأتي نفعه بسرعة، فتراجع الوسيلة وتستمر بقدر معقول. تستطيع أن تغير خطة فاشلة بعد معرفة سببها، من غير أن تجعل تغييرها نقصاً في الثبات. الصبر على المقصد الصحيح لا يفرض التعلق بكل وسيلة اخترتها أول مرة؛ فقد يكون صحيح الوسيلة مما يحفظ المقصد.

ومن معرفة الحدود أن تميز بين عجز حقيقي واستثقال يعالج بالتنظيم. إذا كنت لا تملك مورداً لازماً، طلبت عوناً أو عدلت النطاق. وإذا كان العائق عادة تستهلك وقتك، بدأت بإصلاحها. لا تنقل نجاح شخص آخر إلى حالك بوصفه ضماناً،

ولا تستعمل اختلاف الحال حجة دائمة للامتناع عما تقدر عليه.

حب الله يعين على احتمال مشقة الطاعة، ويحمي من اختيار الحرام طلبًا لراحة عاجلة. وإذا اجتمع معه العلم، صار الصبر حياة فيها مسؤولية؛ يعالج القادر ما يقدر عليه، ويتلقى ما لا يملك بتضرع ورجاء، ويطلب العافية دون أن يظن أن طلبها يسلبه نصيب الصبر.

٤٦ | شكوى إلى الله

قد تضيق بك كلمات المواساة التي تسمعها، ويظل في القلب ألم يحتاج إلى كلام صادق. تخشى أن يكون ذكر الألم اعتراضاً، فتكتمه حتى يعز عليك الدعاء. يعلمنا القرآن أن الشكوى إلى الله باب يجتمع مع الإيمان بما عنده؛ فليس كل إخبار بالحزن تسخّطاً، ولا كل صمت رضا.

قال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام:

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.⁹¹

توجه يعقوب عليه السلام بحزنه إلى الله، وجمع الشكوى برجائه فيما يعلمه من ربه. نتعلم من قوله أن الألم يجد سبيله إلى الدعاء مع بقاء الثقة بالله. أما تفاصيل ما يؤول إليه أمر كل مبتلى فلا نستخرجها من القصة؛ فالرجاء ثابت، والمآلات الخاصة لا نعلمها.

تستطيع أن تقول في دعاء مباح من إنشائك: يا رب، أتعبني هذا الأمر، فأعني واهدني إلى الخير. ليست هذه العبارة مأثورة بهذا اللفظ؛ إنها وصف لحاجة وسؤال للعون. لا يلزم أن

91 القرآن الكريم، يوسف: ٨٦.

تزين الألم كي يستحق السماع، ولا أن تحول ضعفك إلى اتهام لعدل الله. تبقى عبده، وتطلب منه أن يصلح حالك.

وفي الإفصاح لإنسان فرق بين طلب المساندة وبين نشر شكوى تؤذي بغير حق. تذكر للجهة المناسبة ما تحتاجه لفهم حالك ومساعدتك، وتحفظ بما لا يلزم. قد يعينك قريب أمين أو مختص أو صاحب صلاحية في إصلاح ضرر. عرض الواقعة على من يستطيع معالجتها ليس ترغاً للدعاء؛ هو سبب مشروع يتعلم المرء كيف يستعمله.

وإذا كان في الأمر خصومة، احفظ صدق الرواية. قد تكون متألمًا ومظلومًا، ومع ذلك لا يجوز أن تضيف واقعة لم تقع لتبدو القضية أقوى. صف ما تعلمه، وميز ما ظننته، واطلب حقك بطريقه المناسب. الشكوى التي تحفظ الحقيقة أقدر على الإصلاح، وتبقي القلب مسؤولاً عما يقول حتى في وقت الجرح.

وقد يتأخر عون الناس أو يقصر عما تحتاج. بين طلبك، أو اسأل جهة أخرى، وتعرف حدود ما يقدرون عليه. إخفاق سبب لا يغلق باب الدعاء، ولا يمنع البحث عن سبب أنفع.

حين تواسي غيرك، اسمع كلامه دون أن تطلب منه فوراً صياغة يرضى بها الجميع. قد يحتاج إلى وقت حتى يصف ما يشعر به. علمه ما تعرفه من أدب القول إذا احتاج، واعرض

عونًا محددًا، ولا تفسر كل دمة بأنها اعتراض. وقد يكون أنفع كلامك قليلًا صادقًا، يعقبه فعل يستطيع الانتفاع به.

للقلب أن يحمل ألمه إلى الله. يشتكي ويسأل، ويطلب من الناس ما يقدرون عليه، ويصبر عما لم يملك. وفي هذا الرجوع مجال للمحبة؛ يتوجه إلى ربه بحقيقة حاجته، ويعلم أن عجزه عن إحاطة الأسباب لا يمنعه من الدعاء ولا من العمل الذي بين يديه.

٤٧ | المحبة حين تتسع الحياة

للشدة أثر في إيقاظ الحاجة، لكن السعة امتحان آخر يحتاج إلى معرفة. تفتح لك فرصة عمل، أو يستقر شأن أسرتك، أو تزول مشقة طويلة؛ فيخف إلحاح السؤال الذي كان يصحب يومك. هل تستطيع أن تحفظ صلتك بالله حين لم تعد الحاجة نفسها تدفعك كل ساعة؟

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ تَأْتِيَنَّكُمْ رُبُكُمُ لَّئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.⁹²

يجمع النص وعد الزيادة بالشكر والوعيد على الكفران. نتلقى الوعد كما جاء، ولا نحوله إلى جدول يحدد نوع زيادة كل شخص أو مواعدها. وظيفة الشكر أن تعرف المنعم وتعترف بفضلته وتستعمل النعمة في طاعته؛ وقد تزداد قدرة أو علمًا أو بركةً على وجه لا تحيط بتفصيله.

السعة تمنحك خيارات أكثر، فتحتاج إلى ترتيب يحفظ الواجبات. تستطيع أن تزيد معروفًا، وأن تصل من لم تتمكن من صلتته، وأن تعالج شأنًا أهملته حين ضاق وقتك. لا يلزم أن

92 القرآن الكريم، إبراهيم: ٧؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

تنفق كل ما اتسع لديك لتثبت الشكر؛ تعلّم ما يلزمك من حقوق مالك، وخطط لما تستطيع، واحفظ نفقة من تعول.

وقد يظهر الكفران في طريقة وصف النجاح. ترى جهدك وحده، وتنسى ما سبق قدرتك من رزق وتعليم وعون. تستطيع أن تذكر ما عملت بصدق، وأن تحفظ للناس فضلهم، وأن تنسب النعمة إلى الله. لا تعالج هذا النقص بإنكار جميع الأسباب البشرية؛ فالاعتراف بها جزء من الأمانة، ووجودها نفسه من فضل ربك.

وفي الرخاء مجال للدعاء يختلف عن لهجة الاستغاثة في الشدة. تسأل الثبات وحسن الاستعمال، وتدعو لمن بقي في حاجة، وتحمد على ما تيسر. لا تحتاج إلى أن تصنع أزمة كي تجد كلامًا تقوله لربك. حاجتك إلى هدايته باقية في الاختيار الواسع كما بقيت في الباب الضيق.

ومن مخاطر السعة أن تصير صورتها دليلاً على تزكية نفسك. نفع تجاري أو ثناء أو ترقية لا يثبت وحده محبة مخصوصة عند الله. انظر إلى ما تستطيع معرفته: هل النفع جاء من طريق مشروع؟ هل أدت حقوقه؟ هل زادك قدرة على الخير؟ ثم ارجُ القبول واشكر، من غير أن تجعل النعمة شهادة نهائية بمنزلتك.

تعهد نعمة واحدة ظاهرة اليوم. اعرف حقها، وأصلح استعملاً فيها، واشكر من كان سبباً نافعاً، واسأل الله أن يعينك على حفظها. هكذا تصحب المحبة الحياة الواسعة؛ تجد في الرخاء أعمالاً يعرف القلب أنها مما يرضي ربه، ويبقى له رجاء لا يتوقف على صورة واحدة من الأيام.

٤٨ | حين تستبطئ تغير القلب

تعلمت معنىً وأحبته، ثم مضت أيام ولم تجد في نفسك التغير الذي رسمته. قد يغريك هذا أن تنتقل كل مرة إلى برنامج أشد، أو أن تقول إن التعلم لم ينفع. قبل الحكم، انظر إلى صورة الثمرة التي تنتظرها؛ ربما طلبت شعورًا ثابتًا، وغاب عنك إصلاح صغير ظهر في اختيارك بالفعل.

سبق حديث أحب الأعمال وأدومها، وما فيه من التسديد والمقاربة والحاجة إلى الرحمة.⁹³ فهو يرشد إلى عمل مشروع تصحبه المداومة. ومن التطبيق أن تراجع فعلاً معلوماً بعد مدة تكفي لظهور أثر وسيلتك فيه، مع بقاء القبول وصلاح القلب مما تسأل الله وتعمل له.

قد كنت تتعجل بالكلام عند الغضب، ثم صرت تمسك كلمة في بعض المواقف. هذا تغير ظاهر يمكن معرفته، يحتاج إلى تعاهد. لا يلزم أن تنسبه إلى بلوغ مقام مخصوص، ولا أن تنكره لأن الغضب نفسه لم يختلف. تستطيع أن تشكر التوفيق، وتعرف ما ساعدك، وتصحح موقفًا بقيت تخطئ فيه.

93 حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، حديث ٦٤٦٤، عن عائشة.

أما إذا لم يتغير شيء في عمل معلوم، فاسأل عن السبب القريب: هل فهمت المعنى؟ هل عيّنت فعلاً تستطيع تطبيقه؟ هل كانت الخطة فوق طاقتك؟ هل تحتاج إلى تعلم حكم أو مهارة؟ قد تكشف الإجابة أن تغيير الوسيلة أنفع من إطالة مدة تطبيقها على حالها.

ومن الخطأ أن تقارن باطنك بما يظهر من وصف الآخرين. قد يحسن إنسان الحديث عن خشوعه، وتسمع منه لحظة لا تعرف ما قبلها وما بعدها. استفد من خبرة صحيحة بقدرها، ولا تنقل صورتها إلى نفسك بوصفها الموعد الذي ينبغي أن تصل إليه. للناس أحوال وقدرات، وللمعرفة أثر يتفاوت، ولا تقيس هذا التفاوت بشدة الوصف.

وقد تحتاج إلى تقليل مادة تتلقاها حتى تجد فرصة للعمل بها. الانتقال بين دروس كثيرة قد يمنحك إحساساً بالحركة، بينما يبقى الفعل الذي تعلمت حاجته مؤجلاً. احتفظ بمصدر موثوق، واختر سؤالاً واضحاً، واعمل بما فهمت. ثم زد تعلمًا يناسب الحاجة التالية، بدل جمع معانٍ لا تجد في يومك موضعاً لتطبيقها.

الباب السابع: ما يزاحم المحبة

٤٩ | تعلق يأخذ أكثر من حقه

قد يحب الإنسان عمله حتى يصعب عليه أن ينهي يومه، ويحب أهله حتى يتجنب كل كلمة قد تغضبهم، ويحب ما جمع من مال حتى يضيق بما وجب فيه. أصل هذه المحبوبات قد يكون مباحًا، وفيها مجال واسع للخير. السؤال يظهر عند التزاحم: ماذا يحدث للحق الذي أعرفه حين يطلب مني شيئًا لا يلائم ما تعلق به؟

قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.⁹⁴

تسمي الآية أشياء قريبة من حياة الإنسان، ثم تحذر من تقديم محبتها على محبة الله ورسوله وما أمر الله به. ويبين السعدي أن من مواضع ظهور هذا التقديم اختيار ما تهواه النفس إذا فوت محبوبًا لله يجب على العبد القيام به. ينتقل

94 القرآن الكريم، التوبة: ٢٤؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

السؤال من وصف الشعور إلى وجه الاختيار، حيث يمكن للإنسان أن يعرف فعله ويتعلم حكمه.

محبة الأهل والطعام والمسكن ليست بمجرد محبة عبادة. وقد بين ابن باز الفرق بين المحبة الطبيعية وبين المحبة التي تحمل على معصية أو موالاة باطلة.⁹⁵ نحتاج إلى هذا الفرق كي لا نحرم على النفس كل أنس مشروع، وكي لا نستعمل كلمة «طبيعي» عذرًا لفعل ثبت تحريمه. يختلف الميل الذي يجده الإنسان عما يختار أن يطيعه بسببه، وتختلف المعصية عن الشرك؛ فلا يحكم على الأعيان بهذه الأوصاف من انطباع عابر.

يحب رجل تجارته، ويفرح بنموها، ويحرص على خدمة عملائه. هذا الحرص قد يعينه على الإتقان. ثم تعرض صفقة يعلم أنها تتضمن غشًا، ويخشى إن تركها أن يفوته ربح كبير. هنا يحتاج إلى أن يعطي الحكم الشرعي مرجعيته في الصفقة نفسها. يستطيع أن يبحث عن بديل مباح، وأن يحتمل فوات ربح، وأن يستعين بمن يفهم المعاملة إن التبست. لا يحتاج إلى ترك التجارة كلها؛ يحتاج إلى تصحيح ما دخل في اختياره من مخالفة.

95 عبد العزيز بن عبد الله بن باز، تفسير الآيتين ٢٣-٢٤ من سورة التوبة، موضع السؤال عن محبة الأقارب الطبيعية، التفريغ المنشور للدرس.

وقد يقع التزاحم في أمر أصغر كثير التكرار. تبدأ متابعة نافعة، ثم تطول حتى يضيق وقت الصلاة أو يتأخر عمل التزمت به. لم يصبح كل ما شاهدته محرماً لأنك أحببته؛ الذي يحتاج إلى ضبط هو الحد الذي تجاوزت عنده حقاً معلوماً. تسأل عن الواجب، وتنظم الوسيلة، وتجرب ما يمنع امتداد الوقت بلا انتباه. إصلاح الحد أنفع من تسمية عامة لا تخبرك بما ينبغي تغييره.

ومن قوة التعلق أن تتغير طريقة استقبال الدليل. حين يكون الأمر بعيداً عنك، تقبل البيان بسهولة؛ وحين يمس منفعتك، تبدأ في البحث عن يمنحك الجواب الذي رغبت فيه. تستطيع أن تصف الصورة كاملة لمن تستفتيه، وأن تذكر ما فيها من حقوق ومخاطر، وأن تقبل تصحيحاً لم يكن في حسابك. العلم هنا يعين المحبة على ترتيب الطريق؛ أما إخفاء التفصيل المؤثر في السؤال فيجعل الجواب يطمئن صورة غير الصورة التي تعيشها.

ولا تستخرج من الآية أحكام الجهاد وتفصيله من عندك. ورد ذكره في سياقها، وله أحكام وشروط وولايات يبينها أهل العلم. وجه النظر في هذا الفصل هو ترتيب المحبوبات أمام أمر الله، دون تحويل النص إلى إذن لتصرف فردي لم تثبت مشروعيته. وكذلك لا تسم كل اختيار تفضله أنت «محبوباً

لله» ثم تطالب الآخرين بترك ما يحبون له؛ معرفة الحكم تسبق المفاضلة.

قد يقول إنسان: أشعر أحياناً بمحبة ابني شعوراً حاضراً أقوى من كل ما أصفه. لا يكفي قياس حرارة هذا الشعور في لحظة ليحكم على أصل إيمانه. عليه أن يعرف محبة العبادة وما يلزمها من تعظيم واتباع، وأن ينظر إلى ما يختاره عند التعارض المعلوم. يرضى ابنه، ويخاف عليه، ويؤدي حقه، وفي الوقت نفسه يرفض ظلم غيره من أجله. محبة الله تحمل الأمانات إلى مواضعها، ولا تطلب من القلب أن يجفو من أمر برحمته.

اختبر موضعاً واحداً يكثر فيه النزاحم. اكتب الحق الذي تعرفه، والمحبوب الذي تخشى فواته، والبديل المباح إن وجد. إن كان الحكم مجهولاً، فالتعلم أول عمل؛ وإن كان معلوماً، فحدد خطوة تعطيه حقه. هذه أداة للمراجعة، لا مقياس رقمي لما في القلب. قد تتبين أن الأمر يحتاج إلى تنظيم يسير، وقد ترى تقصيراً يستدعي توبة، وقد تحتاج إلى جواب متخصص في واقعة مركبة.

٥٠ | رضا الناس إذا غلب

عن علي رضي الله عنه قال:

«بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِّنَ الْأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَّا جَمَعْتُمْ حَطَبًا وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا، ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا. فَجَمَعُوا حَطَبًا فَأَوْقَدُوا، فَلَمَّا هَمُّوا بِالْدُّخُولِ فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ ﷺ فِرَارًا مِّنَ النَّارِ، أَفَنَدْخُلُهَا؟ فَبَيَّنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَمَدَتِ النَّارُ، وَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ».⁹⁶

كانت طاعة الأمير مأمورًا بها، ثم جاء البيان النبوي بحدّها. لا يكتسب الأمر المحرم مشروعية لأن صاحب سلطة طلبه. نتلقى القاعدة من قوله ﷺ، ونحفظ للخبر سياقه؛ فلا نستخرج منه حكمًا على كل خلاف مع مسؤول، ولا نجعل مجرد كراهة النفس لأمر دليلًا على أنه معصية.

96 حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، حديث ٧١٤٥، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قد لا يشبه ضغط يومك صورة هذه السرية، لكن الحاجة إلى معرفة حد الطاعة تتكرر. يطلب رئيس عمل معلومة غير صحيحة لتظهر النتيجة أفضل، أو يتوقع أصدقاء مشاركة في كلام تعلم أنه يظلم غائبًا، أو يدعوك قريب إلى تصرف يغيب فيه حق طرف آخر. قبل أن تختار الجواب، عرف الفعل المطلوب وحكمه، وافصل بين الذي يلزمك وبين الرغبة في ألا يغضب أحد منك.

لإرضاء الناس موضع حسن حين يكون في معروف. تحسن العبارة، وتوفي بالعهد، وتعتذر عن تقصيرك، وتراعي قدرة من تعمل معه. هذه أعمال قد تكون من طاعة الله نفسها. يختل الميزان حين يصير رضا شخص شرطًا تقبل لأجله مخالفة تعلمها. تستطيع أن تحب تقديره، ثم تحتل نقصه في موقف تختار فيه الحق؛ لا يلزم أن تنزع رغبتك في المودة حتى تصح فعلاً واحداً.

تطلب من موظفة توقيع تقرير ينسب إنجازًا لم يقع. تعرف ما شهدته، وتعرف أن التوقيع إثبات. تبين حدود المعلومة، وتعرض تصحيح التقرير، وتستخدم الإجراء المناسب إن بقي الضغط. لا تحتاج إلى خطبة عن فساد الجميع، ولا إلى توقيع تعلم بطلانه لتبقى صورتها لطيفة. تفاصيل المسؤولية

والمخاطر تحتاج إلى من يحسن النظر فيها، لكن الصدق في بيان ما تعلمه يظل أساسًا لا تلغيه مجاملة.

وربما كانت الكلفة مجرد كلمة يكرهها السامع: لن أستطيع المشاركة في هذا الكلام. يمكنك أن تقولها برفق، وأن تقترح موضوعًا آخر، وأن تنصرف إذا احتجت بالطريقة المناسبة. لا تحكم على قلوب الجالسين، ولا تسع إلى إذلالهم لتظهر ثباتك. قصدك حفظ ما يلزمك، وربما فتح لطفك مجالًا ليراجعوا ما قالوا. نجاحك في ذلك لا يقاس بأن يوافقوك فورًا.

وفي صلة الوالدين يتأكد الفرق بين ترك المعصية وحفظ البر. بين ابن باز أن الطاعة تكون في المعروف، وأن الامتناع من المعصية يصحبه إحسان وكلام طيب وصلة، ولا يصير مبررًا للعقوق.⁹⁷ لذلك لا تحمل جوابًا عامًا على كل طلب يخالف رغبتك؛ قد يكون طلبهما معروفًا يلزمك، وقد تكون الصورة محتاجة إلى فتوى. صفها بأمانة، واذكر القدرة والضرر والحقوق المؤثرة، ثم تعلم ما يجب عليك فيها.

من أسباب ضعف الموقف أن تسأل عن أصعب نتيجة قبل أن تعرف الفعل نفسه. تتصور أن كل اعتذار سيؤدي إلى خسارة

97 عبد العزيز بن عبد الله بن باز، جواب «الضابط في طاعة الوالدين»، التفريغ المنشور للجواب، موضع الجمع بين الطاعة في المعروف والامتناع من المعصية مع حفظ البر والصلة.

العمل أو الصداقة، فتوافق قبل أن تجرب بيئاً هادئاً أو بديلاً صحيحاً. وفي المقابل قد تكون المخاطر حقيقية؛ عندئذ تحتاج إلى مشورة وخطة تحفظ سلامتك وحقوقك. لا نعدك بأن كل صاحب حق سيحسن الرد، ولا نحول الخوف إلى إذن عام بكل ما يطلب منك. للإكراه والضرورة أحكام تتعلم في صورتها، وليست كلمات يصنع بها الإنسان عذراً مجهول الحد. وتستطيع أن تراجع ما تعودته لسانك تحت ضغط القبول. تقول: لا مشكلة، وأنت تعلم أن في الأمر مشكلة. أو تعد بما لا تقدر عليه، ثم تبحث عن عذر بعد انقضاء الموعد. صدق الوعد أحياناً في تقليل ما تعد به من البداية. قد تكون العبارة الأقصر أصدق وأرحم: أستطيع هذا الجزء، وأحتاج في الباقي إلى وقت أو مساعدة. حفظ الحد في المباح يدربك على وضوح أكبر حين يشتد الطلب.

أما إذا أخطأت خوفاً من الناس، فلهذا الخطأ رجوع. تعترف بالفعل في موضعه، وتصلح ما يلزم، ولا تجعل استعادة صورتك عند الجميع شرطاً للإصلاح. قد يحسن أن تستعين بشخص أمين يثبت معك ما تعرفه، وأن تقلل مجلساً يتكرر فيه الضغط. هذه وسائل تختار بحسب الحال؛ غرضها حماية العمل الذي عزمته، لا بناء خصومة مع كل من لم يوافقك.

تصدق المحبة لله هنا في كلفة قد لا يراها أحد: كلمة تحفظ بها أمانة وأنت تخشى ثقلها. قدمها بعلم وأدب، واعرض عونًا مباحًا تستطيع الوفاء به. إذا بقي شخص غاضبًا، فلا يحمل غضبه وحده حكمًا على صوابك أو خطئك؛ ارجع إلى حقيقة ما فعلت وحكمه. وتعلم أن المودة التي تطلبها تكون أصفى حين لا تدفع ثمنها من حق الله أو من حقوق خلقه.

٥١ | كلام أكبر من العمل

قد يقدر الإنسان على وصف المحبة أكثر مما يقدر على صحبتها. يحسن الحديث عن الشوق، ويحفظ عبارات عن القرب، ثم يؤجل عملاً يعرف أنه يصدق ما قال. لا تكون المعالجة بإسكات كل كلمة طيبة؛ يحتاج اللسان إلى أن يتصل باختيار معلوم، ويحتاج القلب إلى أن يتعلم كيف يصلح المسافة بين دعواه وعمله.

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.⁹⁸

يبين السعدي قبح مدح الإنسان نفسه بخير لا يفعله، أو تنزيهها عن شر هو متصف به. وتدعونا الآيتان إلى أن يكون للكلام صدقه في الحياة. من قال خيراً ثم وجد في نفسه تقصيراً، احتاج إلى إصلاحه، لا إلى صناعة وصف جديد يخفيه عن نظره.

98 القرآن الكريم، الصف: ٢-٣؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآيتين.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صَوْرَتِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ».⁹⁹

جاءت القلوب والأعمال معاً في هذا اللفظ. لا يسوغ أن يؤخذ منه عذر لإهمال العمل بحجة صلاح القلب، كما لا تجعل صورة العمل وحدها كشفًا كاملاً لسر صاحبه. يحاسب الإنسان نفسه في الجهتين، ويتلقى أحكام الأعمال من الشرع. والحديث لا ينفي علم الله بصور الناس وأموالهم؛ يرد النظر إلى موضع الاعتبار، حيث لا تغني الهيئة عن حقيقة القلب والعمل.

في هذا الباب إشكال قريب: هل أتكلم عن الخير وأنا مقصر فيه؟ لا يجعل نقصك كل بيان صحيح محرماً، ولا يعفيك من واجب تعليم أو نصيحة لزمك. تقول ما علمته بأمانة، وتجاهد نفسك على العمل به، وتتجنب تزكيتها بما لم تحقق. تستطيع أن تذكر فضل خلق وأن تقول إنك تحتاج إلى تعلمه أيضاً. صدق هذه العبارة يحفظ حق السامع في العلم، ويحفظ عليك واجب الإصلاح.

⁹⁹ حديث صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذه واحتقاره ودمه وعرضه وماله، حديث ٢٥٦٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ اللفظ الذي يجمع القلوب والأعمال.

يكتب شخص عن الرفق كتابة نافعة، ثم يرى من نفسه حدة متكررة في البيت. الرسالة الصحيحة لا تمحو أثر صوته عند أهله، وغلظته لا تجعل الرفق الذي وصفه معنى باطلاً. يعود إلى الواقعة التي يعرفها، فيعتذر ويغير سبباً، ويستمر في تعلم الحق. وإذا وصف نفسه في كتابته بأنها قدوة لا تخطئ في ذلك، صحح الدعوى. لكل موضع إصلاحه، بدل أن يخلط الفكرة الصحيحة بصورة زائفة عن صاحبها.

قد يتسع الكلام لأن له مكافأة سريعة. يستحسن الناس عبارة عن المحبة، فيبحث الكاتب عن عبارة أبلغ منها. أما العمل الذي تحتاجه حياته فبطيء قليل الجمهور: رد جواب تأخر، أو إصلاح نبرة، أو إتقان أمانة. يستطيع أن يسأل نفسه: ما الذي بقي في يومي من المعنى الذي شرحت؟ السؤال لا يتهم كل كتابة، بل يعيد للبيان صلته بالحياة التي يفترض أن ينفعها.

ومن الحماية أن تفرق في لغتك بين ما تعلمته وما طبقته وما ترجوه. تقول: ورد في الحديث كذا، أو فهمت من الشرح هذا المعنى، أو أسأل الله أن يعينني عليه. أما أن تحكي تجربة لم تقع لتقع السامع، فذلك كذب لا يزينه مقصد الدعوة. يمكن للمثال المتخيل أن يؤدي وظيفة تعليمية إذا عرف القارئ أنه مثال، وتبقى للتجربة الحقيقية أمانة نقل ما وقع دون إضافة ترفع منزلة صاحبها.

وقد يستعمل شخص حسن نيته خاتمة لكل مساءلة: أنا أحب الله، وأنا أردت الخير، فلا تسألوني عما وقع. حسن القصد لا يجعل الفعل مشروعاً بمجرد، ولا يمحو ضرراً ثبت. يستطيع أن يرجو أنه أراد خيراً، وأن يعترف في الوقت نفسه بأنه اختار وسيلة خاطئة. الاعتراف يعطيه طريقاً للإصلاح؛ أما الدفاع عن كل فعل لحماية صورة القلب، فيبقيه بعيداً عن العلم الذي يحتاج إليه.

وتحتاج المحاسبة إلى حد يحفظها نافعة. لا تطلب دليلاً شعورياً لكل عمل، ولا تحول يومك إلى سؤال متكرر: هل أنا صادق حقاً؟ عين الفعل الذي تعلم حاجته إلى إصلاح، وابدأ به، واسأل الله صلاح قصدك. وإذا أدبت ما يلزم، فانتقل إلى بقية يومك. لا تستطيع من ورقة متابعة أن تحيط بالقبول، ويمكنك منها أن تعرف أن وعداً نفذ أو حقاً أعيد أو موعداً حفظ.

وعند النظر إلى غيرك، يبقى الفرق بين نقد القول والحكم على السريرة. قد تجد كلاماً يخالف عملاً ظاهراً، فتصف الخل بقدره إن دعت حاجة صحيحة إلى بيانه. لا تملك من ذلك أن تجزم بخلو قلب صاحبه من المحبة كلها. وربما تاب مما رأيته، أو كان في الصورة ما لم تعلمه. الحقوق التي ثبتت تعالج، والدعاوى تفحص، وما غاب عنك يترك لله.

اختر عبارة عن المحبة تكثر على لسانك، ثم ابحث عن عمل قريب يصدق معناها. إن كنت تذكر اتباع النبي ﷺ، فتعلم حكم عمل يتكرر في يومك. وإن كنت تتحدث عن رحمة الله، فلتعينك المعرفة على توبة معلومة وإحسان مشروع. لا يلزم أن تزيد الكلام بعد ذلك؛ دع للعمل زمنًا يستقر فيه، ثم تحدث بما تعلم دون أن تزكي نفسك بما ترجوه.

للکلمة الصادقة أثر، وللعمل الذي يليها أمانة. اسأل الله أن يصل ما تعلمه بما تختاره حين ينصرف السامعون.

٥٢ | القسوة باسم الغيرة

عن عائشة رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ، أنها قالت:
«مَا خَيَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَحَدَ أُيَسَّرَهُمَا مَا لَمْ
يَكُنْ إِيْثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِيْثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ».¹⁰⁰

يجمع الخبر أخذ اليسر المشروع واجتناب الإثم، ويفرق بين
حظ النفس وحرمة الله. نحتاج إلى هذا الفرق حين نغضب
ونسمي كل ما غضبنا له غيرة على الدين. قد يكون في الأمر
مخالفة تستحق البيان، وقد يختلط بها أثر إهانة أصابت
صورتنا أمام الناس. معرفة هذا الاختلاط تعين على إصلاح
الوسيلة؛ ولا تغير الحكم الصحيح الذي دل عليه الشرع.

محبة الله تحمل المؤمن على تعظيم ما عظم الله. يعرف
حرمة الأمر من دليله، ويرغب في حفظه بالعمل المشروع.
فإذا تجاوز في الإنكار إلى كذب أو ظلم أو إيذاء محرم، احتاج
التجاوز نفسه إلى إصلاح. لا تكتسب الوسيلة مشروعيةً من

100 حديث صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب مباحثته ﷺ للآثام
واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماته، حديث ٢٣٢٧، عن عائشة رضي
الله عنها؛ الرواية المبدوءة بـ«ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين».

صدق الغرض، ولا تكون الغيرة إذناً باتخاذ عقوبة يفرضها الإنسان على غيره بغير حق أو ولاية.

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.¹⁰¹

الشنآن البغض. ويبين السعدي أن بغض القوم لا يسوغ ترك العدل معهم أو رد حق جاء على لسانهم. سبق النظر في أثر محبة القريب على الإنصاف؛ وهنا يظهر الطرف الآخر: قد تكره خطأ شخص، فيغلبك بغضه حتى لا تبقي له الحق الذي ثبت. تعظيم ما أمر الله به يحتاج إلى العدل في الحاليين.

يسمع أب من ابنه قولاً خاطئاً في أمر ديني. يستطيع أن يوقف القول، ويسأل عما فهم، ويبين الصواب الذي يعرفه أو يستعين بمن يحسن البيان. وإذا بدأ بإذلاله أو نسب إليه اعتقاداً لم يقصده، أضاف مشكلة إلى أصل الخطأ. تربية الابن وحفظ البيت لهما أحكامهما، والوسيلة تختلف بحسب السن والحال؛ فلا تعطي عبارة عامة عن الغيرة إذناً بضرب أو تهديد أو إكراه لا يعرف صاحبه حكمه.

101 القرآن الكريم، المائدة: ٨؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

وقد يقع الخلط في نقاش علني. تريد تصحيح نسبة حديث، فيرد عليك أحدهم بعبارة تقلل من شأنك. صار أمامك الآن أمران: أمانة النص، وأذى وقع عليك. احفظ لكل منهما حجمه. تثبت الصحيح بدليله، وتستطيع أن تضع حدًا للإهانة بالطريق المشروع. أما أن تزيد تهمة على المخالف أو تسخر من عيب في شخصه كي تنتصر، فذلك لا يخدم الحديث الذي أردت صيانتَه.

ومن وسائل التثبت أن تصف المخالفة وصفًا يمكن فحصه. ماذا قيل؟ وما الدليل على خطئه؟ وما الذي يحتاج السامع إلى تصحيحه؟ قد تكتشف أن اللفظ نقل ناقصًا، أو أن المسألة من خلاف معتبر يحتاج إلى بيان، أو أن الخطأ ثابت فعليًا. في كل حال يكون جوابك أدق حين يعرف مقدار ما أمامه. الحدة التي تسبق الفهم قد تثبتك في موقف تحتاج بعده إلى رجوع أصعب.

وللتصحيح حدود في النشر كذلك. ما يحتاجه القارئ لإزالة خطأ لا يفتح كل تفاصيل حياة صاحبه. تصحح النص وتبين نسبته، وتحفظ من الخصوصية ما لا تتعلق به حاجة مشروعة. وإذا كان هناك خطر أو اعتداء يتطلب إبلاغًا، قصدت من يملك معالجته وقدمت المعلومات كما علمتها.

الفرق بين بيان يحفظ حقًا وتشهير يوسع الأذى يتعلم بحسب الواقعة؛ فلا يغني عنه الشعور بأنك غضبت لله.

وقد يحتاج الموقف إلى حزم أو إيقاف ضرر أو الرجوع إلى صاحب الصلاحية. اختر ما تعرف مشروعيته وتقدر عليه؛ فإن خشيت أن يتجاوز كلامك الحق، فتوقف حتى تستبين عبارتك أو استعن بأمين.

وكما تمنع الغيرة من تجاوز الحد، تمنع الرحمة من تميميع المخالفة. تستطيع أن تقول إن الفعل خطأ، وأن يظل في خطابك مجال لتوبة صاحبه وتصحيحه. لا يلزم أن تصف الحرام بعبارة توهم إباحته كي تكون رقيقًا؛ يكفي أن تقول الحق بقدره، وتترك الزيادة التي لا تخدمه. ما يعين المخطئ على معرفة الطريق أحسن من أن يخرج من الحوار حافظًا إهانتة وحدها.

ومن العلامات التي تراجع بها نفسك استعدادك للتصحيح إذا ظهرت معلومة جديدة. هل تقبل أن الفعل لم يقع كما سمعت؟ هل تعتذر عن نسبة زائدة؟ هل تفرح بانتهاء الخطأ وإن لم يكن لك في ذلك ظهور؟ هذه أسئلة عن سلوك تستطيع ملاحظته، وليست شهادة قاطعة على النية. قد تكشف موضعًا يحتاج إلى مجاهدة، فتصلحه دون أن تترك أصل الأمر بالمعروف الذي تعلمه.

للمحبة حرمة تحفظها، ولمن تخاطبه حقوق تبقى معه. تعلم الحكم، وتثبت من الواقعة، واختر وسيلة يقرها الشرع، ثم صح بقدر الحاجة. حين تلتقي الغيرة بالعدل، يكون طلبك أقرب إلى إصلاح خطأ حقيقي، ويقل ما يختلط به من طلب انتصار للنفس. وتبقى محتاجاً إلى الله أن يصلح قلبك وعبارتك وعملك، وأنت تسعى إلى ما يحبه.

٥٣ | قدوة تحفظ لها منزلتها

قد يفتح لك معلم باباً من الخير، فتزداد محبتك له واعترافك بفضله. ومن الوفاء أن تشكره وتنتفع بعلمه. ثم تحتاج هذه المحبة إلى حد يحفظها؛ فلا ينتقل الشخص من سبب نافع إلى مرجع مطلق يحكم لك في كل مجال، ولا تتوقف صلتك بالحق على صورة لا تحتل منه خطأ.

تقدم أصل الاتباع في محبة الله، وكون الرسول ﷺ هو الذي يتبع في هديه.¹⁰² أما سائر الناس فيؤخذ من قولهم ويرد بحسب العلم والدليل. تعرف للقدوة فضلها دون أن تمنحها عصمة، وتسأل عن التخصص والصلاحية في المسألة؛ فقد يحسن إنسان باباً من التعليم ويحتاج هو نفسه إلى سؤال في باب آخر.

قد يقول لك من تثق به رأياً في معاملة يحتاج حكمها إلى فقه لا يشتغل به. تستطيع أن تحفظ له احترامه وتقول إنك تحتاج إلى جواب متخصص. ليس السؤال جفاءً، وليس تأجيل العمل بالرأي إعلاناً أنك جحدت جميع فضله. المحبة التي تتسع لهذا البيان أقدر على أن تبقى نافعة للطرفين.

102 القرآن الكريم، آل عمران: ٣١؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية، النص الرقمي في المصحف الإلكتروني بجامعة الملك سعود.

ويظهر التجاوز حين يصير الدفاع عن الشخص مقدماً على التثبت. يُنقل عنه قول فتسارع إلى إنكار النقل لأنك تحبه، أو يظهر خطأ ثابت فتبحث له عن تفسير يغير معناه. الأمانة تبدأ بمعرفة ما وقع، ثم بوزنه بقدر علمك. تحفظ حقه في السياق والإنصاف، وتحفظ حق المتضرر في بيان ما أصابه.

ومن احترام القدوة أن تترك لها حدود قدرتها. قد تحتاج إلى جواب سريع، وهي لا تستطيعه، أو تريد منها متابعة خاصة لا تملك وقتها. لا تحمل تأخر الرد حكماً على محبتها لك. اطلب العلم من طرقه المتاحة، وتعلم كيف تعرض سؤالاً واضحاً، واعرف أن المعلم لا يستطيع أن يقوم باختيارك وعملك بدلاً عنك.

وقد يظهر من صاحبك تقصير أثر في ثقتك. خذ وقتاً لفهمه، واطلب البيان المناسب، وراجع نطاق العلاقة بحسب ما ثبت من ضرر. يمكنك أن تعترف بما وصل إليك من خير، وأن تتوقف عن اتباع خطأ، وأن تختار مصدراً أوثق في المسألة. حفظ التاريخ النافع لا يفرض استمرار علاقة مؤذية، وتصحيح العلاقة لا يفرض محو كل فضل مضى.

وفي تقديم القدوات للآخرين، أمانة تحفظ حدود معرفتك. تذكر علماً قرأته أو خلقاً رأيته، ولا تزكي كل باطن الشخص، ولا تضيف قصصاً تؤثر في السامع دون أصل. قد يكون المثال

الصغير الثابت أنفع من صورة كاملة اخترعتها له. يحب القارئ الخير الذي عرفه، ويتعلم أن فضل القدوة لا يجعلها معصومة. القدوة النافعة تقربك من المرجع الصحيح، وتعينك على التعلم والمسؤولية. احفظ لها حق الشكر، ودعها في منزلتها البشرية، وخذ ما صح لك من الخير. كلما كانت محبتك لله أوضح، صارت محبتك لمن يعلمك أقل عرضة للغلو وأقدر على الوفاء العادل.

٥٤ | ما يدخل قلبك عبر الشاشة

قد تبدأ متابعةً للانتفاع، ثم تتسع حتى تصبح حديثًا يصحبك في كل فراغ. ترى ما يستحسنه صاحب المحتوى وما يسخر منه، وتألف طريقته، ثم تجد أثرها في اختيارك دون أن تتذكر متى بدأ. ما يدخل عبر الشاشة مادة يتلقاها القلب، ويحتاج إلى نظر كما تحتاج المجالس إلى نظر.

وسياتي مثل الجليس الصالح وجليس السوء وشرح أثر الصحة في الفصل ٥٨.¹⁰³ لا نجعل كل متابعة على الشاشة مساوية لجميع أحكام الصحة المباشرة؛ لكن يمكن أن نستفيد تربويًا من أصل تأثير ما يتكرر تلقيه. تسأل عن المحتوى وأثره الظاهر، وعن الوقت الذي يأخذه، وعن الشيء الذي يزاكمه من حق وعمل.

قد تكون المادة نافعة، لكن مقدارها يضيق عن واجباتك. تسمع ساعات عن المحبة، ثم تؤخر صلاة أو مسؤولية معلومة. هنا يحتاج الاستخدام إلى تنظيم، ولو أحببت المحتوى. تستطيع أن تحتفظ بمصدر واضح، وأن تحدد

103 حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، حديث ٥٥٣٤، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

سؤالاً تتعلمه، وأن توقف التشغيل عندما يحين ما عليك. قيمة الموضوع لا تمنح الوسيلة حقاً مفتوحاً في يومك.

وقد تكون المشكلة في اللغة التي تألفها. سخرية من متدينين، أو تعميم على قوم، أو تعظيم لمخالفة، أو انتقاص لمن يطلب العلم. قبل أن تحمل هذه اللغة إلى مجلسك، اسأل عما تعرفه من صحة القول وحكمه. إذا كان ضررها يتكرر، قللت المتابعة أو أوقفتها، وبحثت عن بديل أنفع؛ من غير أن تدعي إحاطة بقلب صاحبها.

ومن التلقي ما يعرض حياة الناس في صورة تختار أكثرها لفتاً. تظل تقيس رزقك وبيتك وشعورك بما رأيت، فتفقد القدرة على معرفة واقعك. راجع مقدار العرض الذي تختاره، وارجع إلى حاجة محددة تستطيع العمل عليها. لا تحتاج إلى اتهام أصحاب الصور كي تخفف هذا الأثر؛ إنما تعالج ما تعرفه من علاقتك أنت بالمادة.

وفي النشر مسؤولية مستقلة. ربما كان المقطع مؤثراً، لكن فيه قول منسوب لا تعرف أصله، أو تصوير لحال شخص لم يأذن. تستطيع ألا تنشره حتى تثبت، أو أن تنقل معنى صحيحاً بكلامك مع نسبته إلى نفسك. سرعة المشاركة لا تعفي من أمانة النسبة وحقوق من يظهرون في المادة.

اختر وسيلة تناسب حياتك: إيقاف تنبيه، أو حفظ درس لوقت آخر، أو إلغاء متابعة يتكرر ضررها. راجع أثرها في وقتك ومعرفتك وعدّلها عند الحاجة؛ فقيمتها فيما تعينك عليه من علم وعمل.

امنح قلبك مادة تتعلم منها الحق، وامنح يومك فرصة تعمل فيها به. قد يكون من صدق المحبة أن تغلق مادة نافعة وقتًا، لتؤدي حقًا علمتك المادة نفسها أنه مقدم. ينتفع التلقي حين يجد له حدًا ومعنى وأثرًا، وتبقى أنت مسؤولاً عن اختيارك وراء الشاشة.

٥٥ | خبر توافقه رغبتك

تصلك قصة عن شخص تحبه، فتجدها مؤثرة وسهلة التصديق. وقد يصلك خبر يذم من تخالفه، فتشعر براحة تؤجل السؤال عن أصله. للرجبة أثر في طريقة استقبال الأخبار؛ ومحبة الله تدعوك أن تحفظ الصدق حين يوافق الخبر قلبك كما تحفظه حين يخالفه.

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾¹⁰⁴

تأمر الآية بالتبين خشية إصابة قوم بجهالة ثم الندم. لا نستخرج منها أن كل خبر محبوب صحيح، أو أن كل ناقل مختلف معه فاسق. المقصود أن نعرف وظيفة التحقق وأثر الخبر قبل بناء فعل عليه، وأن نحفظ للناس حقهم في ألا يؤذوا بسبب رواية لم تضبط.

ما الأصل الذي وصلت منه المعلومة؟ هل الناقل شاهد أم يلخص ما سمع؟ هل نعرف التاريخ والسياق؟ هل تغير المعنى عند اقتطاع الكلمات؟ قد تكون إجابة بعض هذه الأسئلة

104 القرآن الكريم، الحجرات: ٦؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

مجهولة، فتكون النتيجة التوقف عن النشر أو الحكم، لا ملء
النقص بظن يوافق محبتك. تستطيع أن تقول إنك لم تثبت
بدل أن تصدر حكمًا أقوى مما تعرف.

وفي الأخبار عن الصالحين، لا تجعل الأثر الوجداني دليلًا على
صحة النسبة. ارجع إلى أصل الخبر قبل أن تحكيه واقعة
ثابتة، ومميز ما تحقق مما بقي محل نظر. وما ثبت من سيرتهم
يغني عن قصة جميلة لا يُعرف أصلها؛ فلا تُبنى عليها عقيدة
أو أحكام أو دعاوى عن الغيب.

وقد يحتاج الخبر إلى جهة تستطيع التحقق، لا إلى مناقشة
عامة في مجموعات الناس. إذا تعلق باتهام أو حق أو سلامة،
فاحفظ الخصوصية واختر الطريق المناسب. لا تعرض أطرافًا
لتشهير لا يلزم للوصول إلى البيان. الإحالة إلى صاحب
الصلاحية قد تكون عملاً ضروريًا، ويظل الكلام في حدود
الواقعة التي تعرفها.

وإذا شاركت خبرًا ثم تبين خطؤه، فصحح النسبة في الموضع
الذي وصل إليه بقدر استطاعتك. لا يكفي أن تحذف النسخة
من عندك وتترك أثرها عند الآخرين إذا أمكن بيان الخطأ.
تستطيع أن تعترف بما وقع دون حكاية طويلة عن حسن
قصدك. حق المتضرر في التصحيح مقدم على رغبتك في أن
يخرج الاعتذار مريحًا لصورتك.

ومن معرفة النفس أن تراجع الأخبار التي تختار التثبت منها. هل تسأل كثيرًا عندما يمدح الخبر مخالفًا لك، وتسأل قليلًا حين يذمه؟ هذا سؤال تشخيصي عن سلوكك، يمكنك أن تغير به إجراء النشر. اعتمد معيارًا أصدق للأصل والسياق والأثر، لا حرارة الموافقة. قد يبقى الميل في القلب، وتمنع الجوارح من أن تجعله ظلمًا.

محبة الحق تحتاج إلى هذا الهدوء قبل التعليق. لست مطالبًا أن تكون لك كلمة في كل خبر، ولا أن تحسم ما لم يتبين. احفظ ما تعلم، وبيّن ما جهلت، وشارك ما صح نفعه ونسبته. ربما كانت أجمل خدمة لمن تحب أن تمنع عن اسمه قصة جميلة لم تثبت.

٥٦ | غلو يفسد المحبة

قد يبدأ التعلق بتقدير مشروع، ثم يطلب صاحبه من المحبوب ما لا يملكه. يعظمه حتى يمتنع عنده الخطأ، أو يجعل رضاه باباً لا يجوز مخالفته، أو ينسب إليه تصرفاً في الغيب. يحتاج هذا الانحراف إلى بيان يحفظ محبة الصالحين في حدها، ويصون جهة العبادة لله وحده.

تقدم أصل آية الأنداد، والفرق بين محبة العبادة والمحبة الطبيعية.¹⁰⁵ والغلو ليس اسماً لكل تقدير قوي؛ نعرفه بما تجاوز من حد شرعي وبالفعل أو الاعتقاد الذي ثبت. تستطيع أن تحب صالحاً وتدعو له وتنتفع بعلمه، من غير أن تنسب له خصائص الربوبية أو تصرف إليه ما اختص الله به من عبادة.

ومن صور التجاوز أن يزعم معلم أنه يعلم سريرتك، وأن اعتراضك عليه يكشف فساد باطنك. قد يستدل الإنسان على بعض الأحوال بما يسمع ويرى، وقد يخطئ في استدلاله؛ فلا تجعل ظنه علماً بالغيب، ولا تقبل أن تُمنع من السؤال باسم معرفته بقلبك. اعرض ما التبس عليك على أهل علم موثوقين.

105 القرآن الكريم، البقرة: ١٦٥؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

وقد تكون الصورة أخف من دعوى الغيب، لكنها مؤذية: شخص يطالب بطاعة مطلقة لأنه صاحب فضل قديم. تحفظ فضله، وتؤدي حقوقه المعلومة، وتتعلم حكم ما يطلب. لا تصير كلمة المحبة إنذاراً بأن يأخذ وقتك أو مالك أو أسرارك بلا حد. العلاقة التي تنفعلك تقبل أن تسأل وتفهم وتقول إن هذا خارج قدرتك أو حقه.

وفي الكلام عن الرسول ﷺ نحفظ مقامه بما شرع. نصدقه فيما أخبر، ونتبعه في أمره، ونحبه على ما جاء به الدليل؛ ولا نضيف إلى منزلته وصفاً يخالف التوحيد أو نثبت خبراً عنه لم يتحقق. من عظم المحبة أن تكون أُميئاً في النسبة، وأن تترك المبالغة التي تبدو مدحاً وهي تخرج عن البيان الصحيح.

وقد يستعمل شخص هذا الباب ذريعة للجفاء، فيصير كل شكر لمعروف غلوّاً عنده. ليس هذا مراداً. تُعرف الحقوق والفضائل من نصوصها، ويُشكر الناس على إحسانهم، وتحفظ القرابة والصحة مكانهما. نمنع التجاوز المؤثر، ولا نحمل كل كلمة دافئة على أسوأ معنى تحتمله. الفهم العادل يحتاج إلى السياق والقدر.

وللحكم على اعتقاد أو فعل حد، وللحكم على شخص بعينه بحث آخر. لا يستخدم القارئ ما تعلمه لإصدار أحكام كبرى على الناس دون علم بشروطها. إذا عرضت صورة تحتاج إلى

بيان، سأل أهل العلم عنها بصدق، ووصف ما وقع دون زيادة. يحفظ لنفسه عبادة الله، ويدفع الضرر بالطريق المشروع، ويقف عند حدود معرفته.

محبة تنضبط بالوحي تبقى أقدر على النفع. تحفظ للمحبوب حقه، وللحق مرجعه، وللعبادة جهتها. فإذا احتجت إلى تقليل علاقة أو ترك قول باطل، استطعت فعل ذلك من غير أن تهدم كل محبة صحيحة؛ لأنك عرفت أولاً ما الذي يحفظها وما الذي يفسدها.

الباب الثامن: صحبة المعنى في الحياة

٥٧ | اختيار واحد تصدق فيه

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ:
«لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ
طَلْقٍ».¹⁰⁶

يفتح الحديث للمعروف بابًا قريبًا من لقاء عادي. لا ينتظر الإنسان مشروعًا كبيرًا كي يحسن، ولا يستصغر خيرًا ثبتت مشروعيته لأن الناس اعتادوا صورته. وطلق الوجه المذكور عمل في موضعه، لا تكليف بأن يمثل المتألم بشاشة دائمة، ولا حكم بأن كل ابتسامة تؤدي حق من أمامه كله.

تحتاج المحبة أحيانًا إلى اختيار حاضر أكثر من حاجتها إلى خطة بعيدة. بين يديك فعل تستطيع أن تفعله اليوم، وربما أجلتته لأنك رأيت أثره صغيرًا. هنا تسأل: أي معروف مشروع يحتاجه هذا الموقف، وما الذي أستطيع بذله فيه؟ يختلف السؤال عن برنامج المداومة؛ فذاك يحفظ عملاً عبر الأيام، وهذا يريك حق اللحظة التي تعيشها الآن.

قد تدخل مكانًا لا يعرفك فيه أحد. تستطيع أن تسلم، وأن تحفظ النظام الذي ينفع الناس، وأن تجيب من يحتاج إلى

106 حديث صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، حديث ٢٦٢٦، عن أبي ذر رضي الله عنه.

معلومة تعرفها. وقد يعود إليك عامل بعد خطأ يسير في خدمة، فتطلب التصحيح بوضوح وتحفظ كرامته. المحبة لله تجعل لهذه المعاملة جهة أوسع من تحسين صورتك أمام من يرجح أن تراه ثانية. تفعل خيراً لأنه خير، وترجو ثوابه، ولو انتهى اللقاء ولم يعرف صاحبه اسمك.

يجد طالب زميلاً جديداً يبحث عن قاعة الدرس. وقت الطالب ضيق، لكنه يعرف المكان. يستطيع أن يبين الطريق بكلمة واضحة، أو يرافقه بقدر ما لا يضيع واجبه. ليس محتاجاً إلى وعد كبير بمعونة مستمرة لا يملكها. المعروف الذي يناسب القدرة والحاجة يترك الآخر على بينة؛ أما المجاملة الغامضة فقد تستهلك وقته دون أن تدله.

وقد يكون الاختيار في الامتناع عن زيادة مؤذية. تصل إليك صورة لخطأ شخص، فيعرض عليك مجلسك نشرها للسخرية. تعرف أن ترك المشاركة يحفظ من عرضه ما لا تدعو حاجة صحيحة إلى كشفه. تستطيع أن تكف، وأن تذكر ما يلزم بلطف إذا أحسنت البيان. لم يحدث مشروع ظاهر، لكن موقفاً معلوماً تغير لأنك اخترت حدّاً تعرفه. لكل صورة حكمها، ولا تستخرج أحكام النشر من مجرد رغبة في الصمت أو الكلام.

والمعروف يحتاج إلى سؤال صاحبه أحياناً. قد تختار مساعدة تريحك أنت، ثم يتعب بها من قصدت نفعه. تعرض

ما تستطيع وتسمع حاجته، وتحترم اعتذاره إذا كان له حق الاختيار. في خدمة مريض مثلاً قد تكون حاجته إنجاز مهمة قصيرة أكثر من زيارة طويلة. تفاصيل الرعاية تتعلم من أهلها، وما تقدمه من عون ينبغي أن يصحب علماً بحدّه.

ومن صدق الاختيار أن تؤديه كما اتفقت عليه. تقول إنك ستوصل معلومة، فتوصلها صحيحة. تعرض قضاء حاجة، فتعرف وقتها وطريقتها. إذا عجزت، بينت ذلك مبكراً. صغر العمل لا يسقط أمانته؛ وربما كانت الحاجة الصغيرة التي أخلقتها قد أوقفت يوم صاحبها كله. المحبة تراجع القدرة قبل العرض، وتزيد في الإحسان حين تجد وسعاً.

وقد يتأخر شكر من أحسنت إليه أو لا يأتي. لك أن تسأل الله القبول، وأن تصح توقعك، وأن تحفظ حقك إذا كان في الأمر اتفاق يلزم صاحبه. أما المعروف الذي بذلته تبرعاً، فلا تجعل السكوت عنه حجة لإهانة الآخذ. تعلم من التجربة ما يحسن اختيار المساعدة لاحقاً، واترك لما بذلت جهة رجائه عند الله.

وإذا احتجت إلى تذكير يعينك على الوفاء، فسجل الفعل وموعده دون أسماء أو أسرار لا تلزم. يكفي أن تعرف أن حاجة أديت في وقتها.

حين تواجه غداً موقفاً عادياً، أعطه قدرًا من الانتباه. قد يكون الخير الممكن سلامًا، أو بيانًا، أو خدمة، أو كف أذى. اختر ما تعرف مشروعيته، وأدّه بقدر قدرتك، ثم امض إلى واجبك التالي. يظل المعروف صغيرًا في حساب الوقت، وقد يكون به في علاقتك بالله معنى كبير ترجوه دون أن تجزم لنفسك بمنزلة.

٥٨ | صحبة تعينك على المحبة

عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً».¹⁰⁷

يُحْذِيكَ: يعطيك. والكبير ما ينفخ به الحداد. يبين المثل أثر الصحبة حتى حين لا يقصد الجليس تعليمك مباشرة. تسمع لغته، وترى ما يستحسنه، وتعتاد ما يمر في مجلسه. اختيار من تجلس إليه سبب تستطيع العناية به، مع بقاء مسؤوليتك عن فعلك واختيارك.

والصحبة التي تعينك على محبة الله تدلك على ما يحبه من علم وعمل. قد تجدها في صديق يحفظ الصلاة، أو في مجلس تتعلم فيه فهم القرآن، أو في قريب يسمع منك ثم يعينك على حق قصرت فيه. لا يشترط أن يكون الصاحب كثير وصف الأحوال الوجدانية. قد يوقظك إلى المعروف

107 حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، حديث ٥٥٣٤، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

باستقامة هادئة، ويترك في يومك أثرًا لا تصنعه كثرة الكلام وحدها.

اسأل عن أثر المجلس بعد انقضائه. هل ازددت فيه علمًا صحيحًا؟ هل صار الرجوع إلى واجب معلوم أيسر؟ أم خرجت مستخفًا بما تعلم حرمة، أو محملًا بأخبار تظلم الغائبين؟ هذه أسئلة عن محتوى وسلوك ظاهر؛ لا تصدر بها حكمًا على كل ما في قلوب الجالسين. وربما احتاج مجلس واحد إلى تصحيح موضوعه، وربما احتجت إلى تقليل صحبة يتكرر ضررها.

اعتاد أصدقاء أن يجتمعوا في موعد يفوت معه وقت الصلاة. يستطيع أحدهم أن يقترح تنظيمًا يحفظها، وأن يسأل عن المكان المناسب، وأن يغير حضوره إذا بقي الخل. لا يحتاج أولًا إلى إنهاء كل صلاة، ولا يجوز أن يسمى ترك الفرض ثمنًا للمحبة. يتعلم الحكم الذي يخصه، ويعرض معروفًا واضحًا، ويزن ما استطاع تغييره بالفعل.

والصاحب الصالح يبقى بشرًا يخطئ. تأخذ منه الخير، وتنصحه فيما علمت، وتتثبت من قوله إذا احتجت. لا تحول الثقة به إلى إعفاء من أمانة السؤال عن الدليل. إن تغير فهمك لمسألة، استطعتما الرجوع إلى أهل العلم؛ والمحبة التي نشأت

على طلب الخير تحتل أن يأتي تصحيحها من خارج مجلسكما.

كذلك لا تجعل طلب الصحة النافعة ذريعة إلى إسقاط حق قريب أو جار أو زميل. لك أن تختار مجلسًا يزيدك خيرًا، وتبقى للناس حقوقهم التي شرعها الله. قد تعمل مع شخص لا تختاره جليسًا، فتصون أمانة العمل وتنصفه. وقد يكون لقريب حاجة تلزمك، فتؤديها وتتجنب المشاركة في محرم. حدود المخالطة والضرر تختلف، وتحتاج الصورة المركبة إلى بيان لا توفره تسمية الناس في فريقين.

ومن حسن اختيار صاحب أن ترى ما تقدمه أنت أيضًا. هل يقدر على قول الحق عندك، أم يخشى أن يخسر مودته إذا خالفك؟ هل يجد في المجلس مجالًا للاعتذار والتصحيح؟ اجعل صداقتك مكانًا يمكن أن ينمو فيه الخير، بدل أن تطلب من كل صاحب أن يقوم وحده بإصلاحك. تسمع نصيحته، وتعرف حد طاقته، ولا تحمل تأخر جوابه حكمًا على محبته لك.

قد يطول البحث عن صحة مناسبة. ابدأ بمجلس علم موثوق، أو صلة معتدلة بقريب أمين، أو مشاركة نافعة تحفظ واجباتك. وابن الثقة بالتعارف وما يظهر من أمانة، دون استعجال قرب لا تعرف عاقبته خوفًا من الوحدة.

حين تجد صاحبًا يعينك، اشكر الله واحفظ للصدقة أدبها. تنتفع به وينتفع بك، وتبقى لله جهة العبادة وللإنسان حق الصلاة. لعل من أجمل أثر الصحبة أن يصبح القيام بخير تعرفه أيسر، وأن تجد من يذكرك به حين تنسى؛ ثم تقوم أنت بالخطوة التي لا يستطيع أحد أن يؤديها بدلاً عنك.

٥٩ | العودة إلى القرآن

ترجع إلى آية تعرفها، فيظهر لك من حاجتك إليها ما لم تره أول مرة. كنت قرأتها في سعة، ثم تقرأها بعد خطأ أو فقد أو اختيار صعب. لفظها ثابت، والذي تغير حالك وسؤالك ومقدار انتباهك. للعودة إلى القرآن فائدة أوسع من البحث عن معلومة جديدة؛ تعاهد به معرفة تحتاج أن تصحب أيامك.

قال الله تعالى:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ.﴾¹⁰⁸

يبين السعدي أن التشابه هنا ائتلاف القرآن في حسنه واتفاقه، وأنه تثنى فيه معاني القصص والأحكام والوعد والوعيد والأسماء والصفات. ويربط هذه العودة بحاجة القلوب المتجددة إلى ما يزيكها. فمعرفة المعنى مرة لا تعني أن القلب استغنى عنه، والآية التي حفظتها قد تحتاج إلى أن تعود إلى أثرها في اختيارك.

سبق بيان القراءة التي تفهم فيها الخطاب. وننظر هنا إلى ما يصحبها مع الزمن: كيف تحفظ المعرفة من أن تغلبها رسائل أخرى كثيرة؟ يسمع الإنسان يوميًا كلامًا عن النجاح والقوة والسعادة، وبعضه يترك في نفسه تصورًا لا ينتبه إليه. قد يبدأ في وزن الخير كله بما ظهر من مال أو شهرة، ثم يعود إلى القرآن فيصحح معيارًا اتسع في غفلته. هذه فائدة في الفهم والعمل، ولو لم يكتشف لفظًا لم يكن يعرفه.

صار قارئ يرى كل تعب علامة فشل، لأنه اعتاد محتوى يعده بحياة لا كلفة فيها. يعود إلى سياق يتحدث عن ابتلاء المؤمنين، فيعرف أن التصور الذي حمله أوسع من الدليل الذي عنده. لا يتعلم من ذلك ترك أسباب العافية، بل يعيدها إلى موضعها: يطلب اليسر المشروع، ويعرف أن غياب بعضه لا يسلب حياته معناها كله. تتغير طريقة السؤال لأن المرجع صار أوضح.

وتعاهد المعرفة يشمل جمع ما يضيء بعضه بعضًا. تقرأ في الرحمة، وتقرأ في الأمر والنهي؛ وتعرف سعة الفضل، وتعرف مسؤولية العمل. لا تنتق آية لتلغي بها ما لم يوافق رغبتك من الآيات. إذا التبس وجه الجمع، فارجع إلى تفسير معتبر أو بيان أهل العلم. الافتقار إلى العلم جزء من صحبة القرآن، وليس نقصًا يخفيه الإنسان بإسراع التأويل.

والآية تصف أثر القرآن في أهل الخشية. تتلقى الخبر بالإيمان، وتسأل الله نصيباً من هدايته. لا تحول كل قراءة إلى تفتيش عن قشعريرة أو دمة لتصديق أنها نافعة. قد تنتفع بتصحيح اعتقاد، أو ببيان حكم، أو بالتذكر الذي يردك إلى عمل. والأثر الذي تجده لا يمنح كل خاطر لاحق صفة الهداية؛ يبقى للفهم الصحيح مرجعه، ولتطبيقه على الواقعة أمانة تعلمها.

ومن حدود هذه العودة ألا تجعل المصحف أداة لاستخراج خبر خاص عن المستقبل. تقرأ لتتعلم وتتدبر وتعمل، لا لتعين من آية صادفتها موعد رزق أو نتيجة قرار. وإذا كنت أمام اختيار مباح، فاجمع المعرفة اللازمة والمشورة والاستشارة في موضعها. لا تحتاج إلى حمل اللفظ على رسالة شخصية لم يدل عليها تفسيره كي يمتلئ قلبك بالرجاء.

وقد تأتي العودة بعد انقطاع. افتح المصحف بما تستطيع، ثم انظر في السبب الذي جعل الصحبة تضيق: إرهاق، أو موعد غير مناسب، أو مشتت يتكرر. عدل الوسيلة التي تعرفها، ولا تحمل القراءة مطلباً لا تطيقه كي تعوض كل ما فات في يوم واحد. سبق النظر في الدوام؛ وهنا تكفيك فرصة تسترد بها معنى أضعفته المسافة، ثم تصحبه إلى يومك.

ومن النافع أن تحفظ سؤالاً خرجت به من القراءة، لا عدد الفوائد وحده. ربما سألت عن معنى اسم من أسماء الله، أو عن سياق آية يستدل بها كثيرون، أو عن فرق يحتاجه اختيارك. تعلم جوابه من مصدر موثوق، ثم انظر كيف يغير فهمك. اختر من أساليب التعلم ما يعينك على فهم هذا السؤال والعمل بجوابه.

القرآن الذي رجعت إليه اليوم هو الذي تقرؤه غدًا، وحاجتك إلى الله تتجدد. تحب أن تعرف ربك كما أخبر عن نفسه، وأن تصحب أمره في الحياة، وأن ترجو هدايته حين يتفرق بك الكلام. دع لهذا الرجوع موضعًا ثابتًا بقدر وسعك، ثم احمل من المعرفة ما يصلح اختيارًا حقيقيًا؛ فالقرب الذي تطلبه يجد طريقه في معنى فهمته وحق أديته.

٦٠ | ما نرجوه ولا نزكي به أنفسنا

يحرص الإنسان على عمل مشروع، ثم يسأل بعده: هل أحبني الله؟ في السؤال رجاء كريم، وقد يختلط به طلب شهادة غيبية لا يملكها أحد. نعرف من الوحي أسباباً نرجو بها المحبة، ونستطيع أن نفحص بعض أعمالنا الظاهرة. أما القطع بمنزلة خاصة لفرد بعينه، فليس نتيجة نستخرجها من جدول طاعات أو من ثناء الناس.

قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾¹⁰⁹

يبين السعدي أن التزكية المنهي عنها إخبار الناس بطهارة النفس على وجه التمدح. ويجمع السياق سعة المغفرة وعلم الله بأحوال عباده؛ فيسعى الإنسان إلى الطاعة، ويعترف بحاجته إلى العفو، ولا يتقدم بشهادة يطهر بها نفسه. خبرته

109 القرآن الكريم، النجم: ٣٢؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

ببعض ما فعل لا تحيط بكل ما في قلبه، وعلم ربه أوسع من وصفه لنفسه.

تستطيع أن تقول إنك حفظت وقت الصلاة هذا الأسبوع، وأنت صحت خطأ في معاملة، وأنت تعلمت مسألة كنت تجهلها. هذه أخبار عن أفعال يمكن معرفتها، تحفظ صدقها وتذكرها بقدر الحاجة. ثم تقول: أرجو قبول الله ومحبته. يبقى الرجاء رجاءً، وتبقى مسؤوليتك عن العمل حاضرة؛ فلا تجعله حكمًا يجيز لك إهمال ما يلي.

وعلى الجانب الآخر، لا تجعل النهي عن التزكية أمرًا بإنكار كل خير تعلم أن الله أعانك عليه. تحمد الله على الطاعة، وتشكر من علمك وأعانك، وتفرح بما فتح لك من عمل صالح. قد يعرف الإنسان تقدمًا في أمر ظاهر فيستعين به على مزيد من الخير. موضع الحماية هو أن ينسب التوفيق إلى فضل الله، وأن يترك الحكم على القبول والسريرة لمن يعلمهما. وفي أصول السنة المروية عن الإمام أحمد: «نرجو للصالح ونخاف عليه». ثم يذكر رجاء الرحمة للمسيء مع الخوف عليه.¹¹⁰

110 أحمد بن حنبل، أصول السنة، رواية عبدوس بن مالك العطار، فقرة عدم الشهادة لأهل القبلة بعمل بجنة ولا نار؛ وأوردها اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، الأثر ٣١٧. استعمل اللفظ المتفق عليه في النصين الرقميين، دون دعوى مقابلة الأصل الخطي أو تحقيق إسناده مستقلاً.

يجمع هذا البيان الإنصاف والافتقار: نرجو للصالح ما وعد الله أهل طاعته، ونحفظ له حقه، ونحذر دعوى الأمان لأنفسنا؛ ويدعى المخطئ إلى التوبة دون سد باب الرحمة عنه.

كان شخص كثير الحدة، ثم صار ينتبه في بعض المواقف ويعتذر حين يخطئ. يستطيع أن يرى أن عدد الخصومات قل، وأن الطرف الآخر صار أقدر على الحديث معه. هذا تقدم في المعاملة، يحتاج إلى تعاهد. لا يقول بسبب ذلك إنه بلغ مقام المحبة، ولا يحتقر من ما زال يتعلم. يفرح بالإصلاح، ويسأل الله أن يزيده صدقاً، ويفتح لنفسه مجالاً يرى فيه بقية النقص.

ومن أسباب الانشغال بالشهادة طلب علامة لا تنتهي. يبحث المرء عن حلم، أو موافقة حديثين، أو كلمة مدح تأتي في وقت مخصوص، ثم يريد منها أن تثبت له منزلته. لا يتلقى حكم القبول بهذه الطريقة. المعرفة التي تنفعه أقرب: عمل يعرف مشروعيته، وقصد يجاهده، وحق يؤديه، وخطأ يصلحه. لا يحتاج إلى انتظار خبر خاص كي يتوب اليوم أو يؤدي الصلاة التي وجبت عليه.

والثناء الحسن له أدبه. تستطيع أن تشكر من قاله، وأن تحذر اغترارك به، وألا تكشف ما ينبغي ستره من تقصيرك لتقاوم كل مدح. ما قاله المادح عن ظاهر عرفه لا يكشف كل باطنك.

وإذا نسب إليك فعلاً لم يقع أو علماً لا تملكه، صحت النسبة. بذلك تحفظ الصدق دون أن تتحول المجاملة إلى محاكمة علنية للنفس.

وتختلف علامات العمل الظاهرة عن أحكامنا على الناس. نرى إنساناً يحفظ أمانة فنذكر ذلك بقدره إذا دعت حاجة إلى تزكية عمله أو خبرته، ولا نقطع بما عند الله له. ونرى آخر يقع في خطأ فنحفظ حكم الفعل وحقوق من تضرر، ولا نجزم بأن كل طريق الخير أغلق دونه. الرجاء لا يلغي المساءلة، والإنصاف لا يفتح لنا الغيب.

قد يقلق قارئ لأنه لا يعرف كم في قلبه من محبة. لا يجيب هذا الكتاب بنسبة أو اختبار يحصي السرائر. يستطيع أن يتعلم معنى المقام وأسبابه، وأن يجاهد ما علم من تقصيره، وأن يسأل الله قلباً أصح. وإذا صار السؤال نفسه دوراً يعطله، احتاج إلى أن يعود إلى واجب واضح ومساندة مناسبة. البقاء في تفتيش لا ينتهي لا يقوم مقام عمل يعرف حاجته إليه.

٦١ | المال الذي تحب أن تبذله

قد تحب مالاً جمعته بجهد، ثم تجد أمامك حاجة يستطيع شيء منه أن يعالجها. ليس مجرد وجود المحبة للمال مانعاً من الإحسان؛ وقد يكون البذل مع حضور الميل إلى الاحتفاظ به عملاً تختاره رجاء ما عند الله. تحتاج إلى معرفة حق المال، وإلى صدق في النية، وإلى وسيلة تبلغ بها المساعدة صاحبها.

قال تعالى:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.¹¹¹

تصل الآية بلوغ البر بالإنفاق مما نحب، وتذكر علم الله بالنفقة. لا تصنع قاعدة أن كل ما تحبه يجب عليك التخلي عنه، ولا تعطي تبرعاً واحداً حكماً على تمام قلبك. تعرف ما عليك من واجب، ثم توسع الإحسان بقدر قدرتك، وتحفظ لمن تعول حقه ولصاحب المال إذنه.

البدء يكون بتعلم ما وجب: زكاة بشروطها، ودين يحين أجله، ونفقة تلزمك، وأمانة لغيرك. لا تنفق مالاً ليس لك لتصنع

111 القرآن الكريم، آل عمران: ٩٢؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

معروفًا باسمك، ولا تؤخر حقًا واجبًا لأن مشروعًا تطوعيًا يلفت نظرك أكثر. إذا أشكل حكم المال أو ترتيبه، فاذكر الصورة كاملة لمن يفتي فيها؛ للمعرفة هنا أثر مباشر في صحة العمل.

ثم انظر في الحاجة والوسيلة. قد ينفع تبرع صغير في موعده أكثر من وعد كبير لا يتحقق، وقد يكون الأنسب توفير خدمة أو إحالة إلى جهة موثوقة. تثبت من الطلب بقدر أثره، وتحفظ خصوصية صاحبه، وتختار وسيلة يمكن التحقق من وصولها. ليس السؤال غلظةً على المحتاج إذا روعي فيه الأدب والحاجة، وليس حسن ظنك إعفاءً من مسؤولية الأمانة. ويختبر المال القلب بعد إخراجه أيضًا. قد ترى صاحبه اختار استعمالًا مباحًا يختلف عن تصورك، أو لم يشكر كما توقعت. تعرف أولاً طبيعة ما أعطيت: هبة لها أحكامها، أو وكالة مقيدة، أو نفقة واجبة، أو اتفاق معلوم. لا تعامل كل إعطاء كأنه ملكية مستمرة لقرار المستفيد، ولا تسقط شرطًا صحيحًا دون فهم.

ومحبة البذل تحتاج إلى قدرة محفوظة. لا تعد بما يضر حقًا لازمًا أو يقحمك في التزام لم تفهم تبعته. تستطيع أن تشارك بجزء يناسبك، وأن تتعاون مع آخرين، وأن تزيد لاحقًا. العزم

المتواضع الصادق قد يبلغ نفعا يستمر، بينما يترك الوعد الواسع ضغطا عليك وخيبة عند من اعتمد عليه.

ربما كان الشيء الذي تحبه مالا، وربما وقتا أو جهدا تستطيع بذله في حق وإحسان. لكل نوع حكمه وحده، ويبقى سؤال المحبة حاضرا: ما الذي أستطيع أن أقدمه في طريق يرضي الله؟ حين تتبين الإجابة، أعط العمل صدقه وقدره، ودع للآخرين كرامتهم معه.

٦٢ | علم يغير موضع الجهل

قد تتلقى كلامًا عن المحبة يرق له قلبك، ثم تحتاج في اليوم التالي إلى حكم لم تتعلمه. أي عمل مشروع في صورتك؟ كيف تؤدي الحق؟ ما المصدر الذي تثق به في نسبة هذا الحديث؟ للمحبة باب معرفة لا يقوم مقامه تكرار الحماس؛ وكلما تبين لك موضع جهل مؤثر، صار طلب بيانه خدمةً لصدق السير.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ
الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.¹¹²

ورد الأمر في سياق إرسال الرسل من البشر والرجوع إلى أهل الذكر عند عدم العلم. وننتفع بأصل السؤال والرجوع إلى أهل المعرفة، مع حفظ سياق الآية وعدم تحويلها إلى إقرار بكل متكلم مشهور. يتعلم القارئ كيف يختار مصدرًا موثوقًا وكيف يعرض المسألة التي يحتاج جوابها.

السؤال الجيد يصف الواقع. بدل أن تسأل: كيف أكون محبًا صادقًا؟ ربما تحتاج أن تقول: أؤخر هذا الواجب لهذا السبب،

112 القرآن الكريم، النحل: ٤٣؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

فما الحكم وما الإصلاح؟ أو: وجدت هذه الرواية بهذا اللفظ، فما درجتها؟ بيان الموضع لا يضيق مقام المحبة؛ يجعله قابلاً للعمل. وقد يبقى بعده سؤال أوسع تقرأ له بتأن.

وفي اختيار المعلم تنظر إلى العلم والتخصص والأمانة، لا إلى قوة الحضور وحدها. قد يكون شخص حسن الوعظ، لكنه لا يحقق الروايات أو لا يفتي في المعاملات المركبة. تنتفع منه بما يحسنه، وترجع في غيره إلى أهله. هذا التفريق يحمي الجميع من مطالبة شخص بأن يجيب في كل شيء كي يحتفظ بمكانته.

وقد تتلقى جواباً لا تفهم علته أو حدود تطبيقه. اسأل عما أشكل باختصار، واذكر ما لم تذكره من تفاصيل مؤثرة، ولا تغير السؤال كي تحصل على النتيجة التي تريدها. إذا كان الجواب متعلقاً بصورة غير صورتك، تبين ذلك قبل العمل. كثرة المعلومات لا تعوض الدقة في نقل الواقعة.

ومن نفع العلم أن يترك لك قدرة على القول لا أعلم. قد يسألك قريب لأنك قرأت هذا الكتاب، فتظن أنك ينبغي أن تجيب. تستطيع أن تبين ما تعلمته في حدوده، وأن تدله على المصدر أو المختص في غيره. لا تصبح كل خبرة جزئية صلاحية للحكم في شأن الناس، ولا يجعل قربك منهم جوابك أقل حاجة إلى أمانة.

والتعلم له أثر إذا عاد إلى الفعل. تحفظ نصًا ثم تعرف كيف يصحح عملاً، أو تفهم فرقاً يمنع ظلمًا في حكمك، أو يتبين لك أن قولاً كنت تنشره لم يثبت. أعط التصحيح موضعه، بدل أن تضيف المعلومة إلى قائمة وتبقي الاستخدام القديم على حاله. ثم زد معرفةً بحسب الحاجة، ولا تجعل إتمام كل ما تريد قراءته شرطًا للعمل بما صح لك.

وفرّق بين الجهل بالحكم والعجز عن تطبيق حكم عرفته. فقد تحتاج في الأولى إلى فتوى تبين ما يجب، وفي الثانية إلى تعلم طريقة الأداء أو إلى تعاون يزيل عائقًا. تحديد نوع حاجتك يعين من تسأله على أن يجيبك بما ينفع.

وحين تحفظ جوابًا فاحفظ معه صورة السؤال. إن نقلته إلى غيرك، فبيّن ما قد يختلف بين حاله والحالة التي ورد فيها، ولا تقدم حكمًا خاصًا كأنه جواب لكل صورة تشبهها.

قد يكون أقرب باب للمحبة اليوم سؤالًا يزيل جهلاً صغيرًا يتكرر أثره. تعلم جوابه، وطبقه، واحفظ مرجعه لتعود إليه. في هذه الخطوة قرب من معنى الاتباع؛ تحب أن تقوم لله بما أمر على بصيرة، وتقبل أن يبدأ إصلاحك بقول صادق: هذا مما لم أكن أعلمه.

٦٣ | اختلاف يحفظ المعروف

كنت وصديقك على رأي واحد، ثم تبين لأحكما ما غيّر اختياره. قد تشعر أن ما يجمعكما كله صار مهددًا، فتطالب بالموافقة قبل استمرار المودة. المحبة التي نشأت على خير تحتاج إلى فهم نوع الاختلاف؛ ففي الناس أذواق مباحة، ومسائل اجتهادية، ومخالفات تحتاج إلى بيان، ولكل واحد منها طريقة تعامل.

تقدم أصل النصيحة، وما فيها من طلب الخير وأداء الحق.¹¹³ إذا أردت خير صاحبك، لم تجعل مصلحته مساوية لموافقتك دائمًا. تسمع ما عنده، وتعرض ما تعرفه، وترجعان إلى أهل العلم حين تحتاجان. قد يكون ثمة خطأ يجب بيانه، لكن إنكار الخطأ لا يفرض خصومة في كل موضع من العلاقة.

في الذوق المباح، يتسع الاختيار. صديق يختار تخصصًا مختلفًا أو طريقة تنظيم لا تشبه طريقته؛ تعرف حاجته وقدرته قبل أن تقدم نصيحة. تستطيع أن تقترح وتبين ما تخشاه من أثر معلوم، ويبقى له اختيار ما يباح. لا تجعل عدم اتباع اقتراحك خبرًا عن ضعف محبته لك.

113 حديث صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، حديث ٥٥، عن تميم الداري.

وفي المسألة الاجتهادية تعلم موضع الخلاف وما يخصك من الحكم. لا تسوي جميع الأقوال لمجرد وجود اختلاف، ولا تحتقر قولاً معتبراً لأنك لم تتعلمه. لطلب الترجيح أهله ومصادره، ولغير المتخصص سؤال يصف حاله. تستطيع أن تحفظ التعاون على الخير المشترك، من غير أن تحول كل مجلس إلى إعادة للخصومة نفسها.

أما المخالفة المحققة، فيبين حكمها بعلم ورفق مناسبين، ويمنع أثرها بما يملكه صاحب الصلاحية. يختلف أن يكون الأمر اختياراً شخصياً، عن أن يتعدى إلى حق غيره أو يضل الناس. قدر البيان وموضعه يتبعان الحاجة، ولا تجعلهما غضبتك أو رغبتك في المحافظة على صورتك أمام جماعتك.

وقد تحتاج العلاقة إلى مسافة بعد تكرار الضرر. تحدد السلوك الذي يؤذيك، وتبين ما تستطيع من حدود، وتطلب عوناً عند الحاجة. ليست كل مسافة قطعاً للحقوق، وليست كل محافظة على الحق استمراراً لقرب يضر. تعرف واجبات القرابة أو العمل أو الجوار، وتؤديها بما يتناسب مع السلامة والحكم.

وحين تختلف، احفظ قصة الخير السابقة من التحريف. لا تقل إن صاحبك لم ينفعك قط لأن موقفه الجديد أزعجك. تستطيع أن تذكر فضله الذي تعرفه، وتبين موضع خلافك، وتترك ما لا حاجة إلى نشره. كذلك لا تسمح للفضل القديم أن

يجعل خطأ حاضراً صواباً. الإنصاف يجمع معرفة الأمرين دون أن يذيب أحدهما في الآخر.

المحبة التي تقبل الحوار الصحيح أقدر على الثبات. قد تنتهي المناقشة إلى اتفاق، وقد يبقى اختلاف معلوم، وفي الحالين يمكن أن تصون الصدق والحق. لا تحتاج إلى امتلاك قرار من تحب كي تظل تريد له الخير؛ تحتاج إلى علم يبين لك ما تنصح فيه وما تتسع له الصلة.

٦٤ | أن يكون لك أثر نافع

قد يبقى منك تعليم صحيح يتناقله متعلم، أو عادة حسنة يقتدي بها ولد، أو أمانة يتعلم زميل كيف يحفظها. للأثر النافع امتداد لا يتوقف على اسم مشروع أو عدد متابعيه؛ والسؤال هنا كيف تحفظ صحة ما ينتقل عنك إلى غيرك.

تقدم حديث عدم احتقار المعروف، ومثل الصحة النافعة.¹¹⁴ ومن أثرهما أن تنظر إلى العمل الذي تحسنه والحاجة التي تعرفها. ربما كنت قادرًا على بيان مسألة تعلمتها من مصدرها، أو مساعدة متعلم في تنظيم سؤال، أو وصل محتاج بجهة موثوقة. النفع يكتسب قيمته من صحة العمل وحفظ الحق، لا من عنوان تصنعه له.

ابدأ بمسؤوليتك القائمة. إذا كنت معلمًا، فدقة البيان وإتاحة السؤال من أثر صدقك. وإذا كنت عاملاً، فالأمانة في الوقت والمنتج وحفظ مال الناس من عملك. وإذا كنت في البيت، فرفقك ووفائك بما اتفق عليه يجعلان من الحياة المشتركة

114 حديث صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، حديث ٢٦٣٦، عن أبي ذر رضي الله عنه.

115 حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، حديث ٥٥٣٤، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

مكانًا أصلح. لا تحتاج أن تغادر كل ذلك لتبحث عن مجال ينسب فيه الخير إلى اسمك.

وقد يساعدك شخص ثم تبقى طريقته فيك. عرفت منه كيف يعتذر، أو كيف يقول لا أعلم، أو كيف يحفظ خصوصية محتاج. تستطيع أن تأخذ هذا المعنى إلى حياتك دون أن تروي للناس تفاصيل لم يأذن بها. الأثر النافع لا يتوقف على كثرة حكاية صاحبه؛ ربما بقي في فعل تعلمته منه ثم صرت تؤديه.

وفي التعليم للأجيال التي تأتي، حفظ الأصل أهم من جمال الحكاية. لا تضيف للحديث لفظًا لسهولة العرض، ولا تحذف من القصة قيدًا يتغير به المعنى، ولا تقدم رأيك باسم عالم لم ينص عليه. يستطيع النص الصحيح أن يترك أثرًا عميقًا إذا شرح بوضوح، ويستطيع المثال المتخيل أن يساعد إذا ظهر أنه مثال؛ لا يحتاج النفع إلى إخفاء النسبة.

وإذا رغبت في مشروع أوسع، فتعلم ما يحتاجه قبل الإعلان. عين الغاية والجمهور والقدرة، واحفظ حقوق المشاركين والمستفيدين، واختبر عملاً صغيرًا تستطيع تقويمه. هذه وسائل بشرية، لا درجات للقبول. قد ينتفع منها المشروع، وقد تكشف لك أن نطاقًا أقل أصدق لما تملك الآن.

ومن أمانة الأثر أن تترك لغيرك موضعًا. علّم ما تحسن، وبيّن حد علمك، وأجل إلى من يحتاجه العمل من خبرة، واحفظ لهم نسبتهم. لا تجعل خدمة الناس متوقفة على بقائك في كل خطوة. قد يكون من الخير الذي يحب الله أن تتعلم التعاون وأن تقبل إكمال غيرك ما بدأت.

حين تنتهي من يومك، تستطيع أن تسأل عن نفع معلوم وصل إلى صاحبه وحق أديته. ثم تحمد الله وترجو القبول، دون حساب منزلة قلبك من حجم الأثر. ما تتركه من صدق ومعروف قد يكون بابًا يعين غيرك؛ ولك أنت في أدائه عبودية تحب أن تستمر عليها.

الباب التاسع: أوصاف يحب الله أصحابها

٦٥ | يحب التوابين

ربما ظننت أن طريق المحبة لا يتسع إلا لمن لم يخطئ. فإذا عرفت من نفسك ذنبًا، جعلت الرجوع بعيدًا لأن صورتك القديمة لا ترضيك. يخبر القرآن أن الله يحب التوابين؛ فيصبح الرجوع نفسه بابًا مطلوبًا، مع صدق التوبة وأداء ما يلزم من حق، دون أن يصير هذا الخبر ذريعة لاختيار الذنب أولًا.

قال تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.¹¹⁶

وردت الآية في بيان حكم المحيض، وختمت بمحبة التوابين والمتطهرين. نقرأ السياق ولا نعزل الخاتمة عن أحكامه، ونتلقى منها أيضًا فضل التوبة والطهارة. وقد تقدم الحديث الصحيح في فرح الله بتوبة عبده، وبيان الرجوع بعد الزلة؛ أما سؤال هذا الفصل فهو: كيف تفهم وصف التوابين دون أن تجعله تزكية لنفسك أو إذنا بالإصرار؟

التوبة رجوع من ذنب، لها شروطها التي تعلمتها من البيان الموثوق: الإقلاع، والندم، والعزم الصادق، وما يلزم في حقوق الناس. لا تختصرها في شعور ثقيل يمر ثم يبقى العمل كما هو. قد يختفي عليك أثر الذنب في حق إنسان، فتحتاج إلى سؤال يعرف صورة الواقعة وما يلزم لإصلاحها، ولا يكفيه كلام عام عن صفاء القلب.

وكثرة الرجوع لا تعني ترتيب الذنب ليكون لك بعده توبة مؤثرة. الذي عزم على الترك في وقته ثم ضعف له حال غير حال من اتخذ التوبة المقبلة خطة تبيح المخالفة الحاضرة. أنت لا تملك عمرك ولا قدرة الغد ولا سلامة القصد فيه. إذا عرفت حرمة العمل الآن، فباب المحبة أن تكف عنه، وأن تسأل الله عونًا على الثبات.

ومن أثر الوصف أن تتدارك الزلة دون تعطيل. قد تقضي وقتًا طويلاً في سؤال إن كنت تستحق العودة، بينما بقي حق يستطيع صاحبه الانتفاع بإصلاحه. انتقل إلى ما تعرفه: توقف عن الفعل، واطلب المغفرة، وأصلح الحق بحسب حكمه. العلم الذي تحتاجه تسأل عنه، وتدع الحكم على قبول التوبة لما لا تملكه من الغيب.

وقد يكرر الإنسان لوماً لا يرتبط بذنب معلوم. لا يفرض وصف التوابين أن تبحث كل ساعة عن مخالفة جديدة كي تبقى في

باب الرجوع. لك أن تستغفر وتطلب العفو، وأن تجاهد تقصيرًا تعرفه، من غير صنع محاكمة لا تنتهي لكل خاطر. إذا التبس عليك حكم واقعة، تعلمه؛ وإذا صار التكرار معطلًا، طلبت عونًا يناسبه.

وفي معاملة التائبين تحفظ الرحمة والحقوق. من رجع عن خطأ يحتاج إلى فرصة إصلاح، وقد يبقى للمتضرر حق وتعويض وحدود أمان. لا تمنع الأمانة من الرجاء، ولا تجعل الرجاء حكمًا بإسقاط الحقوق. يعرف كل طرف ما عليه، ويعمل الإصلاح بما يتناسب مع واقع الضرر والقدرة والصلاحية.

ومن أجمل أثر التوبة أن تحسن ما بعدها. تعلم سببًا كان يعيدك إلى الذنب، وقلل ما تستطيع من مقدماته، واختر صحبة أو نظامًا يساعد على فعل صحيح. تلك أسباب تجتهد بها، وليست ضمانًا للعصمة. تعاهدها وراجعها، ولا تجعل نجاح يوم سببًا للتعالي على من ما زال يتعلم الرجوع.

وحين يأتيك تذكير بماضٍ رجعت عنه، تعرف أن الذاكرة شيء والعمل الحاضر شيء آخر. قد تبقى آثار يلزم إصلاحها، وقد يبقى ألم لا يزيده اجتراح المحاكمة نفعًا. افعل ما ظهر لك من حق، وارحُ رحمة ربك، واستعمل وقتك في خير تستطيع أدائه. لا يحتاج صدق الندم إلى أن تمنع نفسك من كل فرح

مباح أو من كل خطوة نافعة؛ فغاية الرجوع أن تستقيم حياتك على طاعة الله وأن تتحسن معاملتك لمن بقي له عليك حق.

حين تقرأ أن الله يحب التوابين، خذ الخبر طريقًا للعودة والعمل. لا تطالب نفسك بشهادة خاصة قبل أن تبدأ، ولا تتخذ الوعد حجة لتأخيرها. لك أن تأتي إلى ربك بما عرفت من ذنب وحاجة، وترجو محبته وأنت تصحح ما بين يديك.

٦٦ | يحب المتقين

قد تبدو التقوى كلمة كبيرة حتى يصعب على القارئ أن يجد لها موضعاً في معاملة عادية. ثم يقرأ أن الله قرن الوفاء بالعهد بالتقوى وبمحبتة للمتقين. عندئذ يعلم أن ما يخفيه عن الناس من أداء الحق أو التفريط فيه متصل بعلاقته بربه، وأن للمحبة شاهداً في أمانة لا يراقبها جمهور.

قال تعالى:

{بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}.¹¹⁷

جاءت الآية في سياق يبين الأمانة وخيانة بعض أهل الكتاب، وترد على ادعاء يبيح أموال غيرهم. ومن البيان أن الوفاء والتقوى طريق، لا الاستثناء الذي يصنعه الإنسان لنفسه حتى يخالف الحق. لا تجعل اختلافك مع شخص إذناً بخيانة عهده، ولا قرب به سبباً لتطبيق معيار آخر في أمانته.

التقوى أن تؤدي ما أمرك الله به وتجتنب ما نهاك عنه، على علم واستعانة. وفي هذا الفصل ننظر إلى الوفاء بوصفه موضعاً ظاهراً لها: عقد تفهمه وتنفذه، ووعد تصدق فيه، ومال تحفظه لصاحبه. تختلف أحكام العقود والوعود وتفصيلها؛

117 القرآن الكريم، آل عمران: ٧٦.

فإذا عرضت صورة مركبة، فلا تحسمها بحرارة رغبتك في الوفاء أو في التخلص من الالتزام.

قد اتفقت على عمل في موعد، ثم تغيرت قدرتك. تستطيع أن تبين العارض في الوقت المناسب، وأن تطلب تعديلاً صحيحاً أو أن تعين على بديل. أما أن تختفي حتى يضطر الآخر إلى التخمين، فيزيد الضرر الذي كان يمكن تقليله. الصدق عن القدرة يحفظ المعاملة، ولا ينتقصه أنك لم تستطع الصورة التي وعدت بها أول مرة.

وقد يظن إنسان أن التقوى تعني تفتيشاً دائماً في كل احتمال. المعرفة بالحكم تحمي من هذا الالتباس. إذا ثبت لك الإذن في عمل فلا تصنع له منعاً كل يوم بظن جديد، وإذا ظهر دليل مؤثر فاسأل عنه. تحفظ حد الحرام والواجب، وتعرف مجال الاحتياط في موضعه؛ فلا يكون القلق نفسه مصدر التكليف.

وللتقوى أثر في القول عن غيرك. لا تصف نفسك بالمتقي بسبب التزام رأيت، ولا تسلب الوصف عن شخص جهلت سياقه. يمدح عمل معلوم بقدره، وينكر خطأ ثبت بحكمه، وتترك السرائر لمن يعلمها. معرفة الصفات التي يحب الله أهلها تدعوك إلى تحقيقها في نفسك، لا إلى توزيع رتب الناس بحسب قربهم من ذوقك.

ومن صدق التعلم أن تختار موضعاً لم يكتمل فيه وفاؤك. بين الحق لصاحبه، وتعلم كيف تصلحه، وحدد خطوة تستطيع إنجازها. قد يكون الأمر يسيراً لكنه ظل مؤجلاً، وقد يكون معقداً يحتاج إلى تعاون. في الحالين يكون بيان الواقع أول الطريق؛ والمحبة تعينك ألا تبقى العبارة الجميلة عن التقوى بديلاً لهذا العمل.

وفي الوفاء قد تعرض لك مساحة لا يراقبها أحد: تسليم عمل، أو بيان عيب، أو استعمال شيء استعرتته من صاحبك. إذا عرفت أن هذا مما أوتمنت عليه، فاحفظه على الوجه الذي أذن فيه. وإن تغير الأمر بما يؤثر في رضاه، فبين له التغير قبل أن تختار عنه. ليست الأمانة أن تتوقع أنه سيوافق لو علم ثم تستغني بهذا الظن عن سؤاله؛ فقد يغير التفصيل قراره، وله من معرفة حاجته ما لا تعرفه أنت.

ويظهر معنى التقوى حين تختلف مصالح الطرفين. قد يكون تنفيذ الحق مكلفاً لك في وقت أو مال، بينما يستطيع صاحبه أن يطالب به دون أن يقدر تعبك. لك أن تشرح واقعك وأن تطلب تسوية صحيحة يرضاها، لكن ضيقك لا يبدل أصل الحق من تلقاء نفسه. وإذا تنازعتم في مقدار الواجب، فارجعوا إلى ما يبينه من وثيقة أو حكم أو جهة مختصة، بدل

أن يصبح التعب الشخصي معيارًا تنفرد به أنت في أمر يخص غيرك.

وراجع ما تعلمته من هذه المعاملة قبل وعد جديد: أكان الموعد واضحًا؟ وهل عرفت حدود الخدمة وقدرتك عليها؟ استعمل جوابك لتحسين الوفاء المقبل، واحمد الله على ما أعانك عليه.

خذ من الآية وضوحًا يصحب الأمانة: ما التزمت به بحق فله قدره، وما أشكل تسأل عنه، وما عجزت عنه تصدق في بيانه. ترجو محبة الله وأنت تعتني بالتقوى في مجال تستطيع إصلاحه؛ وتبقى محتاجًا إلى هدايته في سائر مجالات حياتك.

٦٧ | يحب المحسنين

قد تؤدي الحق الواجب ثم تجد مجالاً لزيادة نافعة. أو يغضبك قول، وتستطيع الرد، لكنك تبحث عن فعل أحسن يحفظ الحق ولا يزيد الخصومة. الإحسان يفتح للمحبة باباً في جودة العمل وفي الزيادة المشروعة، ويتعلم صاحبه أين تكون الزيادة خيراً وأين تتحول إلى تجاوز يضر.

قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ
وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.¹¹⁸

تصف الآية الإنفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو عن الناس، ثم تذكر محبة الله للمحسنين. لهذه الأوصاف مادة عملية، وليست دعوة إلى صورة بلا غضب أو حاجة. قد يحضر الغيظ، وتختار كفه عن فعل مؤذ، وقد يضيق وسعك وتبذل ما يناسبه، وقد تعفو عن حق تملك العفو عنه.

ويحتاج العفو إلى معرفة الحق. لا تعفو عن مال أو عرض ليس لك، ولا تمنع متضرراً من المطالبة بحقه لأنك تحب شكل الصلح. لك أن تعفو عما تملكه في موضع يحسن فيه العفو،

وتبقى للناس حقوقهم وللضرر المتكرر وسائل منعه. اختيار الإحسان لا يلغي أحكام العدل ولا حدود الصلاحية.

أما كظم الغيظ فيبدأ حين تثقل النفس بالكلام. قد تحتاج إلى توقف قصير قبل الرد، أو إلى وصف الواقعة بدل اتهام الشخص، أو إلى طلب وقت يفهم فيه الطرفان موضوعهما. هذه وسائل لا فضائل مخصوصة لها بذاتها، تختار منها ما ينفع. إن كان ثمة خطر عاجل، فحفظ السلامة مقدم على ترك كل حركة خشية أن تظهر غاضبًا.

وفي العمل يظهر الإحسان داخل الشيء نفسه. تتقن شرحًا يحتاجه المتعلم، وتراجع ما سلمته إذا بان فيه عيب، وتحفظ لزميلك معرفة يحتاجها لإنجاز أمانته. ليست كل زيادة إحسانًا؛ ربما وضعت تفصيلًا لا يفهمه الجمهور أو حملت العمل تكلفة لا تلزم. جودة الأداء تعرف بما ينفع المقصد ويحفظ الحقوق، لا بكثرة ما أضفت.

قد تنفق في ضيقك مبلغًا صغيرًا، فيقع نفعه عند صاحبه. لا تحتقره لأن المبلغ أقل مما يقدمه غيرك، ولا تعرضه بوصفه دليلًا أن قلبك أجود. تعلم ما وجب عليك وما وسعك من زيادة، واختر طريقًا صحيحًا، واسأل الله أن يرزقك الإخلاص. الأثر الظاهر يعين على تقويم الوسيلة، ويبقى القبول رجاءً.

ومن صور الإحسان الاعتراف بحق لم يطالبك صاحبه به بعد. رأيت خللاً في عملك يؤثر عليه، فبادرت إلى البيان والإصلاح. قد يزيد هذا عليك جهداً، لكنه يحفظ له اختياراً صادقاً. لا تجعل غياب المراقبة سبباً لإبقاء الخطأ، ولا تعوض حقه بمعروف آخر اخترته دون إذنه.

والإحسان يصحب العلاقة مع النفس أيضاً في استعمال الوسع. تحافظ على قدرتك، وتطلب العون، وتضع حداً صحيحاً لما يرهقك، كي تستطيع أداء الحق. لا تثبت جودك بأن تعد الجميع ثم تعجز عنهم جميعاً. النفع المستمر يحتاج إلى معرفة صادقة بمن تعمل له وبما تقدر عليه.

وقد يصعب الإحسان إذا لم يتغير موقف المخاطب بعده. أحسنت إليه وبقي غاضباً، أو حفظت له حقاً ولم يذكرك بخير. لا تجعل تغيره الفوري تعريفاً لقيمة فعلك. انظر إلى ما اخترته أنت: هل صح، وهل نفع في حدود ما تعلم، وهل حفظ حقاً؟ ثم راجع ما يقبل المراجعة من وسيلتك. للآخرين أحوالهم ومسؤولياتهم، ولا تستطيع أن تملك جوابهم حتى لو أحببت لهم الخير. هذا التفريق يعينك على الاستمرار من غير وعد بنتيجة لا تقدر عليها.

عند غضب قريب أو عمل ناقص، اسأل عن الفعل الأحسن الذي تستطيع اختياره بحق. ربما كان كف كلمة، وربما كان

تصحيح منتج، وربما كان عفواً مشروعاً أو عوناً يسيراً. في هذه المواضع يصبح خبر محبة الله للمحسنين باعثاً لعمل يعرف طريقه، وتترك لنفسك مجالاً تتعلم فيه مزيداً من الإحسان.

٦٨ | يحب المتوكلين

تستشير وتعد الخطة، ثم يبقى في العاقبة ما لا تقدر على التحكم فيه. ربما أردت ضماناً يزيل كل احتمال قبل أن تتحرك، فطال الانتظار. وفي القرآن توكل يأتي بعد مشاورة وعزم؛ يستعين صاحبه بالله، ويأخذ بما علم من سبب، ولا يطالب نفسه بما لم تملك من الغيب.

قال تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهْمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ
لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ
فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.¹¹⁹

يجمع السياق رحمة النبي ﷺ ورفقه بأصحابه، والعفو والاستغفار والمشاورة، ثم العزم والتوكل. لا تعني المشاورة أن يتخلى صاحب القرار عن مسؤوليته، ولا يعني التوكل أن يترك المعرفة والأسباب. ويتصل الخبر بمحبة الله للمتوكلين، فيعرف القلب قيمة اعتماده على ربه وهو يؤدي ما عليه.

للتوكل مسائل واسعة، وننظر هنا إلى أثر المحبة عند اتخاذ القرار: تحب ربك، وتعرف كمال علمه وقدرته، وتسأله الخير، ثم تمضي في السبب المشروع. يتغير السؤال من كيف أضمن كل نتيجة إلى ماذا يلزمي وما الذي أستطيعه وكيف أحسن فعله؟ تبقى العاقبة مما تفوضه إلى الله.

أمامك قرار دراسة أو عمل. تجمع المعلومات التي تؤثر في الاختيار، وتسأل من يعرف المجال، وتتعلم حكم ما أشكل، وتستخير في موضعها. ثم تقرر على قدر البيان المتاح. لا يلزم أن تجد حلماً أو موافقة أحداث تمنحك شهادة أن هذا هو الطريق الوحيد الصحيح. المعرفة والاجتهاد شيء، ودعوى الإحاطة بمستقبل العمل شيء آخر.

وإذا أخطأت الوسيلة، فالتوكل يقبل التصحيح. تكشف معلومة جديدة خطراً لم تعلمه، فتعدل الخطة أو تطلب مساعدة أو تتوقف. ليس العزم إصراراً على كل تفصيل اخترته، وليس تغيير التفصيل اعتراضاً على القدر. تبقى مسؤولاً عن السبب الذي صار علمك به أوسع، وتستعين بالله على اختيار أصلح.

وقد يشتد القلق بعد القرار، فتراجع الأوراق نفسها كل ساعة دون خبر جديد. يحتاج ذلك إلى معرفة ما بقي قابلاً للفعل. إن كان ثمة إجراء لازم فافعله، وإن لم يكن فارجع إلى شؤونك،

واطلب مساندة إن استمر التعطيل. لا يعطي هذا الكتاب تشخيصًا للحال؛ غرضه أن يبقى طلب الضمان خارج دائرة التكليف التي تستطيع أداؤها.

ومن أثر التوكل أن تحفظ حقوق من يعتمدون عليك. لا تقول لهم اطمئنوا ثم تخفي خطرًا تعلمه لأنك تريد أن تظهر واثقًا. الثقة بالله لا تجيز وعدًا لا تملكه أو معلومة ناقصة تغير قرار غيرك. تستطيع أن تبين احتمالًا معلومًا، وأن تقترح معالجة، وأن تصدق في حدود القدرة؛ وهذه الأمانة مما تحتاجه المعاملة الصحيحة.

وأنت ترى سببًا لنجح، احمد الله واعرف مقدار دورك ومقدار عون الآخرين. وإذا تعثر، راجع ما يقبل التصحيح دون أن تجعل التعثر حكمًا أن الله أبغضك. معرفة ما يحبه الله من التوكل تعطيك جهة للعمل، ولا تمنح كل نتيجة دنيوية تفسيرًا خاصًا في منزلة صاحبها.

وإذا استشرت من يعرف، فليس مقتضى توكلك أن تتبع كل رأي تسمعه. افهم وجهه، وانظر إلى ملاءمته لواقعك، وقارن ما يحتاج إلى مقارنة، ثم تحمل مسؤولية قراراتك على قدر قدرتك. قد تختلف الخبرات لأن المعلومات أو الغايات مختلفة، لا لأن أحد الطرفين يرفض الخير. تعيين ما تريد

معرفته يجعل المشورة أنفع، ويحميك من كثرة السؤال الذي لا يضيف بياناً ثم يتركك أشد حيرة مما كنت قبل أن تبدأ.

وقد تمضي على قرار تبين لك وجهه ويبقى شيء من القلق. الهدوء النفسي ليس بديلاً عن العلم والمشورة، وغيابه وحده لا يحكم على توكلك. راجع القرار حين تظهر معلومة مؤثرة، واطلب ما تحتاجه من عون، دون إعادة البحث كله لمجرد أن نفسك لم تطمئن تماماً.

ابذل وسعاً صحيحاً، واعزم بعد بيان يناسب الأمر، واسأل ربك حسن العاقبة. للمحبة أثر في هذا الاعتماد؛ تحب أن تكون حاجتك الأخيرة إليه، وتترك ما لا تملك لمن يعلم ويقدر، وأنت تواصل الحياة التي كلفك أن تعمل فيها.

٦٩ | يحب الصابرين

قد يستقيم اختيارك ثم يطول انتظار أثره. تركت طريقًا محرّمًا، أو بدأت إصلاحًا، أو حافظت على حق، وبقيت في العاقبة مشقة. تحتاج هنا إلى ما يصحب الاستجابة بعد بدايتها؛ فبعض الأعمال يسهل إعلانها ويثقل دوامها حين لا يجد صاحبها ثناء أو نتيجة قريبة.

قال الله تعالى:

﴿وَكَايْنٍ مِّن تَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾¹²⁰

تذكر الآية من قاتل مع الأنبياء وثباتهم فيما أصابهم في سبيل الله، ونفي الوهن والضعف والاستكانة، ثم محبة الله للصابرين. نحفظ للسياق موضعه، ولا نستخرج منه أن كل معركة يختارها الإنسان داخلة فيه. ونعرف من الوصف قدر الثبات على طاعة الله وصدق الاستجابة عند المشقة.

الصبر له مجالات في أداء الطاعة وترك المعصية واحتمال المقدور المؤلم، ولا يلزم أن تتساوى صورها في تجربتك. قد

يثقل على شخص حفظ الصلاة في زحام يومه، وعلى آخر ترك انتقام يقدر عليه، وعلى ثالث انتظار علاج يحتاج إليه. يتعلم كل واحد الحكم الذي يخصه، ويأخذ بما يستطيع من أسباب؛ فلا يختصر صبر الجميع في صورة وجدانية واحدة.

وقد يكون أصعب وقت بعد أن هداً الناس عن متابعتك. وعدت بتصحيح عمل، ثم بقي التنفيذ بينك وبين نفسك. إن كان حقاً لازماً فله موعد ومسؤولية، وإن كان تطوعاً فتنظمه بقدر القدرة. لا تجعل زوال الاهتمام الخارجي سبباً لترك ما علمت وجوبه. محبة الله تعطي للعمل جهة تبقى حين لا يشاهده أحد.

وللصابر أن يعترف بالتعب ويطلب العون. أخبر من يستطيع مساعدتك بما يحتاج إلى معرفته، واحفظ ما لا يلزم نشره من خصوصيتك؛ فقد تحتاج إلى تعاون أو علاج أو إلى تخفيف عمل زائد. وجود المشقة لا يعني سقوط الثبات: انظر إلى العمل الذي تستطيع أدائه معها، واستعن بالله عليه.

ومن الصبر عن المعصية أن تتهياً للموضع الذي تعرف خطره. تحفظ لنفسك وقتاً أو بعداً أو صحبة تساعد على الترك، ولا تعرضها كل يوم لاختبار لا يلزم. وإن ضعفت فتب وأصلح السبب، بدل أن تتخذ الزلة تعريفاً نهائياً لقدرتك. العزم

الصادق يعمل في الحاضر، ويبقى محتاجًا إلى عون الله في كل ما يأتي.

وقد يختلط الصبر بالخصومة الطويلة على ما لا ينفع. تستمر في نقاش لإثبات نفسك، وتقول إنك صابر على الحق. اسأل أولاً عن علمك وضرورة الكلام وأثره: ربما كان بيان محدد لازماً، وربما كان الصمت أو الإحالة إلى مختص أنفع. تحمل الإيذاء لا يجعل موضوعاً باطلاً حقاً، ولا يعطي كل استمرار فضلاً.

ومما يعين على دوام الطاعة أن تتبين الموضع الذي يثقل عليك منها. ربما كان التعب في بدء العمل، أو في انقطاع متابعة الناس، أو في ضيق موعد اخترته. إذا عرفت السبب الذي يقبل التغيير، استطعت أن تصلحه دون أن تنتقص من أصل الواجب. تبكر في الاستعداد، أو تستعين بمن يعرف، أو تخفف عملاً زائداً. الصبر يصحب فعل السبب الصالح، ولا يقتضي أن تبقي ترتيباً سيئاً حتى تزداد عليك المشقة.

وفي انتظار أثر الإصلاح، تعلم أن تفصل بين العلامة التي يمكن قياسها والأمر الذي لا تملكه. تستطيع أن تعرف أنك أديت واجباً في وقته، أو امتنعت عن كلام مؤذ، أو وفيت بوعده. أما أن تحدد متى يلين قلب غيرك أو متى تحصل على عوض دنيوي معين، فذلك يتجاوز علمك. لا تؤخر الفعل

الصحيح حتى ترى وعدًا بنتيجة قريبة، ولا تمنع نفسك من تعديل الوسيلة إذا بان قصورها. استمرار الاستجابة ومراجعة أسبابها يجتمعان في سعي واحد.

خذ من الخبر رجاءً يقوي الاستجابة. ما تعرفه من عمل يحبه الله يستحق أن تعطيه فرصة للاستمرار، وأن تصبر على مشقته المشروعة، وأن تستعين بوسائل صحيحة. وحين يتجدد التعب، تستطيع أن تسأل العون من جديد، وأن تجد في المحبة سببًا للعودة إلى الحق الذي اخترته.

٧٠ | يحب المقسطين

في الخصومة تميل النفس أن يسمع الناس قصتها كاملة، وأن ينصفوها في كل تفصيل. فإذا جلست بين خصمين، احتجت إلى أن تعطي كليهما ما تريده لنفسك من فهم وحق. القسط أصل تعرفه من الوحي، وقد جعل الله محبته للمقسطين خبراً يوقظ في القلب عناية بالعدل حتى حين يثقل.

قال تعالى:

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.¹²¹

جاءت الآية في إصلاح اقتتال طائفتين من المؤمنين، ورد الباغية إلى أمر الله، ثم الإصلاح بالعدل والقسط. للقوة المذكورة في السياق أحكامها وأهل صلاحيتها، ولا تجعل الآية تفويضاً للفرد أن يمارس عقوبة أو عنفاً من عنده. يعرف القارئ قدر العدل في الإصلاح، ويرجع في تفصيل الحكم والتنفيذ إلى أهله.

وقد تقدم العدل مع من نحب ومع من نختلف معه. نقترّب هنا من مسؤولية الوسيط وصاحب القرار: كيف يمنع ميله من أن يصير نتيجة؟ يعرف دوره وحدود معلوماته، ويسمع ما يؤثر في القضية، ويحفظ ما يملكه من صلاحية. إذا لم يملك الحكم، أعان على بيان الوقائع أو دل على الجهة التي تستطيع الفصل.

وفي خلاف عائلي قد تقول إن الصلح يقتضي من الأضعف أن يتنازل لأنه أسرع إلى الموافقة. هذا يريح المجلس، لكنه لا يكفي ليكون قسطًا. انظر إلى أصل الحق، ومن الذي أضر، وما الذي يملكه كل طرف من قبول أو تنازل. لا يصبح الضغط عدلاً لأن من وقع عليه اعتاد الصمت، ولا لأن غاية الاجتماع اسمها إصلاح.

وإذا كنت صاحب عمل، فقد يأتيك طلب من قريبك أو ممن له مكانة. تحفظ له أدب اللقاء، ثم تراجع المعايير التي التزمت بها وحقوق الآخرين. لا تجعل قربه طريقًا لإلغاء حق موظف أو مستفيد. تستطيع أن تشرح ما يتيح النظام الصحيح، وأن تساعد في حدود ما يحق لك، وتترك الامتياز الذي لا تملكه.

وفي التدريب على القسط، اختر حكمًا يوميًا صغيرًا: توزيع وقت أو مهمة أو فرصة. عين أصحاب الحقوق والمعيار المناسب، وانظر إلى الاستثناء الذي كنت تصنعه بسبب الميل.

قد تكون بعض الفروق مشروعة لا مساواة حسابية فيها؛ فاعرف سبب الفرق بدل تطبيق صورة واحدة على الجميع. إذا أشكل حق، تعلمه قبل أن تفصل فيه.

ومن القسط أن تعرف متى ينبغي أن تتنحى عن الحكم. قد تكون لك مصلحة في نتيجة النزاع، أو صلة بأحد أطرافه تؤثر في قدرتك على السماع، أو نقص في معرفة الحكم الذي يحتاج إليه. التصريح بهذا الحد يحفظ العدل الذي تريد، ويسمح بالرجوع إلى من يستطيع النظر على وجه أصح. لا يلزم أن تجيب عن كل خصومة تعرض عليك لتثبت نصرتك للحق؛ أحياناً تبدأ النصره بإحالة صحيحة وحفظ ما سمعته من أمانة.

وفي حديثك عن الخصومة، ميز بين حقيقة شهادتها وخبر نقله طرف وتفسير استنتاجته أنت. هذه درجات مختلفة من المعرفة، وخلطها يوسع الاتهام. قد تقول: سمعت منه كذا، أو رأيت هذا الفعل، وتترك ما لا تعرفه واضحاً. لا يصبح تحفظك ضعفاً عن إنصاف المظلوم؛ فهو يمنع أن تضيف إلى طلب حقه كلاماً لا يثبت. وإذا احتاج الحق إلى توثيق أو شهادة أو إجراء مختص، ساعد على الطريق الذي يوصله دون أن تخلق دليلاً يسند جهة تميل إليها.

وحين يظهر خطأك في تقدير سابق، فالإصلاح يحتاج إلى القدر الذي يناسب أثره. ربما صحت خبراً في المجلس الذي نقلته فيه، أو رفعت استنتاجاً لم يكن قائماً على بينة، أو اعتذرت لصاحب حق. لا يكفي أن تعرف الصواب وحدك إذا بقي غيرك يعتمد على كلام منك. تجعل محبتك لما يحبه الله من عدل سبباً لقبول كلفة الرجوع، وترجو أن يكون التصحيح خيراً من حماية صورة قديمة لك على حساب إنسان تضرر بها.

حب الله للمقسطين يعطي الإنصاف معنى يتجاوز راحة الجماعة وصورتك عندها. تطلب العدل لأنه حق يحبه ربك، وتؤديه بحسب علمك وصلاحياتك، وتقبل أن يكلفك مخالفة من تحب. ثم ترجو القبول، وتبقى مستعداً لبيان جديد يصحح ما لم تحط به أول مرة.

٧١ | يحب المتطهرين

قد اعتدت الوضوء حتى صار مرحلة تعبرها سريعاً قبل الصلاة. ثم تقرأ محبة الله للمتطهرين، فتعرف أن لما تؤديه من طهارة قدرًا في العبودية. لا تحتاج إلى إضافة فعل من عندك كي تستعيد هذا القدر؛ تعلم الحكم، وأد ما شرع، وتعاهد المعنى الذي تصحب به العمل.

تقدم آخر آية المحيض، وفيه محبة التوابين والمتطهرين.¹²²
وقال تعالى في مسجد أسس على التقوى:

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ
أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ
يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾.¹²³

ينتمي النص إلى سياق مسجد الضرار والمسجد المؤسس على التقوى، ويثني على رجال يحبون التطهر ويخبر بمحبة الله للمتطهرين. نحفظ سياقه، ونتلقى منه تعظيم الطهارة؛ ولا نثبت من عندنا حكاية عن شخص بعينه أو ممارسة لم يقيم عليها نقل متحقق.

122 القرآن الكريم، البقرة: ٢٢٢.

123 القرآن الكريم، التوبة: ١٠٨.

الطهارة عمل يتعلمه المسلم بحسب حاجته: ما يرفع الحدث، وما يزيل النجاسة، وما يتعلق بالصلاة. لا يلزم أن يقرأ كل تفصيل مرة واحدة، لكنه لا يترك صورة تتكرر في حياته دون معرفة. إذا كانت عنده حالة مرضية أو عذر، تعلم حكمها من أهل العلم، وربط السؤال بما يحدث فعلاً؛ فالأحكام تراعي الواقع الذي نزلت عليه.

ومن المحبة أن تؤدي العمل بقدر الشرع، لا بكثرة الماء أو عدد الإعادات. قد يحمل القلق على إعادة الوضوء مرات خشية أن تكون لم تتطهر. إذا تعلمت الحكم وضبطت موضع اليقين والشك، عملت بالبيان بدل أن تجعل الاحتمال مصدر إلزام جديد. وما يتجاوز حال السؤال العادي ويعطل الحياة يحتاج إلى عون مناسب؛ لا تعالج كل تكرار بالمزيد منه.

وللمكان والبدن عناية تحفظ راحة الناس وحقوقهم. لا تترك ما يؤذي من يشاركك مسجداً أو بيتاً، ولا تجعل النظافة عنواناً تسخر به من حال فقير أو مريض. تستطيع أن تعين على ما يحتاج إليه، وأن تعرف أثر القدرة والعذر. الطهارة التي يحبها الله تعلمك إتقان ما عليك، ولا تعطيك إذناً باحتقار من تجهل حاله.

وفي البيت يحسن أن يعلم الصغير ببيان يستطيع فهمه. يرى كيف يغسل ويتوضأ على وجه صحيح، ويسأل إذا التبس عليه

شيء، ولا تُلصق به أوصاف منفرة بسبب خطأ في التعلم. يمكن أن يكون التصحيح واضحًا ورفيقًا، وأن يتناسب مقدار التفصيل مع العمر والحاجة. الهدف أن يستقيم العمل، لا أن يخاف من كل حركة.

وقد تستخدم كلمة طهارة القلب استخدامًا وجدائيًا. احفظ الفرق بينها وبين أحكام الطهارة الحسية؛ فلا يسقط صلاح القصد وضوءًا واجبًا، ولا يثبت وضوء صحيح أن جميع أعمال قلبك صلت. لكل باب فحصه ومجاهدته، ويجتمعان في العبودية. تتوب من ذنب، وتتعلم حكم عبادتك، وتسأل الله أن يصلح الظاهر والباطن.

وللنظافة في حياة الناس حقوق عملية أيضًا. من يستعمل موضعًا مشتركًا يحفظه لمن يأتي بعده، ومن يتولى خدمة يراعي ما تحتاجه من إتقان ونظافة وسلامة. هذه أعمال تتعلم أحكامها ووسائلها بحسب الواقع، ولا تخلط بين كل ترتيب صحي وبين شروط الطهارة الشرعية. اختلاف البابين لا يمنع أن تحسن فيهما؛ بل يعينك على أن تسأل السؤال الصحيح وأن تتبع المعرفة المناسبة لكل حاجة بدل أن تضع جميع الأمور تحت حكم واحد.

حين تتوضأ للصلاة المقبلة، أعط الفعل حقه على الوجه الذي تعلمته. لا تفتش عن انفعال مخصوص، ولا تضيف شكًا ليبدو

حرصك أكبر. يكفيك أن تعمل بما شرع، وأن تحب ما علمت
أن الله يحبه، وأن تطلب منه القبول والإعانة. تسترد العادة
معنى صحيحًا، ويبقى العمل يسيرًا واضحًا قابلاً للدوام.

٧٢ | وأنت مقبل عليه

قال الله تعالى:

«مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»¹²⁴.

يربط السعدي رجاء اللقاء بالتزود له والسير في مرضاة الله، مع بقاء الدعوى وحدها غير كافية. تنظر إلى ما علمت من أسمائه وفضله، وتعرف أن حياتك تتجه إلى لقائه. لهذا الرجاء أثر في يوم حاضر، حيث تختار عملاً مشروعاً وتقوم بحق تستطيع أدائه.

وعن جابر رضي الله عنه قال:

«سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِثَلَاثٍ يَقُولُ: لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ»¹²⁵.

يرشدنا الحديث إلى حسن الظن بالله عند الموت، فلا يجعل الإنسان ما عرفه من تقصيره باباً إلى اليأس من رحمته. نتلقى هذا التوجيه كما جاء، ولا نحوله إلى وعد بأن من قصد ترك الواجبات استغنى عنها بحسن الظن. رجاؤك بربك يصحب

124 القرآن الكريم، العنكبوت: ٥؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية.

125 حديث صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، حديث ٢٨٧٧، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

العودة إليه، ويعينك على ما تستطيع من طاعته، وأنت تسأل فضله وعفوه.

ويبقى للشوق إلى لقاء الله معنى يحتاج إلى بيان. قد يقرأ الإنسان فضله، ثم يخاف حين يتذكر الموت، فيظن أن الخوف أبطل محبته. وقد يحسب آخر الشوق طلبًا للرحيل حين تضيق الحياة. وفي البيان النبوي جواب يضع كل معنى في موضعه.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ». فقلت: يا نبي الله، أكرهية الموت؟ فكلنا نكره الموت. فقال: «لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».¹²⁶

126 حديث صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، حديث ٢٦٨٤، عن عائشة رضي الله عنها، واللفظ له. وانظر: ابن باز، «شرح حديث: من أحب لقاء الله»، الموقع الرسمي، الفتوى ١٦٠٤٣؛ في بيان أن المراد حال حضور الأجل والبشارة، لا مجرد كراهية الموت الطبيعية.

سؤال عائشة قريب من القلوب، والجواب يمنع أن نساوي بين كراهية الموت الطبيعية وبين المعنى المذكور في الحديث. الشأن فيما يبشر به العبد عند حضور أجله؛ فالمؤمن يبشر بالرحمة والرضوان والجنة، فيحب لقاء ربه. وقد بين ابن باز هذا الفرق في شرحه للحديث. فلا تجعل خوفك من ألم الموت أو فراق الأهل شهادة على أنك تكره لقاء الله، ولا تمتحن مريضاً بهذا السؤال ثم تحمل ارتبাকে على معنى لم يرد.

وأنت اليوم تعرف الرب الذي ترجو رحمته، وتستطيع أن تسأله حسن الخاتمة وأن تستعد للقاءه. تتعلم من هذا الخبر أن وراء كراهة الفراق رجاءً أوسع: فضل الله الذي يحبه المؤمن ويؤمن بوعده. ومن أعظم ما يرجوه المحب رؤية ربه في الجنة؛ وفي حديث صهيب رضي الله عنه، قال النبي ﷺ في خبر أهل الجنة: «فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ». نؤمن بذلك من غير تشبيه ولا تكييف، ولا يحتاج الشوق إلى رسم صورة في الخيال كي يصدق.¹²⁷

127 حديث صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، حديث ١٨١، عن صهيب رضي الله عنه. المنقول خاتمة الحديث بلفظ مسلم، في خبر أهل الجنة بعد دخولها.

وفي حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه دعاء سمعه من رسول الله ﷺ يجمع حسن المآل وصلاح الحياة:

«اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبِ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْقُذُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقُطُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ صَرَاءٍ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هِدَاةً مُهْتَدِينَ».¹²⁸

يبدأ الدعاء بعلم الله وقدرته، ثم يفوض إليه أمر الحياة والوفاة. تستطيع أن تحب لقاء ربك، وألا تختار لنفسك موعد الرحيل؛ فالله يعلم ما يكون خيرًا لك، وتسأله الخير حيث كان. وفي الدعاء نفسه خشية في السر والعلن، وكلمة حق عند

128 أخرجه النسائي في السنن، كتاب السهو، باب نوع آخر، حديث ١٣٠٥، عن عمار بن ياسر رضي الله عنه، واللفظ له. صححه الألباني في «صحيح النسائي»، رقم ١٣٠٤، كما تنقله الموسوعة الحديثية بالدرر السنية؛ يختلف رقم هذه الرواية في مختصر الصحيح عن رقمها في أصل السنن. وقبول لفظ الدعاء على النص العربي الرقمي للسنن.

الرضا والغضب، وقصد في الفقر والغنى. تطلب حسن المآل، وتطلب ما يصلح طريقك إليه في البيت والسوق والمجلس. وللقيد «في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة» أثر في فهم الشوق. تسأل ربك شوقاً يصحبه الإيمان والعافية، ولا تحتاج إلى بلاء يكرهك في البقاء حتى ترغب فيما عنده. قد يعيش المؤمن في صحة وأهل ونعمة، فيحب ما أباح الله له ويشكر عليه، ويرجو فوقه نعيم الآخرة. معرفة الله ومحبة لقائه باعثن للشوق، حتى في أهنا أيام الحياة.

أما إذا نزل الضر، فقد جاء التوجيه النبوي الذي يحفظ الدعاء في حدوده. عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِيُضْرَ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مَتَمَّنِّيَا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي».¹²⁹

علم النبي ﷺ المتألم أن يرد الأمر إلى علم الله، دون أن يجزم بأن الموت خير له. طلب العافية والسعي في رفع الضرر عمل في الحياة، وتفويض الأجل عبودية لله؛ يجتمعان دون أن

129 حديث صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب كراهة تمني الموت لضر نزل به، حديث ٢٦٨٠، عن أنس رضي الله عنه، واللفظ له. النهي هنا متعلق بتمني الموت لضر نزل بالعبء، والدعاء الوارد يفوض إلى الله اختيار خير الحياة والوفاة.

يثبت الإنسان شوقه بترك أسباب نفعه. وإذا كان الذي يخيفك تقصيرًا تعرفه، فارجع إلى التوبة وحسن الظن اللذين تقدم بيانهما. تستطيع أن تصلح ما بين يديك، وأن ترجو رحمة ربك وأنت تعترف بحاجتك إليها.

وليكن للاستعداد إلى اللقاء عمل محدد. تصور أن بين يديك أمانة قديمة، تأخر ردها لأنك لم تضبط صاحبها أو مقدارها. اجعل تذكرك للقاء باعثًا إلى إتمام أمرها: استخرج الوثيقة، وتحقق من المقدار، وتواصل مع صاحب الحق، ورد ما استطعت رده على وجهه. إن بقي تفصيل يحتاج إلى علم، فاكتب السؤال واعرضه على أهله. هذا الاستعداد يصل الرجاء بأمانة قائمة، بدل أن يظل حديث الآخرة خاطرًا ينتهي بانتهاء الصفحة.

وإذا كان الحق يحتاج إلى بيان محفوظ، فرتب معلوماته بحيث لا يضيع إن غبت: ما لك وما عليك، وما هو ملك لغيرك بين أشياءك. احفظ ذلك عن غير أهله، وأوصل البيان إلى من يحتاجه بالطريق الصحيح. هذه وسيلة عملية تختلف باختلاف الناس، وغايتها أداء الحق وتقليل الالتباس. ثم امض إلى بقية يومك؛ فالاستعداد للقاء يعينك على حسن استعمال العمر الذي أنت فيه.

اسأل الله لذة النظر إلى وجهه والشوق إلى لقائه، وأحسن فيما بقي لك من الحياة. لك عمر تتزود فيه، ورب ترجو رحمته، ودعاء يصل حاجتك اليوم بما تطلبه عند لقائه.

وهذا دعاء ختامي منشأ بمعانٍ مشروعة، لا يُنسب إلى صيغة مأثورة:

اللهم ارزقنا محبتك، وأعنا على طاعتك، واغفر لنا تقصيرنا، وأصلح سرائرنا وأعمالنا. واجعل ما تعلمناه عوناً على حق نؤديه وخير نفعله، وارزقنا حسن الظن بك عند لقائك. آمين.

تدريب المحبة: من المعرفة إلى الاختيار

تساعدك هذه التمارين على مراجعة أفعال تستطيع ملاحظتها: تعلم، ووفاء، وبيان، وإصلاح. ليس الغرض أن تستخرج منها درجة لمحبة قلبك، أو حكمًا بقبول عملك. رجاؤك عند الله أوسع مما يحصيه جدول، ويمكن للجدول أن يعينك على حق تعلم حاجتك إلى أدائه.

الحالات التالية متخيلة للتدريب، وليست أخبارًا عن أشخاص. اقرأ الحالة، ثم فرق بين الفعل الذي ورد فيها وبين ما تتخيله عن نية صاحبه. إن كانت صورتك الواقعية تحتاج إلى فتوى، فاعرض تفاصيلها على من يحسن بيانها؛ جواب المثال لا يقوم مقام الحكم على كل واقعة تشبهه.

اختر في البداية تمرينًا يرتبط بموقف يتكرر في حياتك. دون جوابًا واضحًا، وجرب خطوة مناسبة، ثم راجع ما حدث. تحفظ في كتابتك خصوصية الناس، ولا تسجل أسماءهم أو أسرارهم دون حاجة. يستطيع من لا يحب الكتابة أن يراجع الأمر شفهيًا مع نفسه أو مع أمين يرضى بمشاركته؛ الوسيلة تنظيمية تتغير بحسب الحاجة.

التطبيق ١: مصدر تثبت منه

تصل إلى مجموعة رسالة تنسب إلى النبي ﷺ وعدًا خاصًا لمن قال ذكرًا في وقت معين. ألفاظها مؤثرة، ويطلب مرسلها نشرها سريعًا. لا تعرف مصدرها، وقد أعدت إرسال كلام مشابه من قبل دون تثبت.

حدد ما تعرفه بالفعل: وصلت رسالة تنسب نصًا إلى النبي ﷺ، ولم يتحقق عندك مصدره. توقفك عن النسبة لا يقتضي اتهام المرسل، وكثرة تداول الرسالة لا تثبتها. ابحث في مرجع موثوق أو اسأل من يحسن التخريج، وأخبر المجموعة أنك تنتظر التحقق؛ فإن لم يتبين الجواب، فلا تنسبها إلى النبي ﷺ.

اكتب ردك في جملتين: الأولى تصف حدود علمك، والثانية تعرض ما تستطيع فعله. تجنب أن تتهم المرسل بالكذب ما لم تعلمه، أو أن تثبت الحديث لأن معناه أعجبك. وإذا كنت نشرته بالفعل، اسأل عن تصحيح يصل إلى من تلقوه منك بقدر الحاجة.

ما تراجع	وصف تستطيع إثباته
أمانة النسبة	توقفت عن نسبة نص لم أعرف ثبوته
طلب العلم	عرفت مصدر السؤال ومن يستطيع إجابته

ما تراجعه	وصف تستطيع إثباته
الإصلاح	صححت ما نشرته إذا تبين خطؤه

راجع محبة الرسول ﷺ في الفصل ٦، وأمانة التثبت من الأخبار ونسبتها في الفصل ٥٥.

التطبيق ٢: موعد يحتاج إلى إعادة ترتيب

اتفق ثلاثة زملاء على إنجاز عمل في المساء. لاحظ أحدهم أن الموعد يتكرر معه تأخير الصلاة عن وقتها، لكنه يخشى أن يبدو قليل الاهتمام بالمشروع. يقول الآخرون إن التعديل صعب لأنهم اعتادوا الموعد.

فرق بين الواجب الذي تعرفه وبين طريقة الاجتماع التي يمكن تنظيمها. اكتب اقتراحين يحفظان الصلاة وإنجاز العمل: تعديل وقت، أو توقف معلوم، أو توزيع مختلف بحسب ما يناسب الواقع. لا تفترض أن الجميع يرفضون قبل أن يسمعوا اقتراحًا واضحًا.

جرب محادثة قصيرة تبدأ ببيان الحاجة ثم تقدم بديلاً يمكن فحصه. إذا رفض البديل، حدد ما يلزمك أنت وكيف تحفظ أمانة العمل بالطريق المناسب، واستفت فيما جهلت من تفاصيل الصورة. لا تعد بترتيب تعرف أنك لن تستطيع الوفاء به.

في المراجعة، سجل هل حصل بيان واضح، وهل تغير موعد أو إجراء، وهل أديت الواجب. إن بقيت مشكلة في التنسيق، فصفها دون الحكم على قلوب زملائك. لا تستخرج من نجاح الاجتماع أو تعثره حكماً على منزلة أحد عند الله.

يرتبط التمرين بتقديم الفرض في الفصل ١٩، وحدود رضا
الناس في الفصل ٥٠.

التطبيق ٣: مساعدة تحفظ حق صاحبها

قريب مريض يحب حضور أسرته، لكنه يتعب من كثرة الزوار. عرضت زيارته، ثم علمت أنه يريد من يقضي حاجة قصيرة خارج البيت أكثر من حاجته إلى مجلس طويل. كنت تتصور أن زيارتك أفضل صور الوفاء.

اكتب الفرق بين الذي ترغب في بذله وبين الذي رضي صاحبك بقبوله. قد تستطيع فعل المهمة، وقد تحتاج إلى أن تشارك شخصاً آخر، وقد لا تملك وسيلة تنفيذها. في كل صورة يبقى البيان الصادق ممكناً.

اعرض عوناً محدداً تستطيع الوفاء به: ماذا ستفعل، ومتى، وما المعلومات اللازمة؟ اترك له حق الاعتذار فيما يملكه، وارجع إلى أهل الاختصاص في تفاصيل الرعاية. لا تعده بنتيجة علاجية أو بصورة تحسن لم تعرفها.

بعد التنفيذ، راجع ثلاثة أمور: هل سألت عن الحاجة؟ هل التزمت بحد المساعدة المتفق عليه؟ وهل حفظت الخصوصية التي اطلعت عليها؟ إذا شكرك، فاشكر الله؛ وإذا كان متعباً فلم يذكر شكرك، فلا تجعل تعبه اختباراً لمودته.

يستعين التمرين بآداب الزيارة في الفصل ٣٨، واختيار المعروف المناسب في الفصل ٥٧.

التطبيق ٤: حق يظهر على من تحب

طلب صديقك أن تشهد له في خلاف مالي. تعرفه حسن المعاملة، لكنك لم تشهد الاتفاق المختلف عليه. قال إن ثقته بك كبيرة، وإن سكوتك سيبدو تخليًا عنه.

افصل ما رأيته عن الذي سمعته منه وما ترجحه بسبب معرفتك به. اكتب لكل واحد جملة بصيغته الصحيحة. إذا عرضت معلوماتك على جهة الفصل، فابقها بهذه الحدود؛ الترجيح لا يصير مشاهدة لأنك تحب صاحب الرواية.

اختر عونًا مباحًا آخر: ترتيب المستندات، أو مساعدته على عرض السؤال، أو تعريفه بمن يحسن الإجراء. لا تقدم نصيحة قانونية متخصصة إذا لم تعرفها، ولا توقع على واقعة لم تعلمها.

جرب ردًا يحفظ المحبة وصدق الشهادة معًا. ثم راجع: هل وصفت علمك كما هو؟ هل عرضت عونًا يمكنك أدائه؟ وهل تحملت قدرًا من غضبه دون أن تغير حقيقة ما تعلمه؟ رضاه عن جوابك معلومة تخص الحوار، وليس المعيار الوحيد لصحة الجواب.

ارجع إلى الفصل ٣٧ في العدل مع المحبوب، وإلى الفصل ٥٠ في كلفة حفظ الحق.

التطبيق ٥: مواساة بلا تفسير مصنوع

أخبرتكَ أختك أن فرصة كانت تنتظرها فاتتها. قلت سريعاً إن الله منعها ليعطيها فرصة أفضل قريباً. ثم سألتك: متى؟ وكيف تعرف؟ لاحظت أنك قلت رجاءك في صورة خبر عن المستقبل.

صحح العبارة دون أن تسلبها الرجاء: بين أنك لا تعرف المستقبل، وأنت ترجو لها خيراً، ثم اسأل عن العون الذي تحتاجه الآن. يمكنك مراجعة إجراء معلوم معها، أو الاستماع قليلاً، أو دعوتها إلى جهة تستطيع مساعدتها إذا احتاجت.

اكتب ثلاث عبارات في خانات مختلفة: حقيقة تعرفها، ورجاء تسأله، واحتمال بشري يحتاج إلى فحص. راجع ألا تنتقل عبارة من خانة إلى أخرى لأن وقعها أجمل. إذا ظهرت منفعة لاحقة، تستطيع أن تحمد الله عليها دون أن تدعي أنها الحكمة الوحيدة مما حدث.

في المتابعة، سجل هل صحت الوعد، وهل قدمت عوناً معلوماً، وهل تجنبت تعيين ذنب خفي أو منزلة خاصة لها. لا تطلب منها أن تعلن زوال حزنها لتثبت أن مواساتك نجحت.

موضع التمرين الفصل ٤٢: الفرق بين العلم بالسبب والجزم بحكمة الواقعة.

التطبيق ٦: خطوة بعد زلة

نقلت خبرًا عن زميل على أنه ثابت. تبين لك أن جزءًا منه غير صحيح، وقد أثر في رأي أشخاص تجاهه. ندمت، لكنك تخشى أن يتغير رأيهم فيك إذا صححت ما قلت.

اكتب الفعل الذي تعلم وقوعه دون زيادة: من سمع منك؟ وما الجزء الذي تستطيع تصحيحه؟ وما الحق الذي ما زال متأثرًا؟ احفظ الخصوصية في تدوينك، واعرض على أمين أو عالم ما أشكل في طريقة الإصلاح إذا خشيت ضررًا إضافيًا.

عين خطوة توقف الخطأ أولاً، ثم خطوة تصلح أثره بقدر الحاجة. لا تجعل كثرة وصف ندمك بديلاً عن الإجراء، ولا تنتظر ضمان أن الجميع سيحسنون استقبال التصحيح. تستطيع أن تعتذر عن نسبة معلومة، وأن تبين الصحيح الذي تعلمه، دون أن تكشف تفاصيل لا تخدم الحق.

في المراجعة، افصل بين تصحيح وقع بالفعل وبين ارتياحك بعده. ربما بقي خجل في النفس رغم أداء ما لزم، وربما شعرت براحة قبل أن يصل التصحيح إلى أصحابه. تعتمد المتابعة على العمل الذي نفذ، وتسال الله صلاح القلب والقبول.

يتصل التمرين بالفصل ٤٤ في العودة الصادقة، والفصل ٥١ في وصل الكلام بالعمل.

التطبيق ٧: مجلس يتغير موضوعه

تلتقي أصدقاء تحبهم، لكن الحديث في مجلس متكرر صار يقوم على السخرية من غائبين. في المجلس نفسه خير وخبرة وتعاون؛ ولذلك تجد صعوبة في اتخاذ قرار واحد يشمل الصلة كلها.

حدد السلوك الذي يحتاج إلى تصحيح بدل أن تصف أشخاص المجلس جميعًا بوصف شامل. جرب اقتراح موضوع نافع أو تنبيهًا تعرف حكمه وأدبه. إذا بقي الأذى، فانظر في تقليل الحضور أو تغيير طريق التواصل بما يحفظ ما يلزمك من حقوق.

اكتب ما تريد الاحتفاظ به من الصلة المباحة، وما تريد أن تمتنع عن المشاركة فيه، وما البديل الذي تستطيع عرضه. لا تعد بأنك ستصلح الجميع، ولا تجعل كل اختلاف في الرأي سببًا لترك المجلس؛ موضوع التمرين فعل ثبتت حاجته إلى كف أو تصحيح.

في المراجعة، سجل ما شاركت فيه بالفعل، وهل استطعت تغيير شيء من موضوع المجلس، وكيف حفظت التزامك إذا لم يتغير. ربما احتجت إلى مزيد من العلم بطريقة الإنكار أو

أحكام المخالطة؛ عين السؤال قبل تكرار تجربة لا تعرف
حدها.

ارجع إلى الفصل ٥٨ في أثر الصحة، والفصل ٥٢ في وسيلة
التصحيح.

التطبيق ٨: تصحيح بلا انتصار للنفس

نشرت بيانًا يصحح خبرًا دينيًا غير ثابت. رد عليك شخص بإهانة، ثم ظهرت معلومة تدل على أنك أخطأت في جزء من جوابك. بقي أصل الحاجة إلى تصحيح الخبر، وبقي لك حق في رفض الإهانة.

افصل القضايا الثلاث: الخبر الأول، والجزء الذي أخطأت فيه، والعبارة التي آذتك. اكتب لكل قضية إجراء يناسبها. تستطيع أن تحفظ الصحيح، وتصحح خطأك، وتوقف الحوار المسيء أو ترفع الشكوى في موضعها المشروع.

جرب صياغة تصحيح علني بقدر ما انتشر الخطأ، دون إعادة الإهانة أو إضافة تهمة لا تعلمها. وإذا كان في الأمر خلاف علمي، فبين موضعه وارجع إلى من يحسن بحثه. سرعة الرد ليست وحدها دليل الغيرة، والتأخر للتثبت قد يحفظ الدليل والناس معًا.

بعد ذلك، راجع هل أقررت بما ظهر من خطئك، وهل اقتصررت على الحاجة، وهل حفظت لمن خالفك حقًا ثبت له. لا تحول نجاح الصياغة إلى شهادة على إخلاصك؛ استعن بها لتعرف موضع التحسن وما يحتاج إلى عمل آخر.

يربط التمرين الفصل ٥٢ في الغيرة بالعدل، والفصل ٦٠ في حدود تزكية النفس.

ورقة متابعة موقف واحد

الخانة	ما تكتبه
الموقف	وصف موجز بلا أسماء أو أسرار غير لازمة
ما أعرفه	وقائع شاهدها أو معلومات ثبتت لي
ما أجهله	حكم أو تفصيل يحتاج إلى سؤال محدد
الحق الحاضر	الواجب أو الحد الذي علمت حاجته في الموقف
الخطوة	عمل مشروع أستطيع أدائه وموعد مناسب له
النتيجة الظاهرة	الذي نفذ فعلاً والذي بقي وسبب بقاءه
التصحيح	تغيير واحد في المعرفة أو الوسيلة أو الاتفاق

راجع الموقف بعد وقت يسمح بظهور أثر الخطوة؛ قد يكون يوماً أو أياماً بحسب طبيعته. المدة اختيار تنظيمي، ويقدم عليها واجب يحتاج إلى المبادرة. إن أردت تكرار الورقة، فاجعل لكل موقف سؤالاً حقيقياً، ولا تملأها لتجمع عدداً من الأعمال.

استخدم ثلاثة أوصاف في المتابعة: «نفذت»، و«نفذت بعضه»، و«لم أنفذ». أضف سبباً معلوماً إن وجد، ثم حدد ما يلي. تصف هذه الكلمات التنفيذ، ولا تصف قبول الله أو منزلة القلب. قد يفيدك أن تكتشف أن الخلل جهل قبل أن يكون سوء تنظيم، أو وعد غير مناسب قبل أن يكون ضعف إرادة.

وحين ترى تحسناً، احمده الله واحفظ الأصل النافع. وحين ترى تقصيراً، سمّه بما تعرف وأصلحه. وإذا صارت المتابعة نفسها مرهقة، فقللها واستعن بما يناسب حاجتك؛ غرضها أن تعينك على الحياة والعبادة، لا أن تستولي على الوقت الذي تحتاجه لأدائهما.

التطبيق ٩: خلوة رقمية لها باب

يملك موظف صلاحية الدخول إلى مجلد مشترك فيه بيانات لمتعاملين مع المؤسسة. لا يراقبه أحد في الساعة المتأخرة، ويستطيع فتح ملفات لا يحتاج إليها في مهمته. أخبر نفسه أن الفضول عابر، وأنه لن ينقل شيئًا خارج النظام.

ابدأ بوصف الصلاحية وحدود الحاجة. القدرة التقنية على فتح الملف لا تعني الإذن المهني في قراءته. اكتب ما تقتضيه مهمتك الآن، وما يقع خارجها، ومن تراجعه إذا التبس نطاق الوصول. لا تحوّل التمرين إلى اتهام لكل فضول بأنه خيانة مكتملة؛ المطلوب إيقاف الفعل الذي لا تملك له حاجة أو إذنًا، ثم تقوية الحاجز الذي يمنع تكراره.

نقذ حاجزًا ظاهرًا يناسب الواقع: أغلق التبويب غير اللازم، أو اطلب تضيق الصلاحية، أو اكتب قائمة الملفات المرتبطة بالمهمة قبل البدء. إذا كنت قد فتحت مادة لا يحق لك الاطلاع عليها، فلا تنقلها ولا تحفظها، واسأل الجهة المختصة عن طريقة الإبلاغ والإصلاح من غير توسيع دائرة الكشف. تختلف سياسات الجهات، فلا تخترع إجراءً أمنيًا من المثل.

راجع بعد ثلاثة أيام: هل بقيت داخل حدود الإذن؟ هل أدى الحاجز وظيفته؟ هل ظهر حق آخر يحتاج إلى ترتيب؟ هذه

أُسئلة عن سلوك تستطيع معرفته. أما صدق المراقبة في قلبك
وكمال محبتك لله، فتسأل الله صلاحهما ولا تدعي قياسهما.
يرتبط التمرين بالخلوة في الفصل ٢٧، وبالتعلق الذي يزاحم
الحقوق في الفصل ٤٩.

التطبيق ١٠: تعلّم الحكم قبل المفاضلة

عرض عليك قريب أن تدخل معه في معاملة مالية وصفها بأنها فرصة نادرة. شرح لك الربح المتوقع، لكنه لم يوضح رسوم التأخير ولا طريقة تملك السلعة. تميل إلى الموافقة لأنك تثق به، وتخشى أن يبدو طلب التفاصيل سوء ظن.

اكتب صورة المعاملة كما حدثت، لا كما سُمّيت: من يدفع؟ ومتى؟ وما الذي يُباع أو يُشترى؟ وما الالتزامات عند التأخر؟ ثم ضع خطأ تحت كل معلومة ما زالت ناقصة. مهتمك هنا أن تصوغ سؤالاً صحيحاً لمن يحسن الحكم، لا أن تصدر حكماً فقهياً بنفسك. الاسم التجاري وحده لا يكشف الصورة، وثقتك بالشخص لا تغني عن معرفة العقد.

اطلب المستند أو الشروط الكاملة، وحدد مهلة تسمح بالسؤال. إذا قيل لك إن الفرصة تضيع بمجرد التثبت، فاجعل هذه المعلومة جزءاً من قرارك ولا تجعل العجلة دليلاً على الجواز أو المنع. قد تكون المعاملة مباحة بعد البيان، وقد تحتاج إلى تعديل، وقد تتركها؛ النتيجة لا تُعرف قبل فهم الصورة.

درّب نفسك على جملة تحفظ المودة والعلم معاً: «أثق بحرصك على الخير، وأحتاج إلى فهم هذه البنود وسؤال من

يعرف حكمها قبل أن ألتزم». إن غضب قريبك، فلا تجعل غضبه حكمًا فقهياً. وإن أجازها من تثق بعلمه بعد عرض جميع التفاصيل، فالتزم بالشروط التي فهمتها ولا تحول الجواب إلى قاعدة لكل عقد يشبهها في الاسم.

في ورقة المتابعة سجل: المعلومات التي جُمعت، والسؤال الذي عُرض، والجواب في صورته المحددة، والقرار الذي اتخذته. لا تسجل أنك «قدمت محبة الله» بوصفها درجة حُسنت؛ سجل أنك تعلمت الحكم قبل الاختيار في هذه الواقعة.

موضعه الفصل ٤٩ في ترتيب المحبوبات، والفصل ٦٢ في تعلم الحكم وصياغة السؤال.

التطبيق ١١: حنين يحفظ حقوق الأحياء

بعد وفاة والدته، صار شاب يعود كل ليلة إلى الرسائل والصور. يجد في ذلك قربًا ووفاء، لكنه يؤجل به نومه وعمله، وبقيت أوراق مالية تخص الورثة لم تُجمع. يقول لنفسه إن الانتقال إلى هذه الإجراءات قسوة لا تليق بالمحبة.

اعترف أولاً بأن الحزن والحنين لا يحتاجان إلى إنكار. ثم افصل بين الذكرى وبين الحقوق التي لا تحتل الإهمال. اكتب قائمة قصيرة بما ثبتت الحاجة إليه: جهة تسأل عن إجراءات التركة، مستند ينبغي حفظه، قريب يحتاج إلى إبلاغ، ووقت راحة يحفظ قدرتك على العمل. لا تحاول حسم مسائل الميراث من تمرين؛ تُعرض تفاصيلها على من يعرف الحكم والنظام.

اختر للذكرى وعاءً لا يبتلع بقية اليوم: وقتًا معلومًا لقراءة شيء أو الدعاء، أو ملفًا تحفظ فيه ما يجوز لك حفظه. قبل مشاركة رسالة أو صورة، راع خصوصية المتوفى وحقوق من يظهر فيها. ليست كل مادة وصلت إلى هاتفك ملكًا مباحًا للنشر، ولا كل كتمان جفاءً. إذا اختلف أفراد الأسرة، اطلبوا بيانًا يحفظ الحق بدل أن تجعلوا شدة الحزن حجة لأقوى صوت.

جرب خلال أسبوع خطوتين متوازيتين: خطوة وفاء يمكن أدائها، كدعاء أو صدقة مشروعة أو صلة رحم، وخطوة تحفظ حقًا قائمًا، كجمع مستند أو حضور موعد. لا تجعل واحدة منهما بدل الأخرى. وربما احتجت إلى عون نفسي أو اجتماعي إذا صار الحزن يعطل حياتك مدة مؤذية؛ طلب العون لا يمحو المحبة.

راجع ما أنجز وما بقي، وسبب بقاءه. لا تسأل الورقة: هل حزنْتُ بالقدر الكافي؟ اسأل: هل حفظت حقًا؟ هل تجنبت نشر خصوصية؟ هل وجدت وقتًا يفسح للحزن من غير أن يسلم له كل الواجبات؟

يرجع التمرين إلى الفصل ٤٣ في الحنين، وإلى الفصل ٤١ في محبة لا تشترط اليسر.

التطبيق ١٢: قراءة تتجدد ولا تطلب إشارة

قرر قارئ أن يعود إلى سورة يكثر سماعها. في اليوم الأول تأثر، وفي اليوم التالي وجد ذهنه مشتتًا. بدأ يبحث عن مقطع جديد كل مرة ليحصل على الشعور نفسه، ثم ظن أن فتوره دليل على أن القراءة لم تعد تنفعه.

اختر مقطعًا محدودًا يناسب وقتك، واقرأه من مصحف مضبوط. اكتب كلمة لم تفهمها وسؤالًا واحدًا عن المعنى، ثم ارجع إلى تفسير موثوق أو إلى معلّم يحسن البيان. لا تجعل عدد الصفحات غاية التمرين، ولا تجعل شدة التأثير شرطًا كي تواصل. المقصود أن يتجدد العلم والصحة، وقد يأتي الأُنس وقد يتأخر.

بعد الفهم، التقط أثرًا عمليًا واحدًا دل عليه النص في حدوده. إن كان أمرًا واضحًا عملت به، وإن كان حكمه أو تنزيله ملتبسًا سجلته سؤالًا. لا تستخرج من توافق الآية مع حادثة يومك رسالة خاصة عن المستقبل. القرآن هدى، وليس دفتر شفرات شخصية نعين بها ما لم يعينه الوحي.

كرر المقطع في ثلاثة أيام بطرائق مختلفة: قراءة هادئة، وسماع قارئ متقن مع متابعة المصحف، ومراجعة معنى كتبه. لاحظ أي وسيلة أعانتك على الحضور من غير أن

تحكم على منزلة قلبك. إذا كان السماع يشترك في وقت معين، فغير الوقت أو قلل المقدار؛ الوسيلة تخدم العبادة ولا تستولي عليها.

اكتب في النهاية: معنى تعلّمته، وسؤالاً بقي، وعملاً ظهر أثره. لا تكتب «بلغت المحبة» أو «لم أصل إليها». تجدد القراءة يظهر في رجوعك إلى الوحي وفهمك وتصحيحك، أما القبول فترجوه من الله.

يرتبط التمرين بالفصل ٥٩ في تجدد صحبة القرآن، ويستعين بالفصل ١٧ في فهم الخطاب على وجه العلم.

التطبيق ١٣: حدود التقييم

أنهى شخص أسبوعاً من العبادات والخدمة، ثم صنع لنفسه جدولاً يمنح كل عمل نقاطاً. سرعان ما صار مجموع النقاط يرفعه إذا زاد ويقلّطه إذا نقص، وبدأ يقارن رقمه بأرقام أصدقائه.

أوقف أولاً كل خانة تزعم قياس القبول أو منزلة القلب. يمكن للجدول أن يثبت موعداً حفظته، أو ورداً قرأته، أو حقاً أديته، لكنه لا يملك أن يقول كم أحبك الله أو مقدار إخلاصك. اكتب فوق الورقة: «متابعة تنفيذ، لا شهادة قبول».

قلل الخانات إلى ثلاثة: عمل ظاهر محدد، وعائق معلوم، وخطوة تالية. إذا صليت الفرض في وقته، سجل الواقعة لتتعلم التنظيم؛ وإذا فاتك موعد، سجل السبب الذي تعرفه وطريقة علاجه. تجنب الألفاظ الشاملة مثل «أنا فاشل» و«أنا صادق تماماً». هذه الأحكام لا تعينك على خطوة، وقد تتجاوز ما تعلمه عن نفسك.

إن احتجت إلى رفيق متابعة، فاتفقا على أسئلة عملية: هل نُفذ العمل؟ ما العائق؟ ما المساعدة الممكنة؟ شارك ما يعين على هذه الغاية واحفظ خصوصيتك وخصوصية الناس؛

فالمتابعة عون على التنفيذ، وليست منافسة في منزلة القلوب.

اختبر الأداة سبعة أيام، ثم احذف منها ما لم يغير قرارًا أو يحفظ حقًا. إذا زادت الوسوسة أو استهلك التسجيل وقت العمل، اختصره أو اتركه واستعن بتوجيه مناسب. نجاح الأداة في تنظيمك لا يجعلها عبادة ماثورة، وفشلها لا يثبت ضعف إيمانك.

موضعه الفصل ٦٠ في الرجاء بلا تزكية، وورقة المتابعة السابقة في هذا التدريب.

التطبيق ١٤: هدية بين الأبناء

أراد أب أن يكافئ ابنًا لأنه نجح، فاشترى له هدية كبيرة. تذكرت ابنته أنها ساعدته في أشهر مضت ولم تحصل على مثلها، فشعرت أن محبته لأخيها أكبر. أجاب الأب أن النيات طيبة وأن لكل موقف ظروفه، ثم انتهى الحوار دون بيان.

اكتب الوقائع قبل الدفاع: ما الهدية؟ وما سببها المعلن؟ وهل توجد هبات سابقة أو حاجات مختلفة؟ وما الذي تعرفه من أحكام العدل بين الأولاد وما الذي تجهله؟ لا يحسم التمرين الحكم الفقهي لصورة لها تفاصيل؛ يعينك على جمعها وعرضها على من يعرفها.

استمع إلى الابنة دون أن تلزمها بإثبات أنها لا تغار. الشعور قد يحضر، والمطلوب أن تُفهم الشكوى والحق. يستطيع الأب أن يشرح قصده، وأن يسأل عن الحكم، وأن يصحح تفاوتًا إن ظهر، أو يبين فرقًا معتبرًا بعد العلم. حسن النية باب رجاء، لكنه لا يغني عن مراجعة الأثر والحكم.

اكتب محادثة من أربع جمل: وصف الموقف، وسؤال عن الألم، وبيان لما يحتاج إلى تحقق، وموعد للجواب أو الإصلاح. تجنب جملة «لو كنت تحبين أخاك لما تكلمت»، فهي تجعل

السكوت شرطًا للمحبة. وتجنب وعدًا ماليًا قبل أن تعرف القدرة والحكم.

في المتابعة سجل هل جُمعت الوقائع، وهل سُئل من يحسن الحكم، وهل وصل البيان إلى الأبناء، وهل نُفذ ما لزم. رضا الجميع فورًا ليس مضمونًا، لكن الوضوح والعدل والإصلاح أفعال يمكن تعاهدها.

يرتبط التمرين بالفصل ٣٧ في العدل مع من نحب، والفصل ٣٦ في الرفق داخل البيت.

التطبيق ١٥: اختلاف لا يقطع المعروف

اختلفت مع زميلة في طريقة إدارة مشروع تطوعي. اشتد النقاش، ثم صرت تتجنب رد السلام وتؤخر معلومة تحتاجها لإنجاز مهمتها. أخبرت نفسك أنك تحمي الفريق من رأيها.

افصل الخلاف الإداري عن الحقوق التي بقيت. تستطيع أن تعترض على المقترح، وتطلب توثيق القرار، وتعرض الأمر على المسؤول، مع بقاء السلام والمعلومة والأمانة في وقتها. اكتب كل حق مستقلاً عن تقييمك للرأي؛ هذا يمنع الخصومة من أن تمتد إلى أعمال لا تتعلق بها.

جهز اعتراضًا يذكر أثرًا يمكن فحصه: تكلفة، وقت، مسؤولية، أو خطر معلوم. اترك أوصاف الشخصية التي لا تخدم القرار. وإذا كنت قد حجبت معلومة، أوصلها وبيّن ما يحتاج إلى تصحيح. الاعتذار عن التصرف لا يلزمك بالموافقة على الرأي المختلف عليه.

ثم اختر معروفًا صغيرًا لا يصطنع قربًا غير موجود: إجابة واضحة، مشاركة ملف، أو شكر على جهد تحقق. المقصود ألا يجعل الشنآن العدل ثقیلاً عليك، لا أن تلغي الحدود المهنية أو تتظاهر بزوال الخلاف. وإذا وقع أذى أو تحرش أو خطر،

فالحماية والإبلاغ بالطرق المشروعة مقدمان على صورة
مجاملة سطحية.

راجع بعد انتهاء المهمة: هل وصل الحق؟ هل بقي الاعتراض
محددًا؟ هل استعملت سلطة أو معلومة للانتقام؟ لا تستخرج
من تعاونها أو رفضها حكمًا على قلبها، ولا تجعل حسن
معاملتك شهادة على كمالك؛ صف ما فعلته وما بقي.

يستعين التمرين بالفصل ٦٣ في الاختلاف الذي يحفظ
المعروف، والفصل ٥٧ في المعروف الممكن.

التطبيق ١٦: محبوب يزاحم الفرض

تعلق طالب بمشروع علمي نافع، وصار يقول إنه يخدم به الناس. يواصل العمل حتى يؤخر الصلاة ويعتذر عن التزاماته المنزلية، ثم يرى أن مطالب أهله لا تفهم قيمة رسالته.

اكتب جدولاً لثلاثة أيام يبين الأوقات كما وقعت، لا كما كنت تنويها. ضع الفرائض والالتزامات المؤكدة أولاً، ثم وقت المشروع. قد يظهر أن المشكلة ليست في نفع المشروع، بل في تمده بلا حد. وقد يظهر واجب أو حق لا تعرف قدره، فتسأل عنه بدل أن ترتبه بذوقك وحده.

حدد نقطة توقف واضحة للعمل: تنبيه قبل الصلاة، إغلاق ملف، أو اتفاق أسري على ساعات لا تتعارض مع حاجة ثابتة. إذا كان المشروع ضمن وظيفة لها واجبات، فنسق مع المسؤول بما يحفظ الأمانة ولا تستخدم الحماسة عذراً للتقصير. وإذا احتاج العمل إلى وقت إضافي، اطلبه بوضوح ولا تفرضه على من يتأثرون به.

لاحظ اللغة التي تحمي التعلق: «لا أحد يفهم رسالتي»، أو «سأرتب كل شيء بعد أن أنتهي». استبدلها بوصف قابل للاختبار: بقيت مهمتان، والموعد كذا، والحق الذي تأخر هو

كذا. كلما صار الوصف محدداً، أمكن أن تتوب من تقصير أو تعيد توزيع وقت دون إعلان حرب على المشروع كله. في المتابعة سجل الصلاة والالتزام والوقت الفعلي للمشروع. لا تقارن مقدار حماسك بحماس غيرك، ولا تجعل التعب وحده دليلاً على فضل العمل. النفع الحقيقي يصحب أمر الله وحقوق الناس، ويحتاج إلى حدود تحفظ استمراره. يرتبط التمرين بالفصل ١٩ في تقديم الفرض، والفصل ٤٩ في التعلق الذي يأخذ أكثر من حقه.

التطبيق ١٧: علامة تطلبها النفس

دعا شخص بدعاء يحبه، ثم رأى في يوم واحد عبارتين متشابهتين على هاتفه. عدّ ذلك رسالة خاصة بأن حاجته ستقضى في موعد قريب، وبدأ يبني قرارات مالية على هذا الظن.

اكتب ما وقع دون تفسير: دعوت، ثم قرأت عبارتين متشابهتين. لا تضيف خبراً عن الغيب لم يثبت. تستطيع أن تفرح بما ذكرك بالله، وأن تواصل الدعاء، من غير أن تجعل المصادفة وعداً زمنياً أو إذناً في مخاطرة.

ارجع في القرار المالي إلى أسبابه: القدرة، والعقد، والمشورة، والحكم. إن كان القرار يحتاج إلى معلومة، فاطلبها؛ وإن كان فيه استخارة، فافهمها في بابها ولا تشترط بعدها حلماً أو إشارة. الانشراح عامل بشري قد يحضر، لكنه لا يقلب المحرم مباحاً ولا يغني عن الواجبات.

اكتب عمودين: «دليل أعرفه» و«معنى خطر لي». ضع كل عبارة في مكانها. إذا لم تجد دليلاً على الوعد الذي توهمته، فلا تنسبه إلى الله ولا تبني عليه قراراً يمس حقك أو حق غيرك. ولا تقدمه للناس علامة عامة على القرب أو الحرمان؛ فالمصادفة لا تنشئ تشريعاً ولا تكشف الغيب.

بعد أسبوع راجع القرارات التي اتخذتها: هل قامت على معلومات ثابتة؟ هل نسبت إلى الله وعدًا لم تعرفه؟ إن وقع ما رجوت، فاحمد الله من غير جزم بأن تفسيرك السابق كان صحيحًا. وإن لم يقع، فلا تجعل ذلك تكذيبًا للدعاء أو دليلًا على بعدك؛ صحح الفهم واستمر في عبادة تعلم مشروعيتها. موضعه الفصل ٤٢ في حدود ما نعلمه، والفصل ٦٠ في طلب الشهادة والقبول.

التطبيق ١٨: عبادة في زمن الفتور

اعتاد شخص أن يقرأ مقدارًا طويلاً ويقوم بجملة من النوافل. مر بأسبوع مرهق، فقل حضوره القلبي وترك البرنامج كله لأنه لا يريد عملاً بلا شعور. زاده الترك وحشة، وصار ينتظر يوماً تعود فيه الرغبة كاملة.

ابدأ بالفرائض والحقوق التي لا يسقطها تغير الشعور. اكتب ما يلزمك اليوم فعلاً، وما هو نافلة تستطيع تقليلها دون أن تسمي التقليل فشلاً. اختر قدرًا صغيرًا صحيحًا: صفحات محدودة، أو ركعات تعرف حكمها ووقتها، أو ذكرًا ثابتًا. لا تخترع عددًا تنسب له فضلًا خاصًا بلا دليل؛ المقدار هنا لتنظيم قدرتك.

هيئ سببًا واحدًا يعين: نومًا أبكر، أو مكانًا أقل تشتيًا، أو صبة تذكرك من غير محاسبة مرهقة. إذا كان الفتور مرتبطًا بمرض أو إرهاق مستمر، فالعناية بالجسد وطلب المختص جزء من تحمل المسؤولية، ولا يُختزل كل ضعف في اتهام روعي.

نفذ الخطة خمسة أيام، ثم راجع الاستمرار لا حرارة الشعور. ربما وجدت أن القليل فتح لك باب زيادة، وربما بقي ثقیلاً. في الحالتين تسأل: هل أديت الواجب؟ هل حافظت على قدر

تستطيع دوامه؟ هل احتجت إلى علم أو راحة أو تصحيح؟
هذه أسئلة تعين الحركة من غير ادعاء إحاطة بالقلب.

وإذا عاد النشاط، فلا تعاقب أيام الفتور ببرنامج مضاعف
ينهار سريعًا. زد بالتدرج، واترك مساحة للحقوق الأخرى.
المحبة لا تختصر في لحظة وجد، ولا تنفصل عن عمل يصدق
الوجهة حين تخف المشاعر.

يرتبط التمرين بالفصل ٢٨ في فتور المشاعر، والفصل ٢٠ في
صحبة العمل القليل.

برنامج متابعة لواحد وعشرين يومًا

هذا البرنامج إطار تنظيمي، وليس وردًا ماثورًا ولا سلّمًا لقياس المحبة. اختر منه ما يناسب حاجتك، ولا تجمع كل التطبيقات. يكفي في كل أسبوع موقف واحد متكرر، وحق واحد تريد حفظه، ووسيلة متابعة خفيفة. إذا كان في واقعك واجب عاجل، قدمه على ترتيب الأيام.

الأسبوع الأول: المعرفة قبل الحركة

غايته أن تميز ما تعرفه مما تظنه، وأن تصوغ سؤالاً صالحاً عند الجهل.

اليوم	العمل المقترح	أثر ظاهر تراجع
١	اختر موقفًا واحدًا من حياتك واكتبه بلا أسماء	وصف واقعة دون حكم على النية
٢	افصل المعلومات عن التوقعات	قائمتان قصيرتان لا تختلطان
٣	حدد حكمًا أو تفصيلًا تجهله	سؤال واحد واضح
٤	اختر مصدرًا أو شخصًا مؤهلًا للسؤال	جهة معلومة بدل بحث مشتت
٥	اجمع التفاصيل المؤثرة قبل السؤال	صورة لا تخفي منفعة أو ضررًا
٦	اقرأ الجواب في حد الواقعة	لا تعميم خارج الصورة
٧	اكتب القرار الأول وما يحتاج إلى مراجعة	خطوة قابلة للتنفيذ

إن لم تحصل على جواب موثوق في الأسبوع، لا تملأ الفراغ بتخمين. سجّل أن المسألة مفتوحة، واتخذ ما يلزم من توقف أو احتياط مشروع بعد سؤال من يحسن تقديره. ليس كل تأخير ممكنًا، لذلك تختلف طريقة التعامل بحسب الحق والموقف.

الأسبوع الثاني: حق واحد يؤديه الحب

اختر حقًا ظاهرًا اتضح لك: موعد، أو اعتذار، أو صلاة، أو معلومة، أو مساعدة وافقت عليها. لا تختَر وصفًا عامًّا مثل «سأكون أفضل»، بل فعلًا يعرف وقته وصاحبه وحدّه.

اليوم	العمل المقترح	سؤال المراجعة
٨	حدد الحق وصاحبه وموعده	ما الذي يلزمني معرفته؟
٩	قلل العوائق أو اطلب عونًا	ما السبب الذي أستطيع تغييره؟
١٠	نفذ الجزء الأول	ماذا وقع فعلًا؟
١١	أخبر من يتأثر إن تغير الاتفاق	هل بقي على بينة؟
١٢	صحح نقصًا ظهر	ما التعديل المحدد؟
١٣	أتم العمل أو بيّن العجز	هل حفظت الصدق والقدرة؟
١٤	اشكر الله ومن أعانك	ما الأصل الذي أريد إبقاءه؟

لا تجعل شكر الناس شرطًا لتسجيل التنفيذ، ولا تجعل عدم شكرهم إذنًا لإسقاط حق آخر. إذا كان الحق متبادلًا أو محل نزاع، افصل أداء ما عليك عن مطالبتك بما لك، واستعمل الطريق المشروع لكل واحد.

الأسبوع الثالث: مداومة وتصحيح

انظر إلى ما تعلمته في الأسبوعين السابقين، واختر عادة واحدة تحفظ المعرفة أو الحق. قد تكون إغلاق الهاتف في وقت، أو سؤالاً قبل نشر حديث، أو مراجعة أسبوعية لوعد، أو مجلس قراءة قصير.

اليوم	العمل المقترح	حد الحماية
١٥	صغ العادة في جملة واحدة	لا تشمل أكثر من فعل
١٦	عيّن وقتاً أو علامة بداية	لا تعتمد على المزاج وحده
١٧	نفذها في صورتها الصغرى	لا تضاعفها تعويضاً
١٨	راجع أثرها في الحقوق الأخرى	لا تصلح شيئاً بإفساد غيره
١٩	اطلب تصحيحاً من أمين عند الحاجة	لا تحول المتابعة إلى كشف أسرار
٢٠	عدّل الوسيلة مع حفظ المقصد	الوسيلة ليست عبادة بذاتها
٢١	اكتب ما سيستمر وما سيتوقف	قرار واضح بلا شهادة قلبية

في نهاية الأيام، لا تجمع النقاط ولا تقارن نفسك بغيرك. اكتب فقرة من ثلاثة أسطر: معرفة صحتها، وحقاً أديته، ووسيلة ستستمر بها. ثم اكتب ما بقي سؤالاً مفتوحاً. هذا القدر يكفي ليكون للبرنامج أثر قابل للمراجعة.

تقويم التدريب دون الحكم على القلب

استعمل الجدول التالي بعد أي تطبيق. اختر وصفًا واحدًا لكل بند، ثم اكتب دليلًا مختصرًا من الواقع. إذا لم تعرف، فاكتب «لم يتبين» بدل تخمين يريحك.

البند	نُفذ	نُفذ بعضه	لم يُنفذ	الدليل الظاهر
وصفت الواقعة دون زيادة				
عيّنت ما أجهله				
سألت الجهة المناسبة عند الحاجة				
حفظت حقًا معلومًا				
صححت أثر خطأ سابق				
احترمت الخصوصية والقدرة				
حددت خطوة تالية واقعية				

هذه البنود لا تجمع في درجة كلية. قد يكون بعضها غير متعلق بموقفك، وقد يكون بند واحد واجبًا مقدمًا على سائرهما. الترتيب الشرعي والحقوقى لا يصنعه مجموع حسابي؛ يحتاج إلى علم بالصورة والحكم.

أُسئلة تحرس التوازن

- هل حولت شعورًا عابرًا إلى حكم على إيماني أو إيمان غيري؟

- هل سميت رغبة شخصية «محبة لله» قبل أن أعرف حكمها؟

- هل استعملت حسن النية لإهمال أثر أو حق؟

- هل بالغت في المحاسبة حتى أخرت العمل نفسه؟

- هل نسبت وعدًا أو علامة إلى الله بلا دليل؟

- هل يحتاج الموقف إلى عالم أو مختص أو مسؤول بدل محاولة فردية؟

- ما المعروف الصغير الذي أستطيع أدائه دون وعد أكبر من قدرتي؟

لا يلزم أن تجيب عن الأسئلة كلها كل مرة. اختر السؤال الذي يكشف موضع القرار. وإذا وجدت أن التمرين يفتح عليك استرسالاً وسواسيًا أو قلقًا لا ينقطع، أوقف التفصيل واستعن بمن يناسب حاجتك. التربية تعين العبد على العبادة والحقوق، ولا تجعله أسيرًا لورقة لا تنتهي.

خاتمة التدريب

تعلمت في هذه الصفحات أن المحبة لا تُختبر بادعاء كشف القلب. لها آثار ظاهرة نتعاهد بها: علم قبل القول، وفرض يقدم، ووعد يوفى، وعدل يحفظ، وخطأ يصلح، ومعروف يناسب الحاجة. وقد يبقى القلب بين أنس وفتور، وبين قوة وضعف؛ فيأتي العبد ربه بما يستطيع من صدق وافتقار.

خذ من التدريب موقفًا واحدًا إلى حياتك. لا تنتظر صورة مثالية تجمع كل المعاني في يوم. تعلّم ما جهلت، وأدّ الحق الذي حضر، وقل وعدك حتى تفي به، وإذا تعثرت فارجع. ثم اسأل الله أن يجعل محبتك له هدايةً في الاختيار، ورحمةً في المعاملة، وثباتًا حين يثقل الطريق.

دليل العودة إلى النصوص

تدل الفهارس التالية على الفصول التي ورد فيها النص أو شرحه أو الإحالة إليه. أرقام الصفحات هي صفحات بداية تلك الفصول في هذه النسخة، وقد يمتد النص إلى صفحات تالية. وفي فهرس الآيات تميز كلمة «إحالة» المواضيع التي ذكرت الآية دون إعادة نقلها؛ وتبقى تفاصيل المصادر والألفاظ وأحكام الروايات في الحواشي.

فهرس القصص والمواقف

الموقف أو الخبر أو المثل	الفصل والصفحة
حديث الولاية والتقرب إلى الله	٣ (ص ٢٢)
نداء جبريل بمحبة الله لعبده والقبول في الأرض	٣ (ص ٢٢)
عمر وتصحيح مرتبة محبته للنبي ﷺ	٦ (ص ٣٣)
السائل عن الساعة وبشارة «أنت مع من أحببت»	٦ (ص ٣٣)
فرح أنس ورجاؤه صحبة النبي ﷺ وأبي بكر وعمر	٦ (ص ٣٣)
المرأة من السبي وولدها ورحمتها به	١٠ (ص ٥٢)
الأبرص والأقرع والأعمى من بني إسرائيل	١١ (ص ٥٦)
سؤال الرجل عن حسن الثوب والنعل والكبر	١٢ (ص ٦٢)
قراءة ابن مسعود على النبي ﷺ وبكاؤه	١٧ (ص ٨٤)
عمر عند الحجر الأسود	١٨ (ص ٨٨)، ٢٤ (ص ١١٠)
حنظلة وسؤال تغيير الحال	٢٨ (ص ١٢٩)
قيام النبي ﷺ شكرًا لله وسؤال عائشة	٢٩ (ص ١٣٤)
زيارة الأخ في الله ولقاء الملك	٣٣ (ص ١٥٣)، ٣٨ (ص ١٧٢)
وفاة إبراهيم ابن النبي ﷺ	٤٣ (ص ١٩٢)
المثل النبوي لصاحب الراحلة وفرح الله بالتوبة	٤٤ (ص ١٩٦)، ٦٥ (ص ٢٧٤)
أمير السرية والطاعة في المعروف	٥٠ (ص ٢١٧)

الموقف أو الخبر أو المثل	الفصل والصفحة
حامل المسك ونافخ الكير: مثل الجليس	٥٤ (ص ٢٣٥)، ٥٨ (ص ٢٤٩)، ٦٤ (ص ٢٧٠)
سؤال عائشة عن محبة لقاء الله وكراهية الموت	٧٢ (ص ٣٠٢)
خبر أهل الجنة والنظر إلى ربهم	٧٢ (ص ٣٠٢)
دعاء عمار بالشوق إلى لقاء الله	٧٢ (ص ٣٠٢)

فهرس الآيات

السورة والآيات	الفصل والصفحة
الفاتحة: ٢-٧، ضمن حديث «قسمت الصلاة»	٣١ (ص ١٤٢)
البقرة: ١٦٥	١ (ص ١٥)، ٢ (ص ١٨)؛ إحالة: ٥٦ (ص ٢٤١)
البقرة: ١٨٦	٢٦ (ص ١٢٠)؛ إحالة: ٣٢ (ص ١٤٩)
البقرة: ٢٢٢	٦٥ (ص ٢٧٤)؛ إحالة: ٧١ (ص ٢٩٨)
آل عمران: ٣١	٣ (ص ٢٢)، ٦ (ص ٣٣)؛ إحالة: ٢٤ (ص ١١٠)، ٥٣ (ص ٢٣٢)
آل عمران: ٧٦	٦٦ (ص ٢٧٨)
آل عمران: ٩٢	٦١ (ص ٢٦١)
آل عمران: ١٣٤	٦٧ (ص ٢٨٢)
آل عمران: ١٤٦	٦٩ (ص ٢٩٠)
آل عمران: ١٥٩	٦٨ (ص ٢٨٦)
آل عمران: ٢٠٠	٤٥ (ص ٢٠١)
النساء: ٤١، ضمن حديث قراءة ابن مسعود	١٧ (ص ٨٤)
النساء: ٦٩	٦ (ص ٣٣)
النساء: ١٣٥	٣٧ (ص ١٦٨)

السورة والآيات	الفصل والصفحة
المائدة: ٢	إحالة: ٨ (ص ٤١)
المائدة: ٨	٥٢ (ص ٢٢٧)
المائدة: ٥٤	١ (ص ١٥)؛ إحالة: ٤ (ص ٢٧)، ٨ (ص ٤١)
الأعراف: ١٥٦	١٠ (ص ٥٢)
الأعراف: ١٨٠	٩ (ص ٤٦)، ١٥ (ص ٧٤)
التوبة: ٢٤	٤٩ (ص ٢١٣)
التوبة: ١٠٨	٧١ (ص ٢٩٨)
هود: ٩٠	٩ (ص ٤٦)
يوسف: ٨٦	٤٦ (ص ٢٠٤)
إبراهيم: ٧	٤٧ (ص ٢٠٧)
إبراهيم: ٣٢-٣٤	١١ (ص ٥٦)
النحل: ٤٣	٦٢ (ص ٢٦٤)
الإسراء: ٣٦	٤٢ (ص ١٨٨)
طه: ١٤	٣١ (ص ١٤٢)
النور: ٢٧-٢٨	٣٨ (ص ١٧٢)
القصص: ٧٧	٢٢ (ص ١٠٤)
العنكبوت: ٢	٤١ (ص ١٨٣)
العنكبوت: ٥	٧٢ (ص ٣٠٢)

السورة والآيات	الفصل والصفحة
السجدة: ١٦	٥ (ص ٣٠)؛ إحالة: ٢٩ (ص ١٣٤)
الأحزاب: ٤١-٤٢	٢٥ (ص ١١٥)
فاطر: ١٥	١٣ (ص ٦٦)؛ إحالة: ٣٠ (ص ١٤٠)
ص: ٢٩	١٧ (ص ٨٤)
الزمر: ٢٣	٥٩ (ص ٢٥٣)
الزمر: ٥٣-٥٤	١٠ (ص ٥٢)
الشورى: ١١	٤ (ص ٢٧)
الحجرات: ٦	٥٥ (ص ٢٣٨)
الحجرات: ٩	٧٠ (ص ٢٩٤)
الحجرات: ١٠	٣٩ (ص ١٧٦)
الحجرات: ١٧	١٤ (ص ٧٠)
ق: ٦-٨	١٢ (ص ٦٢)
الذاريات: ٥٦	١٦ (ص ٧٩)
النجم: ٣٢	٦٠ (ص ٢٥٧)
الصف: ٢-٣	٥١ (ص ٢٢٢)
الصف: ٤	٨ (ص ٤١)
الملك: ١٢	٢٧ (ص ١٢٥)

السورة والآيات	الفصل والصفحة
الإنسان: ٨-٩	٤٠ (ص ١٧٩)
البروج: ١٤	٩ (ص ٤٦)

فهرس الأحاديث والأخبار

الرواية أو موضوعها	الفصل والصفحة
حديث الولاية: التقرب بالفرائض والنوافل	٣ (ص٢٢)، ١٩ (ص٩١)
نداء جبريل بمحبة الله للعبد والقبول	٣ (ص٢٢)
«الآن يا عمر»: تقديم محبة الرسول ﷺ	٦ (ص٣٣)
«أنت مع من أحببت»: خبر السائل وبيان «المرء مع من أحب»	٦ (ص٣٣)
«ما أعددت لها من كثير أحمد عليه نفسي»: لفظ آخر للقصة	٦ (ص٣٣)
«ثلاث من كن فيه»: حلاوة الإيمان	٧ (ص٣٩)، ٢١ (ص١٠١)
«لله أرحم بعباده»: المرأة من السبي وولدها	١٠ (ص٥٢)
حديث الأبرص والأقرع والأعمى	١١ (ص٥٦)
«إن الله جميل يحب الجمال»: بيان الكبر	١٢ (ص٦٢)
«اقرأ علي»: قراءة ابن مسعود وبكاء النبي ﷺ	١٧ (ص٨٤)
قول عمر عند الحجر الأسود، أثر موقوف	١٨ (ص٨٨)، ٢٤ (ص١١٠)
«الصلاة على وقتها»: البر والجهاد	١٩ (ص٩١)، ٢٣ (ص١٠٧)
«سدوا وقاربوا»: فضل المداومة	٢٠ (ص٩٦)، ٤٨ (ص٢١٠)
«مثل الذي يذكر ربه»: حياة القلب بالذكر	٢٥ (ص١١٥)
«ليعزم المسألة»: العزم في الدعاء	٢٦ (ص١٢٠)
«ساعة وساعة»: حديث حنظلة	٢٨ (ص١٢٩)

الرواية أو موضوعها	الفصل والصفحة
«أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا»: قيام الليل	٢٩ (ص ١٣٤)
«قسمت الصلاة بيني وبين عبدي»: مناجاة الفاتحة	٣١ (ص ١٤٢)
«اللهم إنني أسألك فعل الخيرات»: دعاء المحبة	٣٢ (ص ١٤٩)
الرجل الذي زار أخاه في الله	٣٣ (ص ١٥٣)، ٣٨ (ص ١٧٢)
إفشاء السلام ومحبة المؤمنين	٣٣ (ص ١٥٣)
«حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»	٣٤ (ص ١٥٦)
«الدين النصيحة»	٣٥ (ص ١٦٠)، ٦٣ (ص ٢٦٧)
«يا عائشة إن الله رفيق»: فضل الرفق	٣٦ (ص ١٦٤)
«إن العين تدمع»: وفاة إبراهيم	٤٣ (ص ١٩٢)
فرح الله بتوبة عبده ومثل الراحلة	٤٤ (ص ١٩٦)، ٦٥ (ص ٢٧٤)
«إنما الطاعة في المعروف»: أمير السرية	٥٠ (ص ٢١٧)
نظر الله إلى القلوب والأعمال	٥١ (ص ٢٢٢)
اختيار أيسر الأمرين ما لم يكن إثمًا	٥٢ (ص ٢٢٧)
مثل الجليس الصالح والجليس السوء	٥٤ (ص ٢٣٥)، ٥٨ (ص ٢٤٩)، ٦٤ (ص ٢٧٠)
«لا تحقرن من المعروف شيئًا»	٥٧ (ص ٢٤٥)، ٦٤ (ص ٢٧٠)

الرواية أو موضوعها	الفصل والصفحة
«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن»	٧٢ (ص ٣٠٢)
«من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»	٧٢ (ص ٣٠٢)
كشف الحجاب والنظر إلى الله في الجنة	٧٢ (ص ٣٠٢)
«اللهم بعلمك الغيب»: دعاء الشوق ولذة النظر	٧٢ (ص ٣٠٢)
«لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به»	٧٢ (ص ٣٠٢)

فهرس الآثار وأقوال العلماء

يشمل الفهرس الأقوال المنقولة، وملخصات الشروح، والبيانات العلمية المثبتة في الحواشي؛ وليس كل عنوان اقتباساً حرفياً.

القائل وموضوع البيان	الفصل والصفحة
السعدي: سياق آية المحبة وأوصاف أهلها	١ (ص ١٥)، ٨ (ص ٤١)
السعدي وابن باز: محبة العبادة والمحبة الطبيعية	٢ (ص ١٨)، ٤٩ (ص ٢١٣)، ٥٦ (ص ٢٤١)
ابن تيمية: العبادة تجمع غاية المحبة والخضوع	٢ (ص ١٨)، ١٦ (ص ٧٩)
ابن كثير: الاتباع علامة المحبة	٣ (ص ٢٢)، ٦ (ص ٣٣)، ٢٤ (ص ١١٠)، ٥٣ (ص ٢٣٢)
ابن باز: شرح حديث الولاية والتردد	٣ (ص ٢٢)
ابن تيمية: المحبة الواجبة والمحبة المستحبة	٣ (ص ٢٢)
السعدي: إثبات الصفات ونفي المماثلة	٤ (ص ٢٧)
ابن تيمية: إثبات المحبة وعدم اختزالها في الإحسان	٤ (ص ٢٧)
السعدي: الخوف والرجاء في دعاء المؤمنين	٥ (ص ٣٠)، ٢٩ (ص ١٣٤)
أنس: رجاء صحبة النبي ﷺ وأبي بكر وعمر	٦ (ص ٣٣)
ابن حجر: المعية لا تستلزم تساوي الدرجات	٦ (ص ٣٣)
السعدي: صحبة المنعم عليهم وطاعة الله ورسوله	٦ (ص ٣٣)
ابن كثير: محبة الله للمقاتلين في سبيله صفًا	٨ (ص ٤١)

القائل وموضوع البيان	الفصل والصفحة
السعدي: الأسماء الحسنى والدعاء بها	٩ (ص٤٦)، ١٥ (ص٧٤)
السعدي: اسم الودود واقتترانه بالمغفرة والرحمة	٩ (ص٤٦)
السعدي: سعة الرحمة والإنابة إلى الله	١٠ (ص٥٢)
السعدي: النعم والشكر والدعاء	١١ (ص٥٦)، ٤٧ (ص٢٠٧)
ابن حجر: معنى «بدا لله» في خبر الابتلاء، في الحاشية	١١ (ص٥٦)
السعدي: الاعتبار بآيات الخلق	١٢ (ص٦٢)
السعدي: غنى الله وافتقار العباد	١٣ (ص٦٦)، ٣٠ (ص١٤٠)
السعدي: المنة لله بالهداية	١٤ (ص٧٠)
ابن تيمية: محبة الله لذاته وكونه غاية مراد العبد	١٥ (ص٧٤)
ابن القيم: معرفة الأسماء ومشاهدة الإحسان من أسباب المحبة	١٥ (ص٧٤)
السعدي: غاية الخلق عبادة الله	١٦ (ص٧٩)
السعدي: تدبر القرآن وأثره في القلب	١٧ (ص٨٤)، ٥٩ (ص٢٥٣)
عمر: تقبيل الحجر اتباعاً للنبي ﷺ	١٨ (ص٨٨)، ٢٤ (ص١١٠)
ابن تيمية: إخلاص العبادة ومتابعة الشرع	٢٤ (ص١١٠)
السعدي: الذكر وإجابة الدعاء والخشية بالغيب	٢٥ (ص١١٥)، ٢٦ (ص١٢٠)، ٣٢ (ص١٤٩)
ابن باز: معنى «ساعة وساعة»	٢٨ (ص١٢٩)

القائل وموضوع البيان	الفصل والصفحة
خالد السبت وابن باز: قيام الليل شكرًا لله	٢٩ (ص ١٣٤)
السعدي: العبادة والاستعانة والهداية في الفاتحة	٣١ (ص ١٤٢)
ابن باز: تفسير حديث «قسمت الصلاة»	٣١ (ص ١٤٢)
الترمذي والبخاري: الحكم على حديث دعاء المحبة، في الحاشية	٣٢ (ص ١٤٩)
النووي: معنى «تربها»، في الحاشية	٣٣ (ص ١٥٣)
ابن باز: محبة الخير للأخ	٣٤ (ص ١٥٦)
ابن باز: شرح معنى النصيحة	٣٥ (ص ١٦٠)
ابن باز: فضل الرفق في المعاملة	٣٦ (ص ١٦٤)
السعدي: العدل وآداب الزيارة وأخوة المؤمنين	٣٧ (ص ١٦٨)، ٣٨ ٣٩ (ص ١٧٢)، ٣٩ (ص ١٧٦)
السعدي: ابتلاء المؤمن وحدود القول بغير علم	٤١ (ص ١٨٣)، ٤٢ (ص ١٨٨)
ابن تيمية: الصبر على المصائب والتوبة من المعاييب	٤١ (ص ١٨٣)
ابن باز: شروط التوبة وتجديدها	٤٤ (ص ١٩٦)
السعدي: محبة الأهل حين تزاحم طاعة الله	٤٩ (ص ٢١٣)
ابن باز: طاعة الوالدين في المعروف	٥٠ (ص ٢١٧)
السعدي: موافقة القول للعمل والعدل مع المخالف	٥١ (ص ٢٢٢)، ٥٢ (ص ٢٢٧)
السعدي: التثبت من الأخبار	٥٥ (ص ٢٣٨)

القائل وموضوع البيان	الفصل والصفحة
السعدي: النهي عن تزكية النفس	٦٠ (ص ٢٥٧)
أحمد بن حنبل: رجاء الصالح والخوف عليه، رواية عبدوس	٦٠ (ص ٢٥٧)
السعدي: البذل من المحبوب وسؤال أهل العلم	٦١ (ص ٢٦١)، ٦٢ (ص ٢٦٤)
السعدي: رجاء لقاء الله والاستعداد له	٧٢ (ص ٣٠٢)
ابن باز: محبة اللقاء وحال حضور الأجل	٧٢ (ص ٣٠٢)
الألباني: تصحيح دعاء الشوق، نقلاً عن الدرر السنية	٧٢ (ص ٣٠٢)

فهرس المعاني والموضوعات

المعنى	الفصل والصفحة
يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ	١ (ص ١٥)
محبة العبادة ومحبة الطبيعة	٢ (ص ١٨)
الطريق إلى أن يحبك الله	٣ (ص ٢٢)
محبة تليق بالله	٤ (ص ٢٧)
محبة يصحبها الخوف والرجاء	٥ (ص ٣٠)
حين تحب رسول الله ﷺ	٦ (ص ٣٣)
حلاوة لا تُفتعل	٧ (ص ٣٩)
أوصاف القوم الذين يحبهم	٨ (ص ٤١)
حين يصبح الاسم معنى تعرفه	٩ (ص ٤٦)
رحمة تدعوك إلى الاقتراب	١٠ (ص ٥٢)
من النعمة إلى المنعم	١١ (ص ٥٦)
جمال يوقظ التعظيم	١٢ (ص ٦٢)
الغني الذي نفتقر إليه	١٣ (ص ٦٦)
نعمة الهداية	١٤ (ص ٧٠)
الكمال الذي تعرفه من الوحي	١٥ (ص ٧٤)
قلب يعرف معنى العبادة	١٦ (ص ٧٩)
قراءة تسمع فيها الخطاب	١٧ (ص ٨٤)

المعنى	الفصل والصفحة
اتباع في التفاصيل	١٨ (ص ٨٨)
الفرض الذي ينتظرك	١٩ (ص ٩١)
عمل قليل تصحبه	٢٠ (ص ٩٦)
إيثار عند غلبة الهوى	٢١ (ص ١٠١)
نية صالحة في المباح	٢٢ (ص ١٠٤)
حين تتعدد أبواب الخير	٢٣ (ص ١٠٧)
عبادة لا نخترعها	٢٤ (ص ١١٠)
أن تذكره	٢٥ (ص ١١٥)
حاجة تفتح الدعاء	٢٦ (ص ١٢٠)
خلوة تحفظ الصدق	٢٧ (ص ١٢٥)
حين تفتقر المشاعر	٢٨ (ص ١٢٩)
مناجاة في الليل	٢٩ (ص ١٣٤)
افتقار لا يهين النفس	٣٠ (ص ١٤٠)
الصلاة والذكر الذي من أجله تقوم	٣١ (ص ١٤٢)
أن تسأل الله محبته	٣٢ (ص ١٤٩)
أخ تحبه لله	٣٣ (ص ١٥٣)
فرحك بخير أخيك	٣٤ (ص ١٥٦)
أن تنصح من تحب	٣٥ (ص ١٦٠)
بيت يتسع للرفق	٣٦ (ص ١٦٤)

المعنى	الفصل والصفحة
حب لا يلغي العدل	٣٧ (ص ١٦٨)
أن تزور بلا غرض خفي	٣٨ (ص ١٧٢)
إخوة لا تجمعهم المنفعة وحدها	٣٩ (ص ١٧٦)
حين يعجز من تحب عن مكافأتك	٤٠ (ص ١٧٩)
محبة لا تشترط اليسر	٤١ (ص ١٨٣)
ما لا نعرف حكمته	٤٢ (ص ١٨٨)
الفقد والحنين	٤٣ (ص ١٩٢)
الرجوع بعد الزلة	٤٤ (ص ١٩٦)
صبر يأخذ بالأسباب	٤٥ (ص ٢٠١)
شكوى إلى الله	٤٦ (ص ٢٠٤)
المحبة حين تتسع الحياة	٤٧ (ص ٢٠٧)
حين تستبطن تغيير القلب	٤٨ (ص ٢١٠)
تعلق يأخذ أكثر من حقه	٤٩ (ص ٢١٣)
رضا الناس إذا غلب	٥٠ (ص ٢١٧)
كلام أكبر من العمل	٥١ (ص ٢٢٢)
القسوة باسم الغيرة	٥٢ (ص ٢٢٧)
قدوة تحفظ لها منزلتها	٥٣ (ص ٢٣٢)
ما يدخل قلبك عبر الشاشة	٥٤ (ص ٢٣٥)
خبر توافقه رغبتك	٥٥ (ص ٢٣٨)

المعنى	الفصل والصفحة
غلو يفسد المحبة	٥٦ (ص ٢٤١)
اختيار واحد تصدق فيه	٥٧ (ص ٢٤٥)
صحبة تعينك على المحبة	٥٨ (ص ٢٤٩)
العودة إلى القرآن	٥٩ (ص ٢٥٣)
ما نرجوه ولا نزكي به أنفسنا	٦٠ (ص ٢٥٧)
المال الذي تحب أن تبذله	٦١ (ص ٢٦١)
علم يغير موضع الجهل	٦٢ (ص ٢٦٤)
اختلاف يحفظ المعروف	٦٣ (ص ٢٦٧)
أن يكون لك أثر نافع	٦٤ (ص ٢٧٠)
يحب التوابين	٦٥ (ص ٢٧٤)
يحب المتقين	٦٦ (ص ٢٧٨)
يحب المحسنين	٦٧ (ص ٢٨٢)
يحب المتوكلين	٦٨ (ص ٢٨٦)
يحب الصابرين	٦٩ (ص ٢٩٠)
يحب المقسطين	٧٠ (ص ٢٩٤)
يحب المتطهرين	٧١ (ص ٢٩٨)
وأنت مقبل عليه	٧٢ (ص ٣٠٢)
درجتا المحبة: الواجبة والمستحبة	٣ (ص ٢٢)
المحبة ورجاء صحبة النبي ﷺ	٦ (ص ٣٣)

المعنى	الفصل والصفحة
المعية وتفاوت درجات أهل الجنة	٦ (ص ٣٣)
البنیان المرصوص وحدود الاستدلال بالتعاون	٨ (ص ٤١)
اسم الله الودود	٩ (ص ٤٦)
رجاء التائب المغفرة والمحبة	٩ (ص ٤٦)، ١٠ (ص ٥٢)، ٤٤ (ص ١٩٦)، ٦٥ (ص ٢٧٤)
محبة الله لكماله وإحسانه	١٥ (ص ٧٤)
قيام الليل شكرًا لله	٢٩ (ص ١٣٤)
مناجاة الفاتحة: الثناء والعبادة والاستعانة	٣١ (ص ١٤٢)
الدعاء المأثور بسؤال المحبة	٣٢ (ص ١٤٩)
الرجاء دون الشهادة بالقبول	٦٠ (ص ٢٥٧)
محبة لقاء الله وكراهية الموت	٧٢ (ص ٣٠٢)
لذة النظر إلى الله والشوق إلى لقائه	٧٢ (ص ٣٠٢)
النهي عن تمني الموت لضرر	٧٢ (ص ٣٠٢)

المصادر والمراجع

اعتمدت المقابلة النصوص الرقمية للمصادر الآتية. بيانات الطبعات مأخوذة من بطاقات تلك النصوص، وأرقام صفحاتها من علامات النسخ الرقمية؛ أما مواضع الاستشهاد والألفاظ وأحكام الروايات فتفصلها الحواشي.

القرآن الكريم.

البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه «صحيح البخاري»؛ الإحالات بالكتاب والباب ورقم الحديث.

مسلم بن الحجاج، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ «صحيح مسلم»؛ الإحالات بالكتاب والباب ورقم الحديث.

الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع؛ أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة ص، حديث ٣٢٣٥، مع حكمه على الرواية.

النسائي، أحمد بن شعيب، السنن الصغرى «المجتبى»؛ كتاب السهو، باب نوع آخر، حديث ١٣٠٥.

أحمد بن حنبل، أصول السنة، رواية عبدوس بن مالك العطار؛ دار المنار، الخرج، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ. قوبل الموضع المستعمل برواية اللالكائي.

اللالكائي، هبة الله بن الحسن، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة؛ موضع اعتقاد أحمد بن حنبل، الأثر ٣١٧، النص المنشور في مكتبة إسلام ويب.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، العبودية، تحقيق محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

ابن تيمية، قاعدة في المحبة، تحقيق محمد رشاد سالم، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

ابن تيمية، مجموع الفتاوى، المجلد العاشر؛ إحالات موازية إلى مواضع رسالة العبودية نفسها.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري؛ النص المنشور في مكتبة إسلام ويب، موضعا شرح المحبة والمعية وخبر الأبرص والأقرع والأعمى.

النووي، يحيى بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج؛ النص المنشور في مكتبة إسلام ويب، شرح حديث ٢٥٦٧ في معنى «تربها».

ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم؛ النص المنشور في المصحف الإلكتروني بجامعة الملك سعود، تفسير آل عمران: ٣١، والصف: ٤.

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ النصوص المنشورة في المصحف الإلكتروني بجامعة الملك سعود، والباحث القرآني، ومنصة القرآن الكريم، والموسوعة القرآنية الإلكترونية؛ والإحالات بالسورة والآية.

ابن باز، عبد العزيز بن عبد الله، مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، ٩/٤١٧؛ النص المنشور في موقعه الرسمي.

ابن باز، شرح رياض الصالحين؛ تفريغات الدروس المحددة في الحواشي، المنشورة في موقعه الرسمي.

ابن باز، الأجوبة والتفاسير المنشورة في موقعه الرسمي؛ عناوينها ومواضع الاستفادة محددة في الحواشي.

السبت، خالد بن عثمان، شرح رياض الصالحين، الدرس ١٣١٨
«حديث أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا، كان إذا دخل العشر»؛
التفريغ المنشور في موقعه الرسمي.

الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح النسائي، حديث ١٣٠٤؛
نُقل حكمه بواسطة الموسوعة الحديثية بالدرر السنية، ويقابله
رقم ١٣٠٥ في أصل السنن.

الدرر السنية، الموسوعة الحديثية؛ بطاقة دعاء عمار بن ياسر،
لتوثيق حكم الألباني ومرجعه. قوبل لفظ الدعاء على أصل
سنن النسائي الرقمي.